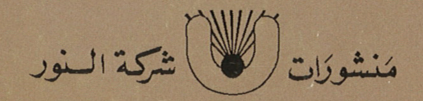
هَدمٌ... وَبِناء

د. مها خير بك ناصر





د. مها خير بك ناصر



الإهداء

إلى المتطهّرين بألم التفرّد، التوّاقين إلى خلاص الإنسان وانعتاقه وتوحّده، إلى الإنسان الإستثناء في كلّ مكان.

مها



سُعاد الصّباح
كما تراها مها خيربك

من السطور الأولى تقف الدكتورة مها خيربك ناصر صاحبة هذا المؤلّف متعاطفة، بل متحمّسة، إلى جانب الشاعرة العربيّة سعاد الصباح التي يدور حولها عمل الباحثة. وسعاد الصباح تشكّل في رأيي ظاهرة عربيّة ليس على مستوى الشعر وحسب، وإنّما على مستويات عديدة أخرى لجهة الموقف والرؤية القوميّة والالتزام بقضايا أساسيّة ومعقّدة ناضلت من أجلها بكلّ إيمان وصلابة دون أن تنال منها الإحباطات ومشاهد الهزيمة. وبما أنّني أعرف كلاًّ من الباحثة، مها خيربك، والشاعرة سعاد الصباح، فلستُ أرى غرابةً في موقف الباحثة من الشاعرة.

فالدكتورة خيربك الأستاذة في الجامعة اللبنانية مسكونة بهاجس مواجهة الحقيقة، مهما جرّ ذلك من متاعب، كما أنها ملتزمة بقضايا الأمّة، حيث تشكّل قضيّة المرأة جانبًا أساسيًّا من هذا الهمّ وهذا الالتزام.

أمّا سعاد الصباح التي كنتُ أعرفها منذ فترة غير قصيرة من خلال قصائدها، فقد التقيتها في بغداد قبيل زلزال الخليج، وكان من دواعي سروري أني اشتركت معها في ندوة تضامنيّة مع الشعب العراقي. وقد أدركت يومها قيمة أن يتكامل الشاعر ـ الإنسان مع الشاعر ـ القصيدة، وكتبت بعدها في مقالة نشرتها إحدى الصحف العربيّة في المهجر أقول: إنّه ليس من السهل أن نجد شاعرًا تحوّل التزامه





القومي إلى عشق صوفي، كما هو الأمر عند سعاد الصباح.

من هنا لم يكن موقف مها خيربك المتحمّس لسعاد الصباح مجرّد انسياق أُنثويٍّ متعاطف مع شاعرة شكّلت تحدّيًا فنّيًا وتصادميًّا في عالم تعوّد أن يرى المرأة في إطار آخر.

لقد كان موقفها نابعًا من قناعات مشتركة وهموم ومعاناة تجمع المرأة العربيّة المثقّفة الواعية والملتزمة على مساحة الوطن العربي.

حتّى في حديثها عن سعاد الصباح الباحثة في قضايا الاقتصاد وحقوق الإنسان لا تتخلّى مها خيربك عن أسلوبها الّذي يرفض أن يخلي الساحة للتعابير العلميّة الموغلة في أكاديميّتها بل يحافظ على نبضه وتوهّجه، ومن قال إنّ الحقيقة العلميّة لا تقال إلاّ في قوالب شديدة الرصانة؟

أمّا عندما تصل إلى سعاد الصباح الشاعرة، وعندما تبدأ الحديث عن تجربتها الفكريّة والتحرّريّة والفنّيّة، فإنّ الباحثة خير بك تبدو مرتاحة، ويبدو الحديث أكثر توهّجًا ونبضًا، كيف لا وقد دخلت في غمار القصيدة؟

ولكنّ الكتابة تأخذ مداها الأوسع عندما يبدأ الحديث عن سعاد الصباح وقضيّة المرأة، حيث يمتزج النقد الفنّي بالشعر ذاته، والحديث عن الثورة بالثورة، أو التوق إليها ووصف المعاناة بالمعاناة نفسها، أو بتحليلها وسَبْر عناصرها.

في هذا الجانب يقترب الباحث أكثر فأكثر من الشاعر، ويحتلّ المشهد مساحات على حساب مشاهد أخرى، إذ يبدو أنّ المحور الأساسي الّذي تركّز عليه الباحثة هو: سعاد الصباح المرأة الشرقيّة الشاعرة المتمرّدة على القشور والقيود العَفِنة والمتمسّكة بالجذور الأصيلة والقيم المضيئة الراسخة في وجدان





هذا الشرق وضمير هذه الأُمّة.

لا أقول إنّ الكاتبة استنفدت زخمها واندفاعها في هذا المحور دون غيره، فكلامها على التزام سعاد الصباح بالقضايا القوميّة فيه الكثير من العُمق والوضوح، والأمر نفسه في حديثها عن المضامين الفنيّة وآفاق القصيدة.

ولكنّي لاأظلم الحقيقة إذا قلت أنّ ما يجمع الكاتبة بالشاعرة حول قضيّة المرأة العربيّة كان المحور الأساس، يعزّز هذا الأمر أنّ الكاتبة هي نفسها شاعرةٌ أيضًا، وتحمل كما ذكرتُ من قبل ، ما تحمله الشاعرة سعاد الصباح من هموم وهواجس وقناعات.

إنّ كتاب مها خيربك عن سعاد الصباح يحمل أكثر من حافز لقراءته. فهو يجمع إلى جانب المعلومات الدقيقة والمهمّة حول الشاعرة تحليلاً فنيًّا وإضاءةً وافيةً لمفاهيم الشاعرة ورؤاها ولتجربتها الفكريّة والفنّيّة ولموقع الشاعرة في عالم الشعر العربي وقضايا الوطن العربي المتشعّبة. وكتابة الدكتورة خيربك المتقنة والمصفّاة تُبعد كلّ أسباب الرتابة وتجعلك متحفّزًا معها لمواجهة ما تثيره من قضايا تتعلّق بسعاد الصباح وبالشعر وبالأُمّة.

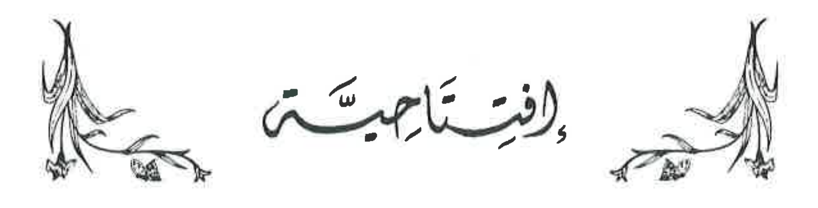
د. هاشم إسماعيل الأيوبي

عميد معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية



الإفتتاحيّة رشح فعل الكلمة الصباحيّة وانتمائها وانسانيّتها بحثًا عن ذات تتشرنق وتستشرف.

مها



١

وهمًا غزلت المرأة العربيّة حلمها

من سقوطٍ إلى سقوط

سارت على درب جلجلتها

لمجد دمعها كان صبرٌ

***

اللاشيء هدف

في أجفان غفوتها تقيّح وقت

تمضغه ... يمضغها

والدرب ؟ ...

لا درب

سجوداً يا دُربة الخطو !!

***

أقحوان، وسحر وكحل

ونون حريم ساكنة

يا لفخر الوصل !!

سنين ... سنين

تتوكّأين على تراكمات غبار ... تصخّر

***

اخرجي أيّتها التاء الساكنة

من عصمة النحو والصرف

سيفاً كوني ... يخترق وثنية التاريخ

يفجّر ثورة الغضب

مخاضها براكين ولادة.

***

٢

سيّدًا كان أبي

يرشف الزمن من حدٍّ سيفه مجدًا

مغامرة كتبه التاريخ

مطية ريادة انبلج فكره

ووثبة أمم ...

***

نخوة ... زرع فضاء الكون

لؤلؤًا ... ومرجانًا ... وصهيل مروءة

خضب جبين وجوده

***

ضائعًا صار ابي

جائعًا ... يستعطي على أبواب سلالته

مطرودًا ، يخضِّب وجنتيه خيبة

ويداه فضاء رحمة

***

دمه يترقرق حبًّا

وعلى بيادر منسيّة يسرج حلمه

تنفلق الحبّة حياةً

زرعًا

والآتي

طفل حجارة ...

مهـــــا



قدر العبقريِّ أن يخط رؤاه بدم القلب ليرسمها انفعالاً صادقًا يعكس الواقع من خلال محرق العين الثالثة، و يصوغ أنين المجتمع أنغامًا إنسانيّة متناسقة.

إنّه يستشرف أبعاد المستقبل الحقيقي الّذي يرغب فيه و يرجو حصوله مستمدًّا من الماضي قبسًا يسهم في إضاءة الآتي، ولكن لا يركن إليه ولا يطمئنّ، لأنّ الحياة في نظره حركةٌ دائمة نحو الأمام، والإنسان بقدراته يبتكر شكل التاريخ الآتي، ويحدّد إحداثيّاته في مستويات الصراع ما بين الحركة والسكون.

وقدر سعاد الصباح المولودة في بيتٍ عربيٍّ أصيل[1] أن يخصّها الله بروحٍ شفّافةٍ ومتوثّبةٍ في آن، روح تتألّم مع الآخرين من جهة، وترفض مظاهر الخنوع والاستسلام من جهةٍ أخرى.

إنّ مسيرة الصباح الاجتماعيّة والثقافيّة، والإنسانيّة تشير إلى تميّزها برؤيا إنسانيّة نبيلة، وبشخصيّة فريدة ساعدتها على إثبات وجودها الأنثوي الفاعل في مجتمع عربيّ ذكوريّ، سلاحها فكر حرّ، وصدق مشاعر، ومعينها زوج[2] متحرّر من ثقل الموروث المتعفّن، يصبو إلى التغيير والتجديد، ويؤمن بالمرأة المبدعة الخلّاقة[3]، فعزّز في رفيقة دربه الثقة بالنفس، والشعور بالقوّة على إثبات حقّها في

(١) ولدت الدكتورة سعاد الصباح في ١٩٤٢/٥/٢٢ وهي الابنة البكر لوالدها الشيخ محمّد صباح الصبّاح، وجدها محمّد حاكم الكويت.

(٢) اقترنت في ١٩٦٠/٩/١٥ بالشيخ عبد الله مبارك الصبّاح، نائب حاكم الكويت والقائد العام للجيش والقوات المسلّحة.

(٣) تقول الدكتورة سعاد الصباح عن زوجها الراحل الشيخ عبد الله في كتابها "صقر الخليج": كم كان أبو مبارك يدهشني في رؤيته الجديدة للعالم، وفي نبوءاته المستقبلية، إنه البدوي العريق الذي كان يلبس ثوب الحداثة، صفحة ٢٧٤.

الحياة كعضوٍ فاعل ومؤسّس في الأسرة الإنسانيّة[٤].

منح الشيخ عبد الله مبارك[٥] زوجه سعاد الصباح دعمًا معنويًّا، وحرّض الكمون الذاتيّ والإنسانيّ في نفسها، فحفّزها على ترجمة هذه اليقظة شعرًا ودراسات علميّة وتحليليّة.

لم يوقفها، عن السعي إلى تحقيق أهدافها، ما أنعم الله عليها من حياة تغري الكثيرات من النساء بالترفّل في أحضان البذخ، والترف، والتسلية. فكانت مثال التمايز، ورئيسة في الريادة والاستكشاف والخلق والإبداع.

حرصت الصباح على تثقيف نفسها، وإعدادها إعدادًا حقيقيًّا، فلم ترض بحياة الحريم، ولم تحدّها واجبات الأمومة والمتطلّبات الزوجيّة ومسؤوليّاتها الاجتماعيّة من متابعة مسيرتها العلميّة والثقافيّة[٦]، ولم تشغلها الأسفار، والحضارات الغربيّة عن انتمائها القوميّ العربيّ، ولم تقعدها مشاغل الحياة وإغراءاتها عن الالتزام بقضيّة المرأة العربيّة والدفاع عن حقوقها وتصوير واقعها، داعية إيّاها إلى إثبات وجودها الإيجابيّ الفاعل والمتفاعل مع الحركة الدائمة باتّجاه المستقبل، كي لا تبقى منسيّة على هامش الوجود، لتتوارث ذلّها وعبوديّتها.

التزامها قضايا الإنسان لم ينشأ عن مركّب نقص، أورغبة في الظهور، بل كان إيمانًا صادقًا، ينبع من وعيٍ فكريٍّ جسّدته كتابة نظريّة وممارسة عمليّة في الحياة[٧]، بدءًا بوضع دراستها الأولى في الاقتصاد لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان «التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة[٨]» ثمّ دراستها عن

---

(٤) تقول في كتابها "صقر الخليج" صفحة ٢٧٣، عن زوجها "كان يؤمن في الحياة والتطور والعلم والثقافة".

(٥) تقول في كتابها "صقر الخليج" عن دعمه لها: "لم يقف أبداً ضد طموحاتي العلمية (...) بل كان يحترم عقلي، ويحترم خياراتي، ويرافقني إلى أي مدينة في العالم حتى أواصل تعليمي"، صفحة ٢٧٣.

(٦) تابعت تحصيلها العلمي بعد الزواج ونالت البكالوريوس في الاقتصاد من جامعة القاهرة عام ١٩٧٣، وشهادة الدكتوراه من جامعة جلفورد البريطانية عام ١٩٨١.

(٧) مارست وجودها وفاعليتها في الثقافة والحياة واختيرت لتشغل مراكز كثيرة في جمعيات، وجامعات، ومؤسسات عالمية (أنظر السيرة الذاتية).

(٨) نالت عن هذه الدراسة شهادة الدكتوراه وركّزت في دراستها هذه على مشكلة الاعتماد الشبه الكامل على تصدير النفط واستيراد الأيدي الأجنبية؛ صادر عن مؤسسة سعاد الصبّاح للثقافة والنشر.

النفط ودور أوبك في كتابها «أوبك بين تجارب الماضي وملامح المستقبل[٩]» ثمّ كتابها «الكويت: تحليل الأزمة الاقتصاديّة[١٠]» وكتابها "السوق النفطيّ الجديد: السعوديّة تستردّ زمام المبادرة[١١]". وكان كتابها «أزمة الموارد في الوطن العربيّ[١٢]» مرجعًا أساسًا للمهتمّين بشؤون الشرق الأوسط.

اهتمت سعاد الصباح بحقوق الإنسان قولاً وعملاً[١٣] وقد تضمّن كتاباها «حقوق الإنسان في العالم المعاصر[١٤]» و «حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق[١٥]» دعوةً جريئةً وصادقةً، ومعرفةً علميّة دقيقة، ورغبةً في تحفيز الشباب العربيّ ليستوعب صرخة الضمير الإنسانيّ ويطالب بحقوقه كإنسان.

دعّمت آراءها بشروحات عن مفهوم المصطلح وتطوّره الفكريّ وتوضيحاتٍ تفسِّر الحقوق الفرديّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

استطاعت الصباح بقوّة المنطق والحجّة والبرهان العلميّ والإحصاء الميداني أن تعزّز الإيمان بالإنسان، وتربط هدف الاقتصاد برفاهيّته، وبحقِّه في حياةٍ حرّةٍ كريمةٍ في كلّ أصقاع الأرض. فكانت ككلّ الأشجار الشامخة المتجذّرة في أرضها تنشر أوكسجين الحياة في الأفق الإنساني اللامتناهي بدءًا من بقعة الأرض الّتي سقتها ورعتها حتّى تتحقّق غايتها إنسانيّةً شاملةً.

إنّ قضايا الإنسان في المجتمع العربيّ، الواقعيّة، والاقتصاديّة والسياسيّة كانت منطلقًا لها فجاءت دراساتها معمّقةً وتحليليّةً، تلقي الضوء على خطورة تصدير

(٩) تبحث في هذا الكتاب عن دور منظمة أوبك في سوق البترول العالمي ومستقبل القيادة فيه ؛ صادر عن مؤسسة سعادالصباح للثقافة والنشر.

(١٠) "الكويت : تحليل الأزمة الاقتصادية": وضعته باللغة الإنكليزية وتتناول في هذا الكتاب الأزمة الاقتصادية عام ١٩٨٢ وسبل معالجتها.

(١١) "السوق النفطي الجديد : السعودية تسترد زمام المبادرة": تتناول فيه مستوى انخفاض سوق النفط، واستعادة السعودية موقفها القوي لسببين، انخفاض الكلفة ووجود الطاقة الإنتاجية الهائلة، ثم تتناول المعالم الرئيسة للنظام النفطي الجديد، والسياسة الأميركية وشركات النفط الكبرى.

(١٢) تتناول هذه الدراسة أزمة الموارد في الوطن العربي، وتحديد الأسباب التاريخية والموضوعية لهذه الأزمة، مستمدَة منهجاً نظرياً وفقاً لنظريات حركة العمل والسكان، ونظريات حركة رأس المال، مع تحديد حقيقة الواقع المعاشي ووضع بعض الفرضيات التي يمكن أن تسهم في الحل.

(١٣) كتبت مئات المقالات والدراسات الاقتصادية والقومية والوجدانية في الصحف والمجلات العربية، داخل العالم العربي وخارجه، وشاركت في مؤتمرات كثيرة.

(١٤) «حقوق الإنسان في العالم المعاصر» تعرض في هذا الكتاب المصادر الفكرية لموضوع حقوق الإنسان، ومفهومه وتطبيقاته.

(١٥) حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق تدرس في هذا الكتاب الجذور لموضوع حقوق الإنسان، ومفهوم هذه الحقوق، وأنواعها، وحقوق الأقليات، وحقوق الإنسان في زمن الحرب. ثم تتناول دور الأمم المتحدة في تقنين الحقوق وجهود المنظمات الإقليمية، ودور المؤسسات غير الحكومية...

النفط واستيراد الأيدي العاملة الأجنبيّة ووضع الحلول الّتي يمكن أن تساهم في التحسين والتطوير ولم تغفل دور المرأة الخليجيّة في ميدان العمل لذلك شجّعتها على إثبات هذا الدور الاجتماعيّ والحضاريّ(١٦).

ممّا لا شكّ فيه أنّ الدراسات المنهجيّة التحليليّة تزوّد آراء الباحث وتطلّعاته ولكنّها تبقى خاضعةً للعقل الواعي الّذي ينظّمها ويرتّب موضوعاتها في أبواب وفصول غير أنّ هذه الدراسات لا تعكس الجوهر الفكريّ الإنسانيّ وتصادمات حركاته الانفعاليّة الداخليّة أمام رؤيته للعالم وتلقّيه الإيجابيّ أو السلبيّ لما يحيط به.

إنّ الدراسات تؤدّي إلى معرفةٍ علميّةٍ مقنّنة تخدم زاويةً لها بعدٌ محدّد من غير أن تحمل دلالاتٍ وإشاراتٍ ومعاني متباينة أو متداخلة متوازية أو متناقضة.

أمّا الشعر فهو المعرفة الحقيقيّة، هذه المعرفة الّتي يعجز عن إعطائها العلم أوالفلسفة، إنّه ثمرة الخبرة العلميّة والعمليّة والمعرفة الوجوديّة وما وراءها وهو أيضًا تجسيدٌ مصغّرٌ للروح الإنسانيّة الّتي تبقى مجهولة القيمة الفنّيّة. إنّه الصورة الحقيقيّة عن الحياة المتحرّكة دائمًا. هذه الحركة التي تولد مبدعين وتفرض عليهم عملاً جبّارًا خالقًا، عملاً يهدم ما تداعى وما ليس صالحاً للاستمرار في رحم الحياة ليؤسّس لبناءٍ جديد أكثر صلابةً واستمرارًا في الآتي.

إنّ الكتب السماويّة لم تحمل إلينا دراساتٍ وتحليلاتٍ بل كانت فنًّا إلهيًّا خاصًّا يحتاج في كلِّ عصرٍ إلى التأويل والتفسير فيجد فيه كلُّ مجتمعٍ وكلُّ زمانٍ حاجته وضالّته من الوجود.

ولما كان الشعر خلقًا وابتكارًا وجب على المبدع أن يحمّل رؤياه أشكالاً للزمن الآتي لا ترى ولا تمسّ، لأنّها الكلمة الإنسان المتجدّد في ظاهره والثابت في جوهره ومعناه.

انطلاقاً من هذه الفرضيّة، هل أعطت سعاد الصباح فنًّا بمستوى الريادة الفكريّة؟

(١٦) وضعت استبيانات بينت من خلالها ضرورة مشاركة والتزام المرأة الكويتية بالعمل والتخطيط والتنمية في «الاقتصاد الكويتي ودور المرأة» ؛ صفحة ١٢٤-٢١٢ - أزمة الموارد في الوطن العربي ٢٦٣-٢٦٦.

وهل ساهمت في خلق رؤى وبنى مستقبليّة ؟

إنّ الشاعر يبتدع أفكارًا من صلب الكون يخمِّرها في رحم الحياة، لتبقى بذرةً صالحةً فاعلةً في كمون الحاضر والمستقبل، وبخصوبته الفكريّة يجسّد وعيه للأزمة الإنسانيّة – حضورًا وثقافةً – سواءٌ أكان ذلك على مستوى الخصوصيّة الفنّيّة أم على مستوى النظر إلى العالم.

استطاعت سعاد الصباح بشعرها أن تقبض على الواقع العربيّ فشرَّحته بمبضع المحبّة آملةً أن يتخلَّص من أمراضه وعلله، فكانت قضيّتا المرأة والقوميّة العربيّة من أهمّ الموضوعات التي ضجَّت في وجدانها وشغلت فكرها.

أمام هذا الواقع العربيّ، وما يولّده من قلق، تمخّضت نفس السعاد عن سعيٍ بالكلمةِ والفكر، في محاولةٍ إلى هدم الصنميّة الشكليّة الظاهريّة في عاداتنا وتقاليدنا، هذه الصنميّة المفرَّغة من مضمونها الإنسانيّ والقوميّ، فتفتّقت نظرتها إلى الإنسان والوطن عن صورٍ جديدة أكثر ملاءمة مع الواقع، ووضعت رؤىً تختزل رغبتها في تشكيل معايير يمكن اعتبارها حقيقيّة لأنّها تعيد للأنثى إنسانيّتها وللمجتمع العربيّ لحمته.



الفَصْلُ الأوّل

الأنثى واقعًا ورُؤيا

إضاءة
ماهية الهدم والبناء

الهدم لغة[1] نقيض البناء، والهدم أدبًا هو التخلّي عن الأشكال المهترئة غير الصالحة، والكشف عن الجذور والأصول والبناء عليها.

والبناء لغة[2] عكس الهدم، ويعني التشييد والتأسيس، وأدبًا هو وضع المثال الذهني في أنموذج يعكس الصورة المتمثّلة في الفكر، ويكون هذا الأنموذج مغايرًا ومتميّزًا وله خصائصه المرتبطة بالمثال الكامل غير المرئيّ، فتبقى الرغبة في تجسيد الكامل قوّة تفعيل دائمة تحفّز على الهدم والبناء، وبهما تكمن صيرورة الحياة وديمومتها، وتبقى حركة الوجود بين مدٍّ وجزرٍ.

الهدم فعل حركيّ تحرِّضه الرغبة في التأسيس والبناء، فإذا لم يكن من رغبة تحرِّك الكمون الذاتي وتقلق سكونيّته، ليولّد القدرة والطاقة على خلق فاعليّة التخلّي عن الإرث المهترئ، فَقَدَ الهدم أدواته ومعناه وأهدافه، وبالتالي تبقى المجتمعات البشريّة مستعمرةً لفكرة الترقيع والترميم الّتي تبقي الحاضر نسخة مشوّهة عن أشكال مفرَّغة من الجوهر، إنّها أشبه بصدفة لا لؤلؤة فيها، نسمع من خلالها صدى ماضٍ لا نعرف ألوانه ولا أشكاله الحقيقيّة، ماضٍ أبطل بقدراته

(١) لسان العرب، المجلد الثاني، مادة هدم، صفحة ٦٠٣.
(٢)

الصلاحيّات غير الملائمة للاستمرار والديمومة، ولم يترك منها إلاّ إشارة للعظة والاعتبار، وبتبعيّة الإشارة في ظاهرها من دون معرفة مدلولها تتحوّل أشكال هذه الصلاحيّات الملغيّة عرفاً إلى وثنيّة للقداسة والعبادة المغلوطة. فالهدم والبناء عمليّتان متكاملتان، إنّهما وجهان لحقيقة واحدة، هي قوّة الاستمرار، هذه القوّة التي تروم الكمال، فتلغي وتؤسّس رغبة في تحقيق الأشكال الأكثر ملاءمة مع تطوّر الحياة وارتقائها.

وهكذا بقيت الحياة خاضعةً لفعلين متعاكسين، ولكنّهما متكاملان في الدلالة وبلوغ الهدف، وهذا ما عبّر عنه نعيمة في كتابه البيادر قائلاً: «مُذْ كان الإنسان وهو يبني بيدٍ ويهدم بيد، وحتى اليوم ما هدم فاستراح من البناء، ولا بنى فاستراح من الهدم، فلا بناؤه يدوم ويثبت، ولا هدمه يدوم»[٣].

فالبناء سابق على الهدم، والهدم لاحق، وبين التابع والمتبوع سرٌّ معرفيّ ظواهره مرئيّة وحقائقه باطنيّة خفيّة، إنّها العلاقة بين الثابت والمتحوّل، بين الأصل والفرع، علاقة يسكنها القلق الناتج عن غياب المعرفة الحقيقيّة للشكل الكامل، للسابق أو الأصل. وبسبب غياب القدرة المعرفيّة العميقة، ستظلّ المجتمعات تسعى لتحقيق معرفتها، وبالسعي يتمّ التجاوز والتأسيس، ثم التجاوز والتأسيس لبناء مستقبلٍ أفضل. «فلو كان للإنسان المعرفة الصحيحة لعرف كيف يستقرّ في عالمه ذاك، فلا يكره على هدمه»[٤].

كان الوقوف على الأطلال شكلاً سابقًا جاهزًا محبّبًا محترمًا، فجاء أبو نوّاس وهدم جهوزيّة الفكرة المسبقة، وأسّس لمطالع شعريّة جديدة تتجاوز الشكل الجاهز، وتتّجه نحو المستقبل من الماضي، فلم يلغ الأصل، بل بنى عليه كمنطلق وخرج عليه كشيء محنّط مقدّس، مبلور، لا فاعليّة حركيّة له في الحاضر والمستقبل، وأعاد إلى الموروث قدرة التفاعل والديمومة، وذلك بالكشف عن

(٣) مخائيل نعيمة، البيادر، صفحة ٤٢
(٤) مخائيل نعيمة، البيادر، صفحة ٤٦.

البذور الحيّة في التراث، القادرة على خلق أشكال متلائمة مع الإنسان والواقع الجديدين، فهدم الشكل الجاهز ببناء مؤسّس على الأصل ومغاير له في الشكل، فالهدم البنّاء غايته التغيير، والتغيير يجب أن يكون في هدم البنية القديمة التقليديّة، ولكنّ هذا الهدم يفترض حدوثه بآلة من التراث عينه لا من الخارج. لقد غيّر أدونيس في النظرة إلى مفهوم التراث، ونقض أشكاله غير الجديرة بالحياة، ولكنّه اشترط في عمليّة التغيير أن تكون أدوات الهدم من التراث عينه، لأنّ الشيء المستعار تأثيره سطحيّ: «إذا كان التغيير يفترض هدمًا للبنية التقليديّة، فإنّ هذا الهدم لا يجوز أن يكون بآلة من خارج التراث، وإنما يجب أن يكون بآلة من داخله، إنّ هدم الأصل يجب أن يمارس بالأصل ذاته»[٥].

والهدم التغييريّ متأصّل في تراثنا العربيّ، كان في معظمه خروجًا على المألوف بالاستعانة بالحقيقيّ الأصيل، فأبو الطيّب شقَّ الطريق نحو المستقبل بهدم أسوار الاعتقال الفكري، وبناء أنماط جديدة تعكس انغراسه في التراث من جهة، وتجاوز ظلّ التركة من جهةٍ ثانية. لم يقنعه النسخ، فجعل من معرفته العميقة بالتراث ثورة تفجيرٍ داخلي لمكوّنات ثقافته الأساس ليولِّد من أعماق الثورة الفكريّة أسساً جوهريّة بنى عليها حاضرًا، حضّر به لمستقبلٍ متحرِّك.

إنّ الهدم شكل من أشكال الثورة القائمة على الرفض والخروج على المألوف، إنّه رفضٌ إيجابيٌّ هادفٌ إلى إزالة القشرة والكشف عن الجوهري، أو بالأحرى هو اختراق للحصون الوهميّة المتوارثة التي تحجب بكثافتها المتراكمة فاعليّة الرؤيا فيكتشفها ويعمّقها، وبالاختراق يحدث التلقيح ما بين بذور حيّة متوارثة وبين خصوبة الفكر الحاضر الطامح إلى كماله، وبالمزاوجة الطبيعيّة السليمة تولد الأشكال المغايرة، والجديدة، المنبثقة عن جذورها والمتجاوزة السطحي.

إنّ الهدم البنّاء ثورة حقيقيّة، لها معاييرها ومفاهيمها وأدواتها، ولا تكون وليدة

(٥) أدونيس، الثابت والمتحول، الأصول، صفحة ٣٣.

نزوة عابرة، أو حركة اعتباطيّة؛ إنّها ثورة تهدم أسوار السلب ومسبّباته، وتؤسّس لإقامة بنية اجتماعيّة إنسانيّة قادرة على مواكبة تطلّعات الإنسان السائر بفكره نحو الأمام. والثورة الحقيقيّة - في رأي طه حسين - يشعل فتيلها الأدب؛ لأنه القادر على إيقاظ المشاعر والأحاسيس وتحفيز فاعليّة الرفض والتمرّد، قال: «الأدب يمهّد للثورة وينشئها، لأنه يثير النفوس ويبغض إليهم بعض أطوار الحياة التي يحيونها»[٦].

بهذه الرؤيا عمل جبران، فدعا بالكلمة الجريئة إلى رفض الموروث المهترئ، وذلك بهدم الأشكال المحنّطة المسيطرة على مستويات الواقع كلّها، من اجتماعيّة وسياسيّة وفكريّة، ولم يعتدل في الكشف عن آرائه وأفكاره، بل نقل الواقع بكلّ مساوئه وأخطائه؛ لأن الاعتدال في التعبير عن الأنا الإنسانيّة في رأي جبران يقيّد المجتمع البشريّ في لحظة زمنيّة واحدة يحجبها الخوف: «من يعتدل بدنياه يبق حيث ولدته أُمّه، فلا يسير إلى الوراء ليعلّم الناس أُمثولة بتقهقره، ولا يخطو إلى الأمام ليرشدهم إلى الخير، بل يظلّ جامدًا ضائعًا، محدقًا بظلّه، ومصغيًا لطرقات قلبه قابضًا على أنفاسه»[٧].

وتصوير مساوئ الواقع دعوة إلى رفضه وهدم أشكاله السيّئة، من أجل وضع بنية أكثر سلامًا وصلاحيّةً، بنية أقرب إلى فكر وتطلّعات إنسانيّة الإنسان؛ لأن البناء السليم - في رأيه - لا يكون إيجابيّ النتائج إن لم يسبق بهدم المظاهر والكشف عن أساساته السليمة من أجل أن يكون البناء الجديد أكثر متانةً وقوّةً، وبذلك ربط جبران بين تلازم عمليّة الهدم والبناء، فعمليّة البناء التي كانت سابقةً في عمليّة التأسيس الأولى صارت نتيجة تابعةً لسابق الهدم الذي يؤسّس أيضًا لبناءٍ جديد «أميل إلى الهدم ميلي إلى البناء»[٨].

وبهذه الرؤيا عينها عمدت سعاد الصباح إلى تصوير واقع الأنثى العربيّة، وواقع القوميّة العربيّة، من أجل هدم المظاهر السلبيّة القاتلة، وبناء الأسس الصحيحة التي تبعث على خلق

(٦) طه حسين، خصام ونقد، صفحة ١٥٥.
(٧) جبران خليل جبران، مخطوط، وهب كيروز، المجلد ٢، الجزء٣، صفحة ٣٨
(٨) جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة العربية، العواصف، صفحة ٤٠٤.

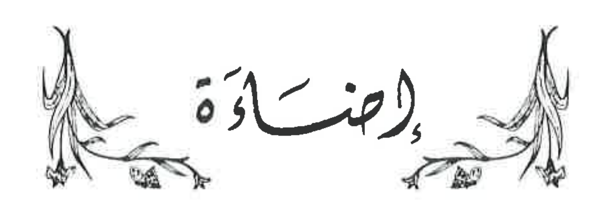
واقعٍ عربيٍّ إنسانيٍّ أفضل؛ لأنّ التصوير الذي يكتفي بنقل المظاهر وتجسيد ظلاله، تصوير سلبيّ يكرّس الأخطاء، ويعمّق فاعليّتها.

والهدم إن لم تكن غايته البناء كان تخريبيًّا يحطّم الشكل الجاهز، ولا يقدِّم ما يشير إلى الأساس أو أيّة معالم كانت، فهو نوع من اقتلاع الأصل والجذر، وتدمير للفكر.

وسعاد الصباح لم يأتِ شعرها تصويريًّا مفرغاً من الهدف، لقد ضمّنت كلامها بذور ثورة على الراكد والمستقرّ في الذهن، ثورة تهدم مظاهر التخلُّف، وتؤسّس لبناء علاقات مغايرة، قوامها الوعي المنبثق من فهم التاريخ، واختراق حصونه، وحرق السطحيّ التراكميّ.

ولم يكن الهدم مع سعاد الصباح اعتباطيًّا أو تخريبيًّا، لقد انطلقت من تصوير واقع المرأة العربيّة، وواقع القوميّة العربيّة، لإحداث صدمة في وجدان الإنسان العربيّ، وبالصدمة تتمّ اليقظة، واليقظة باب للكشف المعرفيّ، والكشف لا يتمّ إلاّ بعمليّة هدم تزيل المحنَّط المتوارث التراكمي وصولاً إلى الجوهر الحقيقيّ، وهو الأصل الذي ترغب في البناء عليه.





لقد كانت موضوعات المرأة من أهمّ القضايا التي عالجها الأدباء في عصر النهضة والعصر الحديث، وأعتقد أنّ المرأة، حتّى اللحظة، لم تأخذ حقّها كإنسان له حقوق وعليه واجبات مقدّسة.

إن المرأة في عصرنا الحالي اكتسبت بعض المظاهر البرّاقة، ولكنها في حقيقة الأمر لم تحصل إلاّ على قشور واهية تعميها عن الجوهر الأساس الذي يُفْتَرَضُ بها البناء عليه.

إنّ المرأة العربيّة، تشغل اليوم مساحات واسعة من الإعلانات والدعاية، مشوّهة بذلك الإنسان في داخلها.

والرجل ما زال ينظر إليها من وراء نقاب المادّة والشهوات، ولم يفكّر بها كشريك يقاسمه التفكير، والأرباح المعنويّة، والخسارات. ففي المؤسّسات العائليّة الرابحة يكون الفضل للرجل، وإذا فشلت تكون المرأة سبب الفشل؛ لأنّها، أي المرأة، ما تزال في عُرف المجتمع المريض السبب الرئيس لكلّ خطأٍ وخسارة، لذلك تعاقب الشريعة المجتمعيّة المرأة وتحاسبها متجاهلةً دور الرجل في ارتكاب الخطيئة.

إنّ الإسلام هذا الدين الحنيف لم يميّز بين المرأة والرجل، فلقد هدم عقائد الجاهليّة، وجاء ثورة اجتماعيّة تقوّض المظاهر البشريّة الخاطئة، وتكرِّم الإنسان،

ولم يكن التكريم محصورًا بالرجل، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]

ولم يخصّ الرجل بتكريمه.

حرّم الدين الحنيف وأْد المرأة جسديًّا، فكيف يحلّل الوأد في عصرنا هذا نفسيًّا وفكريًّا؟ وكان في المنع تخويف وتهويل من لقاء الخالق:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[2]

ألزم الدين الجديد الإنسان ذكرًا وأنثى أن يتعلّما مبادئ الدين الجديد، وينشرا العقيدة والمعاني السامية، ويؤدّيا أركان الإسلام، ولم يعتبر المرأة متاعًا مباحًا، بل أعطاها حريّة اختيار الزوج[3]، وكان الرسول (صلعم) يحترم آراء نسائه ويقبل مناقشاتهنّ في أمور لم يرضين بها، فكانت نساؤه، عليه الصلاة والسلام، القدوة والمثال لنساء العرب المسلمات.

وقد عرف المجتمع العربيّ سيّدات فاضلات كان لكلّ واحدة منهنّ دور فاعل في الحياة الأدبيّة والفكريّة والسياسيّة.

ولكنّ المجتمع العربيّ المعاصر تحكمه عقدة الذكورة التي ترفض النظر إلى المرأة نظرة دينيّة منطقيّة، فانبرى الكثير من الأدباء يطالبون بحقوقها وينقلون مأساتها والتعبير عن مشاعرها الإنسانيّة.

---

(١) سورة الاسراء، الاية ٧٠

(٢) سورة التكوير، الآية ٨ –٩

(٣) يروى أن الرسول فسخ زواج خنساء بنت خزان الأنصاري لأن أباها أكرهها على ذلك، ابن حجر، جزء ٨، صفحة ٦٥.

لقد نادى قاسم أمين بتحرير المرأة، وقال إنّها «إنسان مثل الرجل، ولا تختلف عنه في الأعضاء ووظائفها ولا في الإحساس، ولا في الفكر، ولا في كلّ ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان»[٤].

ورأى جبران: «إنّ المرأة من الأمّة بمنزلة الشعاع من السراج»[٥]، فإذا كانت المرأة ضعيفة لا دور لها، فهذا دليل على ضعف الأمّة وعجزها، ودعا جبران إلى النظر الواعي إلى الواقع المهين الذي تعيشه المرأة، محرّضاً على رفضه، والخروج على تقاليده، وإعطاء المرأة حقَّها في الحياة الكريمة والمشاركة الفاعلة، وهي - في نظره نصف الرجل الحيّ.

ولقد كان للشاعر نزار قبّاني الدور البارز في التعبير عن واقع المرأة المأساويّ، وسُمّي بشاعر المرأة، ولكنّه لم يستطع أن ينقل انفعالات نفسها وقلقها واضطرابها إزاء ما يحيق بها من مظالم نفسيّة ومعنويّة، فلم يهدم صنميّة ولم يدع إلى الرفض، ولم يؤسّس لبناء مستقبلٍ أفضل[٦].

ممّا لا شكّ فيه أنّ المرأة العربيّة بدأت تدخل إلى مستويات كيانها الإنسانيّ، ولكنّها لم تكشف النقاب بعد عن نبل مشاعرها وجوهرها الإنسانيّ، لقد اقتصر الكلام على الغبن والظلم، واخترق بعض النساء شفافيّة العفّة اللفظيّة وهتكن حرمتها، ووصمن شعرهنّ بالبذاءة اللفظيّة، ظنًّا منهنّ أنّ هذا النوع من الكلام دليل ثورة وتمرّد وتحرّر، وأنا لا أرى فيه إلا انصياعًا إراديًا، سعين إليه بمشيئتهنّ.

إنّ هدم السلطة الذكوريّة مرتبط بقدرات المرأة الفكريّة والنفسيّة. وبتعزيز الكيان الذاتيّ تستعيد شوقها الكاشف، وأحلامها الرؤيويّة لتبدع عالمًا مولودًا من رغباتها الإنسانيّة العميقة والأصيلة، وعندما تثبت المرأة أصالتها وجدارتها تهيّئ لثورة تتجاوز كلّ أشكال الظلم والاستبداد والإذعان للأمر الواقع.

(٤) أحمد أمين، تحرير المرأة، صفحة ٤١.
(٥) جبران، م. ك. ع.، صفحة ٢١١.
(٦) في قصائد الشاعر الراحل نزار قباني

ولكنّ الثورة الإنسانيّة الحقيقيّة يلزمها عنصرا الحياة ليفعّلا معاً الروح القابعة وراء جدران التقاليد والعادات البالية.

هذه الدعوة إلى ردم الهوَّة ما بين ما هو كائن، وبين ما يجب أن يكون استطاعت الشاعرة سعاد الصباح أن تحقّق جزءًا منها، وإن كانت قد أغفلت بعض جوانبها، فهي لم تضع نهايات، وإنّما جعلت لنصّها زماناً ينبئ بولاداتٍ، وكلّ ولادة هي بداية جديدة.

ألمس في شعر الصباح هدمًا للواقع، ولكنّها في الوقت عينه تعمل لتعزيز سلطة الرجل، فهل كان هذا الاعتراف نوعًا من الرفض القائم على المواجهة بالقبول، وإظهار بشاعة النتائج وفظاعتها؟

سنحاول إبراز الصور الأنثويّة التي نقلتها سعاد الصباح، ومظاهر فاعليّة الرفض التي آمنت بها من أجل بناء المجتمع الأنثويّ الإنسانيّ الأفضل.





تمارس الأنثى في قصائد الصباح الانشطار على ذاتها، فهي تمثّل رمزًا للحياة وديمومة الحركة، وتتصدّى للواقع بعزم تستمدّ شحنته من بواطن التاريخ، فتحوَّل القلق والتوتّر إلى طاقة مضاء وعزيمة، لتنطلق من كوامن ذاكرة التاريخ وما تحمله من مآس ترسم واقع المرأة العربيّة، فصدح صوتها يعبّر عن همسات نساء الشرق المكبوتة في حقب وأزمنة مضت وثوراتهنّ منذ مئات السنين؛ لأنها كانت مسيرات نفسيّة، صامتة، داخليّة لم تشهدها فحولة الساحة العربيّة الرابضة على أرض القرار:

في داخلي...
مسيرات نسائيّة طويلة
تبدأ من طنجة
وتنتهي في حضر موت[1]

ترث المرأة الشرقيّة انقيادها طبقًا لمخطّط ذاكرة الإنسان العربيّ الذي جعل الموروث سيفًا مسلّطًا على كلّ ما هو أنثويّ، وعلّب المرأة واستبدّ بها، فزجّ بها

(١) امرأة بلا سواحل، صفحة ٨٩.

في قمقم من التحجّر والانحطاط... مشكلتها قديمة العهد قدم ذاكرة الرجل الشرقي، الذي قام باحتلال مشاعرها وعقلها، وذاكرتها، احتلالاً قسريًا، تعسّفيًّا.

تنقل الصباح صورة هذا الواقع التراكميّ المستعبد لأشكال تناقلتها الأجيال العربيّة من دون أن تبحث عن حقيقتها وكيفيّتها، حتّى صارت العلاقة تبعيّة «استعماريّة»، فاحتلّت مشاعر المرأة وأحاسيسها وإرادتها، وهذا الاحتلال المكانيّ الزمانيّ لا شرعيّة إلهيّة أو اجتماعيّة له.

مشكلتي معك لا علاقة لها بقلبي
بل بذاكرتي
هذه الذاكرة التي تحتلّها احتلالاً قسريًّا.
منذ مائة عام...
دون رضاي...
ودون إرادتي...
ودون أن يكون معك عقد الإيجار[٢]

إنّ هذا الواقع العربيّ استعمر حواسّ الأنثى، وفكرها، وسيَّرها أمةً ذليلة في قطيع الجواري مبرّرًا ذلك بخوفه من الذلّ والعار، فألقى الحرم، على كل ما هو أنثويّ، وحمل عقدة الخوف منها وعليها، فحُجِبت عنها المعرفة، وأُغلِقت نوافذ الحبّ عليها، وحُلّل سفك دمها، وشُنّت الحروب على كلّ ما تأنّث. إنّه واقع انهزاميّ، جبان، يريحه الركود ويقف ضدّ الفعل الأنثويّ، فالقصيدة تُختن والشمس تُشنَق، والمرأة تُذبَح، إذا خرجت على قوانين القبيلة القاضية بخنق فاعليّة الكلام والتفكير، والكتابة، والعشق؛ لأن الأفعال تخلق الأشكال، والقبيلة العربيّة تقف ضدّ الخلق والولادة الطبيعيّة.

(٢) خذني الى حدود الشمس: صفحة ٤٣

هذي بلاد... تختن القصيدة الأنثى
وتشنق الشمس لدى طلوعها
حفظًا لأمن العائلة.
وتذبح المرأة إن تكلّمت
أوفكّرت...
أوكتبت
أوعشقت
غسلاً لعار العائلة[٣]

رصدت الصباح بشجاعة وجرأة أحاسيس المرأة، ورسمت صراعها النفسي[٤]، ونقلت الخبر بأمانة وصدق، ونظمته دفقًا وانسيابًا، وبعفويّة الكلمة المتعدّدة الإيحاءات، فبرزت المرأة في هذا الرسم مسلوبة الإرادة، ورمزًا محبّبًا للضعف والخنوع، وصارت الأنثى المثقّفة غريبة عن طبيعة الأرض العربيّة؛ لأنّ الأعراب ومفاهيمهم يرونها غانية، ويرفضون تفاعلها مع دورة الحياة.

لقد استطاعت سعاد الصباح أن تخترق جموديّة الفكر العربيّ، وتفتح صفحات مراسمه وقوانينه المتوارثة، وتنقله من الشفويّ السمعيّ إلى الخطيّ المرئيّ بعمليّة تجسيميّة، وبالكتابة تشترك العين في اختزال بشاعة الصور المرئيّة والمسموعة، وعلى الرائي أن يحدّد موقفه من واقعٍ مأساويٍّ يقول ويؤمن بضعف الأنثى، ويفضِّل المرأة القانعة بمصيرها، ويرفض تحرّرها معتقدًا أنّه خطيئة كبرى، فأين نحن من حياة الرسول (صلعم) مع نسائه؟

إنّه مجتمع مريض لا يريحه إلاّ منظر الأنثى الجارية العبدة المستعبدة والتي لا

(٣) خذني إلى حدود الشمس، صفحة ٨٣.
(٤) امرأة بلا سواحل، ص ٨٦.

حول لها ولا قوّة فإذا ما أظهرت إحداهنّ النبوغ رفضها المجتمع واعتبرها غريبة عن طبيعة الأرض والحياة.

يقولون:
إنّ الأنوثة ضعف
وخير النساء هي المرأة الراضية
وإنّ التحرّر رأس الخطايا
وأحلى النساء هي المرأة الجارية.

يقولون:
إنّ الأديبات نوعٌ غريب
من العشب... ترفضه البادية
وإنّ التي تكتب الشعر...
ليست سوى غانية [٥]

والمرأة في هذا الواقع أداة تسلية[٦] ومصنع ولادة، علاقتها بالرجل مفرغة من القيم الإنسانيّة، تنأى بالأعراف عن الجذر والأصل، فتنكفىء على ألمها بصمت، تنكر على عواطفها عظمة الحبّ وانبعاث تباشيره، لأنّ المجتمع العربيّ مجتمع ذكوريّ لا يقبل التجدّد، يخاف الحرّيّة والصدق، ويقدّس الأعراف التي تؤمّن له السلامة، فالرجل يخاف مواجهة الحقيقة، ويرفض الكشف عنها، ولذا فقد أوقف قوانين الطبيعة الأنثويّة وراء جدران جهله وتسلّطه، وانغلق على ذاته رافضًا تغيير مفاهيمه. واعتبر كلّ ما يكشف عن حقيقة المرأة عارًا وأعلن قناعاته بلاءات جوفاء، متسلّحًا

(٥) فتافيت امرأة، ص ١٩.
(٦) أمنية، صفحة ٣٥.

بالنصّ الحرفيّ، من دون أن يترك لنفسه مساحة تفكير. وعلى الأنثى أن تطبق قوانين موضوعة فلا تكشف عن وجهها أوصوتها أوفكرها أوقوّة إبداعها وابتكارها، أو عن مشاعرها لأنّ التعبير عن الحقيقة وتعريتها في مفهوم الرجل الشرقيّ إثمٌ وعار.

إنّ قرارات الرجل الشرقيّ ـ في اعتقادي ـ ليست نتيجة الحرص على المرأة وكرامتها بقدر ما هي خوف من كشف الحقيقة، والكشف فاعليّة حركيّة، وهو قانع بسكونيّته يرعبه صوت المرأة، فيخنقه، وينظر إليها نظرة كره واحتقار لأنّها مصدر عار ـ في رأيه ـ:

هذي بلاد أغلقت سماءها...
وحنّطت نساءها...
فالوجه فيها عورة
والصوت فيها عورة
والفكر فيها عورة
والشعر فيها عورة
والحبّ فيها عورة
والقمر الأخضر، والرسائل الزرقاء.[٧]

واقعٌ يشلّ المرأة لا تجدّد فيه، ولا انفتاح، وبالتالي فإنّ الحياة العربيّة تساكنها البداءة، وفقاقيع الموروث تعلو سماءها، وإنسان الكهوف الأوّل سيّد مفاهيمها ومقاييسها، وستبقى الأنثى فيها مغيّبة الدور عن مستويات التواجد والكينونة، تحمل ذلّها وانكسارها، وتنحني أمام سطوة شريعة مشتدٌّ عودها في ظلٍّ أمّة

(٧) خذني إلى حدود الشمس، صفحة ٨٦.

ضعيفة، وحضارة مزيّفة، وترى فيها حكماً وقدراً لا مفرّ منه فتشمئزّ نفسها من أخت لها تمرّدت، وترى أنّ الانتقام منها مجدٌ لشرف القبيلة، ومفخرة للذكورة.

إنّ الأنثى العربيّة استسلمت إلى جلادها وتعايشت مع واقعها وأدمنت أشكاله ومظاهره، وبالتالي لا يريحها أن ترى أنثى أخرى تخرج على القيود، وتعبِّر بلسانها عن بنات جنسها، وتكون في قرارة نفسها قانعة بقتلها لسببين: الأوّل يكمن في الغيرة العميقة غير المرئيّة، والثاني ظاهرٌ في عجزها عن التجاوز لأنّ السلامة تؤمّن لها اطمئنانًا سلبيًا.

وأعرف أنّ القبيلة تطلب رأسي
وأنَّ الذكور سيفتخرون بذبحي
وأنَّ النساء...
سيرقصن تحت صليبي...[٨]

واقع مريض، عناصره مشلولة، والنتيجة، تعاظم الهوّة بين الحلم والواقع: الحلم بمناخ ثقافيّ يفكّك ويغيّر ويتخطّى المألوف ويخرج عليه سعيًا إلى تدميره وإعادة تشكيله برؤية جديدة، والواقع مجتمع ذكوريّ مشلول لا يرى في نصفه الثاني إلاّ الاشتهاء المتلوّن والمتبدّل والآني، إنّه الاشتهاء الغريزيّ الكيفيّ يعكس مزاجيّة الرجل الشرقيّ ومشاعره المتباينة المتقلّبة. إنّه أسير عواطفه الآنية وعبد لشهواته، ولذلك لا يستطيع أن يرى في نصفه الآخر إلاّ الضعف والاستسلام لتحقيق سلطته المزعومة المزيّفة فيمارس ديكتاتوريّة على وجودها ويرسم لها الشكل الذي يريد أن تظهر فيه، ومهما تغيّر الشكل، فنتيجته واحدة شيء ميت لا حياة فيه. إنّه ظاهرٌ سيّىء يُبْطن جوهرًا معدوم الفاعليّة والرجل في هذه المعادلة سيّدٌ على هوامش

(٨) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٢٦.

مفرّغة من العناوين والمضامين، هوامش تشرح وصايا لا معنى لها تفرض على المرأة التبعيّة والانقياد والجهل وتحكم مصيرها وعواطفها ورغباتها:

ماذا من المرأة يبتغون في بلادنا؟
يبغونها مسلوقة...
يبغونها مشويّة...
يبغونها معجونة بشحمها ولحمها
يبغونها عروسة من سكّر...
جاهزة للوصل كلّ لحظةٍ
يبغونها صغيرةً... وجاهلة
هذي هي الوصايا العشر...
في حفظ تراث العائلة... [٩]

رسمت الصباح الأطر السطحيّة والعميقة للواقع وفي الوقت عينه حدّدت الأسباب التي حاكت المؤامرة على المرأة منذ قرون ومن أهمّها الواقع الذكوري المسيطر على المدنيّة المتصنّعة والتي فقدت عذريّة فطرتها لأنّها تمسّكت بقشور الحضريّة.

وهذه المدنيّة تتمظهر في المدن التي لا يطربها إلاّ صياح الديكة وصهيل الخيول وشهيق ثيران المصارعة فهي مدنٌ مفرّغة من جوهر الحضارة.

إنّ الحرّيّة الوحيدة أمام النفس التوّاقة إلى مستقبلها هي حرّيّة الكتابة، وفيها فرّغت سعاد الصباح مكنونات المرأة الشرقيّة وآلامها المتوارثة عبر قرون طويلة، وباحت بالسرّ الذي يغلّف فكر الإنسان العربيّ المرتهن للعنصر الذكوريّ لأيّ نوعٍ انتمى.

(٩) خذني إلى حدود الشمس: صفحة ٨٩

أريد أن أكتب لك...
أو لأيّ رجلٍ في المطلق.
أريد أن أقول للورق
ما لا أستطيع قوله للآخرين...
فالآخرون
منذ خمسة عشر قرنًا
يتآمرون ضدّ الأنوثة...
أريد أن أفتح ثقبًا في لحم السماء.
فالمدينة التي أسكنها
لا تطرب إلاّ لصياح الديكة...
وصهيل الخيول...
وشهيق ثيران المصارعة...[10]

إنّ المدنيّة العربيّة لم تحرّر إنسان بلادنا من عبوديّة الإرث، ولقد عبَّر أدونيس عن واقعها قائلاً: «المدينة العربيّة شكلٌ إسمنتيّ للصحراء وهي اجتماعيًا شكلٌ تراكميّ للعلاقات القبليّة الدينيّة[11]». ومن أهمّ الأسباب، التي أقرّت سيادة الرجل، التقاليد التي تسامح الرجل وتعاقب المرأة، فكان للإرث حمل ثقيل على كاهل المرأة تئنّ تحت حمله أجيال النساء بألم وصمت مذ نعومة الأظفار فكان من فعل الكتابة عند الصباح وسيلة كشف عن حقيقة المؤامرة وعن الأقنعة. وبتعرية العرف، تستطيع أن تريح ذاكرتها من موروث أنثويّ مقيّد لأنّه صورة مصنوعة

(١٠) قصائد حب؛ صفحة ٢٤
(١١) أدونيس، فاتحة لنهايات القرن؛ صفحة ٢٢٥

تتناقلها الأنثى كإرث حتميّ حصريّ بها. فالكتابة عندها فعلٌ ديناميكيّ يخترق جدران الصمت ويفتح ثقبًا في ذاكرة الإنسان العربيّ أو يحطّم حواجز وهميّة اصطنعها وراكمها الزمن في متوالية الخنوع، وجعل منها عبئًا ثقيلاً على كاهل المرأة تتوارثها جيلاً بعد جيل، لا حظّ فيها للمبدعات إلاّ الشقاء والتعب، فبالألم يتطهّر الجوهر وتنكشف القشرة.

أريد أن أكتب...
لأستريح قليلاً من أقنعتي
ومن صُرَّة الجُبن والزيتون
التي تحملها أمّي على رأسها
من يوم تكوّر نهداها[١٢].

إنّ المجتمع العربيّ الانهزاميّ، المتواكل الاستسلاميّ، أجهد الأنثى بتحميله إيّاها تراكمات تاريخيّة، ولكن ليست الأنثى بمعصومة عن تكريس هذا الواقع، فهي مسؤولة عن استسلامها للإنسان الخانع في أعماقها، تمارس إنسانيّتها، حضورًا مزيّفًا، ويائسًا، فظلّت جسدًا يخنق قدراتها الروحيّة والفكريّة، والإبداعيّة، معلّلةً نفسها بالصبر قانعة بالمصير، منقادة لغرائزها وغبائها، لأنّها تقفل باب المنطق ولا تصغي لصوت العقل، بل تنجرف في تيار العشق عمياء، ترى بعين الحبّ الذي يشكّل نقطة الضعف عند جميع النساء، هذا العشق الذي حُرِّم إعلانه ولكنّه يبقى في أعماقها قوّة سلبيّة يحرمها التمييز بين الحقّ والباطل، بين الحلال والحرام. وهذا ناتج عن جهلها، الذي يدفعها إلى صراع داخلي بين عواطفها النبيلة وشهواتها الآنيّة، فتفقد توازنها وتنقاد وراء شهواتها غير قادرة على

(١٢) قصائد حب، صفحة ٢٥.

التفريق بين رجلٍ نبيل وآخر خسيس:

أحبّك جدًّا
وكم كنت أرغب أن لا أحبّك
لكنها نقطة الضعف عند جميع النساء
ففي حالة العشق...
لسنا نفرِّق بين السفوح
وبين الهضاب
وبين السطور وبين الكتاب
وبين الثواب وبين العقاب
وفي حالة الشوق...
لسنا نفرّق بين النبي وبين المرابي
أحبك جدًا...
فهل يا تراني، أحبّ خرابي[١٣].

ممّا لا شكّ فيه أنّ نزار قبّاني صوَّر المرأة الشرقيّة وكشف القناع عن العلاقة المهزوزة بين الرجل والمرأة.

ولكن نزارًا لم يستطع أن ينقل بوح المرأة الوجداني وآهات المعاناة، وصرخات أجيال من الاستسلام.

نقل نزار الصور بمرئيّاتها وظواهرها، ونتائجها، ولكنّه لم يرَ ما وراء الظاهر أمّا سعاد الصباح فلقد اختزلت في وجدانها تاريخ المرأة العربيّة بضعفها وقوّتها، بانسحاقها وتمرّدها ووقّعت بحبر الجرأة على الصور الحقيقيّة للمرأة العربيّة وعلاقتها بالرجل.

(١٣) خذني إلى حدود الشمس، صفحة ٧٦.

المرأة العربيّة لا تملك إلاّ الحبّ، هذا الذي يدفعها إلى التهوّر وإضاعة شخصيّتها الذاتيّة لتصير نسخة أخرى عن الذكر الذي سحقت كيانها أمام رجولته فاستسلمت بكليّتها من دون قيد أوشرط.

المرأة العربيّة ليست جاهلة ولا غبيّة إنّه الشعور بالتبعيّة إنّه الانزلاق تحت رضى المحبّ، وعدم احترام الإنسان الكائن في داخلها:

أحبّك جدًّا

(..)

أحبّك حتّى التهوّر

حتّى التقمّص فيك

وحتّى فنائي

أحبّك من دون قيد ومن دون شرط

(...)

وأعرف منذ البداية

أنّي سألقى جزائي[١٤].

وبحالة العشق تفقد المرأة توازنها، تتخلى عن واقعيّتها، تعيش حالة الهروب من الواقع، تثور على عجزها بانقيادها إلى شعورها الاستسلاميّ هذا الشعور الذي يزيّن لها كلّ ما حولها، لتتخلّى عن اتّزانها وصلابتها، وهيبتها، وتدخل في حالة من الغيبوبة عن مكوّناتها الذاتيّة، متوغّلةً في استسلامها الطوعيّ إلى حلمٍ وهميّ.

(١٤) خذني إلى حدود الشمس، صفحة ٧٤ ـ ٧٥.

حين أكون بحالة عشق
أشعر أنّي صرت بوزن الريشة
أنّي أمشي فوق الغيم
وأسرق ضوء الشمس
وأصطاد الأقمار[١٥].

إنّ المرأة العربيّة تعاني القهر والظلم بسبب الواقع الاجتماعيّ المزيّف في قوانينه وأحكامه من جهة وفي استسلامها لعواطفها العابرة الآنيّة. ولكنّ العامل الأشدّ خطرًا على المرأة هو ذكوريّة الرجل التي أوجدت الواقع السلبيّ فالرجل مسؤول عن انقياد المرأة، إنّه مطمئنّ إلى هيمنة الفكر السلفيّ، مؤمن بكذبة تفوّقه على نصفه الآخر، والكذب على النفس غشٌّ وخداع كانت نتائجه أنّه اغترّ بنفسه واحتقر عقل الأنثى، واستعبد جسدها بالرغم من مناداته بحقوق الإنسان. ومشكلة الاستعباد قديمة، قدم ذاكرة المجتمعات، حيث ترتهن إنسانيّة المرأة في تبعيّة مقزَّمة محدودة لرجلٍ يسوس كيانها الشكليّ ويضع حول وجودها دائرة وهميّة مصنوعة من طباشير، وعلى الرغم من هشاشة الدائرة لم تستطع المرأة أن تخرج على الدائريّ المحدود أو كسر أشكال الخارجيّ، فظلّ الرجل متعلّقًا بمفاهيمه الفكريّة المنسوخة عن مفاهيمه القبليّة الذكوريّة.

منذ مئة عام...
وأنا أحاول أن أكسر دائرة الطباشير
التي حبستني فيها...
وخبّأت مفاتيحها في جيبك...

(١٥) في البدء كانت الانثى؛ صفحة ٣٨

منذ مئة عام...
وأنا أحاول أن أقنعك باحترام حقوق الإنسان
وحقوق الأنوثة...
ولكنّك... ككلِّ ذكور القبيلة...
بقيت مصرًّا على الاحتفاظ بممتلكاتك...
التي لا تغيب عنها الشمس...
وبقيت رافعًا أعلامك الحمراء
فوق أسوار ذاكرتي...[١٦]

لم تكن الصباح تتوقّف عند رسم المظهر الخارجيّ للصور، وإنّما كانت تبحث عن كشف الحقائق الكامنة وراءها، فالاستسلام للفكر السلفيّ يخلِّف الرضى والاطمئنان؛ لأنّ الرجل مستفيد سطحيًّا من العادات والتقاليد الجامدة والقوانين المحجِّمة، ولكنّه لم يتنبّه إلى الحقيقة التي جعلت من ذكراته مجمع غبار، وعلّبت إرادته وفكره، فكان اقتناعه عبوديّة قادته، فانحنى تحت عبء الموروث، مرتضيًا أن يكون صورة طبق الأصل عن جذوره، من دون أغصان أو أريج متجدّد، وصارت المرأة في قاموسه البالي شيئًا مستملكًا، وللرجل حريّة التصرّف بممتلكاته، بيعًا وشراءً وإحراقًا.

أيا قادمًا...
من كتاب الغبار،
بعينيك، ألمح عصر المماليك حيًّا
وألمح سوق الجواري...

(١٦) خذني الى حدود الشمس، صفحة ٤٧.

تصرَّف...

كما كان يومًا جدودك...

يستملكون النساء...

كأيّ عقار...[١٧]

تبوح الصباح بخيبة الأمل التي أحدثها تخلّف الرجل الشرقيّ ومناعته ضدّ التغيير والتطوّر، فعلى الرغم من تنقّله واطّلاعه على مجتمعات متنوّعة لم يسمح للحياة الجديدة أن تكسبه إلا قشورًا تتساقط عنه عندما تنسلخ عن طبيعتها، ويبقى في أعماقه محتفظًا بتعاليمه البدائيّة الأولى، فهو امتداد للعصر الجاهليّ فكريًّا، وثقافيًّا، وحضاريًّا، وأعرافًا. والحياة الغربيّة الجديدة بنسائها ومفاهيمها لم تستطع أن تضيف شيئًا إلى قناعاته وعلاقاته؛ لأنّه مسكون بجاهليّته الأولى. وهذا القمع الذاتيّ، الملقّح بمضادّات تحول بينه وبين التفاعل أبقى الإنسان العربيّ في لحظةٍ زمنيّةٍ ماضيةٍ واحدة.

أيا أيّها الجاهليّ المخضرم...

يا راجعًا من فرنسا

على فرسٍ من حديد...

وفي شفتيه حليب النياق...

وطعم الثريد

أما صقلتك الحياة قليلاً؟

أما هذّبتك النساء قليلاً؟

---

(١٧) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥١.

أما علّمتك مقاهي المدينة
أيَّ كلام جديد؟[١٨]

إنّ الرّجل الشرقيّ مصاب بالازدواجيّة، شعاراته تناقض آراءه وحقيقة تفكيره، فشخصيّته مهزوزة لا كيانَ مستقلاً لها، إنّه يعاني عقدة السلطة والسيادة وهو مقلِّد، ولكنّه، يفقد بعمليّة استنساخ ذاته من الكليّة العامّة، أصالة شخصيّة المثل، وطبيعة الشخصيّة الذاتيّة فلا يكون هو ذاته، وليس هو الآخر المنسوخ عنه. بذلك وصل المجتمع الذكوريّ إلى حالةٍ مشوّشة تظهر الجماعة شخصًا واحدًا من دون خروج على المألوف، يعيش الصراع والتناقض ما بين ذاته الحقيقيّة الجوهريّة التي تشدّه إلى الأصل الأصيل، إلى الإنسان الحقيقيّ، وبين شكله المستعار الذي قيّد تطلّعاته في قشور متوارثة.

يا من ينادي بالتسامح، والعدالة
والتحرّر في الهوى
آمنت أنّك سيّد المتعصّبين...
ما كان يخطر لي بأنّك جاهليّ
من غلاة الجاهلين
فكّرت أنّك طبعة أخرى
ولكنّي وجدتك...
طبعة عاديّة كالآخرين...[١٩]

---
(١٨) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥٣.
(١٩) قتافيت امرأة، صفحة ٧٢.

وترى الصباح أنّ الرجل الشرقيّ يقف ضدّ تقدّمه، وسبل ثقافته، وتفاعله، يخاف التغيير، الخروج على المألوف والعادة، سلطته مستعارة كأشيائه، يتهيّب مواجهة الواقع الحقيقيّ والجوهريّ، والأنثى أكثر صدقًا وجرأة في التعبير عن ذاتها الجوهريّة. لقد تخلّى الرجل الشرقيّ عن مناقبيّته الأصيلة واستعاض عنها بصفاتٍ أنثويّة، إنّه التناقض الصارخ المهدّم جوهرًا ضائعًا، وشكلاً مستعارًا لا يتناسب والدور الذي يحاول الرجل أن يلعبه على مسرح الحياة، إنّ الواقع الذكوريّ صار مهزلةً تثير الضحك والشفقة في آنٍ معًا. وعلى المرأة أن تلحظ هذا التغيير، وتسعى إلى استعادة ذاتها المسلوبة.

ألغيت موعد السفر معك
لأنّ دوار البحر يتعبك
ولأنّ صداع الحبّ يتعبك
ولأنّ جلدك الطريّ كالقطيفة
لا يتحمّل ملوحة البحر
وعضّات أسماك القرش[٢٠]

إنّ ضعف الرجل الشرقيّ، وتخلّيه عن مناقبيّته، أفقداه فاعليّة الحركة، فوقف ضدّ التيّار، وعزّز عقد الشراكة بينه وبين الاستسلام، ولما كانت الذات الأنثويّة المبدعة قادرةً على التكيّف مع الواقع وتجاوزه وخرق التبعيّة، فإنّ الصباح تحاول أن تجعل منها خالقة تساعد الرجل على استعادة ذاته، ولكن يتعذّر ذلك عليها؛ لأنّه مستسلم إلى تصنّعه وإلى القالب الذي وضع نفسه في داخلة خوفًا من التغيير أو الدخول في مغامرة، وهو ينتظر تفضّل المرأة الاستثنائيّة التي تفهمه وترحمه.

---

(٢٠) فتافيت امرأة، صفحة ٧٥.

مزّقت تذكرة السفر

وقرّرت أن أعفيك

من تقلّبات الطقس

ورائحة السّفن

وجنون المسافة

لأنّ قبلاتي تسبّب لك الحساسيّة

والنوم على سطح المراكب

يوسّخ قميصك المنشّى

وشعرك المصفّف

لدى أمهر حلاّقي المدينة[٢١]

إنّ سعاد الصباح تحاول الانتقام من تاريخ أحرق كيان المرأة، واهتمّ بشكلها فقط، فتتّخذ من عمليّة تصفيف الشعر إعادة اعتبار للذات الأنثويّة، فالرجل الذي لم يكن ليرى في المرأة غير شكلها الخارجيّ، تبالغ في وصف شغفه بتصفيف شعره وياقة قميصه، في محاولةٍ جريئة لزلزلة قدسيّة الرجل، بإحداث خروقات في ثبوتيّة وجهوزيّة صورة الإله المعصوم، والعقل الكامل.

فالرجل الذي قيّم بنات جنسها واستعبدهنّ واكتفى بشكلهنّ الخارجيّ، تعيد إليه الكرة، وتحدث صدمة تهزّ الواقع، وتنكشف حقيقة الرجل الذي يقلّد المرأة الفارغة السطحيّة، فهو اليوم مشغول بمظهره، وإثارة الإعجاب، ومدفوع بغريزة الشوفانيّة، ولكنّها أحطّ أنواع الشوفانيّة التي يتحوّل معها الرجل إلى مظهر رجولة لا معنى ولا حقيقة لها في باطن الأمر.

(٢١) فتافيت امرأة، صفحة ٧٦.

ولم تكتفِ الصباح بتفريغه من الرجولة، شكلاً ومعنى، بل أظهرت التناقض الكبير في شخصيّته، إنّه يرغب في المراكز والحبّ والمعرفة، ولكنّه غير قادر على التعبير عن مشاعر الحبّ، يتكلّم على الثقافة، ولكنّها لا تبلغ إلاّ شفتيه، فهو يكتفي بالشوفانيّة التي يثبتها في شراء الكتب، ويثبت جهله في عدم قراءتها، متمسّك بالاعتقادات، ويرفض التفاعل مع الوجود، ويخجل من إظهار عواطفه، فيحصِّن ظاهره بشريعة تحميه من الانصهار وبمفهوم يصرخ في ضميره المتخدّر أنّ رجولة الرجل تكمن في مدى قدرته على مقاومة الحبّ الحقيقيّ، ورغبته في تبديل النساء.

(...)
مشكلتك الكبرى
أنّك مصفّح ضدّ الحبّ
وضّد الشِّعْر
وضّد الحنان
(...)
مشكلتك الكبرى
أنّك تشتري الكتب... ولا تقرؤها...[٢٢]

ترصد الصباح سلبيّات الرجل، تشرحها، تفكّكها، تبحث في معادلات تكوينها المغلوطة عن الفرضيّات التي أدّت إلى فرض نظريّات خاطئة على الفكر البشريّ، فلا تعثر إلاّ على الارتباط المشيميّ الذي لم يستطع الرجل التحرّر منه حتّى الآن. لقد أطلقه رحم الموروث خارج التحجيم والقيد، ولكنّه بجبنه لم يستطع أن ينفلت

(٢٢) في البدء كانت الأنثى، صفحة ١٣٤ ـ ١٣٥.

من الحبل الواهي الذي فَقَد مع مرور الأيّام حيويّته وقوّته، فاكتفى بالدالّ وأهمل المدلول، وقيّد فكره وذاته بماضٍ تلاشت فاعليّته، فصار أشبه بـ«روبوت» (رجل آلي) مبرمج، لا عواطف له، تستيقظ محبّته للمرأة بإدارة مفتاح شهوة ورثها من سلالته الأولى. هذه الموروثات التي لم يأخذ منها إلاّ المادّة التي تخرق وتبلى، وبها يتحول فكره من اللامحدود إلى خزانة ذاكرة.

مشكلتك الكبرى، يا صديقي
أنّك تختزن في ذاكرتك
كلّ الأفكار السلفيّة
وكلّ الكلمات المأثورة
وكلّ ما ورثته عن أجدادك
من نزعات التملّك...
والسيادة...
والتعدّديّة النسائيّة...[٢٣]

إنّ الرجل - في رأي الصباح - يعاني التمزّق والضياع، فعلى الرغم من حاجته إلى حبّ المرأة وعطفها ودعمها وخصوبتها، ما زال يفضّل الجلوس على عرش من التهويل والتخويف، فيقابل ودّها بالاستبداد، وعطاءها بالجحود، وهدوء الحياة بزوابعها، لقد أسقط ضعفه على حبّه وعلاقاته، مارس في عواطفه سلطة الحكم، والقمع، والامتلاك، فهو في أعماق ذاته طفل يحتاج إلى توجيه وتهذيب، ولكنّه محكوم بالفكر السلفيّ يدفعه إلى الخطأ السلوكيّ المبدئيّ، فيقابل الحبّ بالاستبداد والسلام بزوابع الحياة.

(٢٣) في البدء كانت الأنثى، صفحة ١٣١

سيّدي يا سيّدي

أيّها الحاكمني من غير قانون...

ومن غير شرائع.

أيّها الحابسني كالماء ما بين الأصابع

أيّها الطفل الذي لم أستطع تهذيبه

والذي أهديته الصيف...

وأهداني الزوابع....[٢٤]

لم تكتف الصباح بتصوير سيطرة الشريعة، وجهل المرأة، وأنانيّة الرجل، بل عمدت إلى الغوص في عالمه النفسيّ، فهو يرغب في الحداثة، والبداءة تسكنه ويساكنها، يعاني صراعًا داخليًّا مع ذاته، فالبداوة مجسّدة في فكره، تأخذ شكلاً مدنيًّا ظاهريًّا، ولكنّها في جوهرها بدائيّة حديثة، وهنا يكمن التمزّق الذي يرتدّ على الأنثى استبدادًا وهيمنة.

عدم الثقة بالنفس يخفيه الرجل الشرقيّ بمظاهر كاذبة، يؤمن بالشيء وخلافه، يرغب في الأمام، ويشدّه الخوف إلى الوراء، يحاول أن يتحرّر من جدران سلفيّته، ولكنّه يبقى مشدودًا إلى بداياته، إنّها مشكلة متعدّدة الجوانب، تجمعها عقدة واحدة هي الذكورة الوهميّة المتوارثة.

مشكلتك الكبرى

أنّك رغم كلامك عن الحداثة

لست حديثاً.

(...)

(٢٤) قتافيت امرأة، صفحة ٣٩.

ورغم كثرة أسفارك

فإنّك لم تبارح خيمتك...[٢٥]

إنّ هذا الواقع الذكوريّ المشدود بين قطبين: الرغبة في الاستسلام والرغبة في الحياة، ساعد الصباح على إشعال فتيلة التحريض، وحثّ الرجل على تجاوز المألوف، فاعترفت له بالسيادة، وأقرّت بتولّيه المناصب والمراكز، شريطة أن يتحرّر من تبعيّته ويعترف بقدرات المرأة وإمكانيّاتها ويتمنطق بقوّة حقيقيّة، ليثور على ذاته؛ لأنّ السكون أفقده مهارته القتاليّة والتزاماتها الإنسانيّة والوجدانيّة، ممّا جعل المرأة العظيمة سيّدة على أيّامه ولياليه، لأنّها تتمتّع بمقدرة العفو والغفران، وتعفيه من كلّ التزاماته نحوها، فله مظاهر القيادة، وفي أعماقه جاذبيّة الخنوع.

أيّها السيّد الذي أغمد سيفه

ونسي غريزة القتل

إنّني أعفيك من التزامك العاطفيّ نحوي...

أعفيك من الخروج في الليل وحدك

لأنّ البرد يؤذيك

والسير معي في الحدائق العامّة يؤذيك...

والدخول معي إلى المقاهي المغلقة يؤذيك...

إنّني أعفيك، أيّها السيّد، من كلّ شيء...

فأنت رجل لا يتقن الألم[٢٦]

لقد أُبْعِد الرجل العربيّ عن أصالته، ولم يكتسب صفات جديدة متميّزة، إنّه

---

(٢٥) في البدء كانت الأنثى، صفحة ١٣٢.

(٢٦) فتافيت امرأة، صفحة ٨٠.

مزيّف في حقيقته الجوهريّة، وشكله مزيّف، تخلّى عن شجاعته ومروءته، ومسؤوليّاته، وإنسانيّته، وبالتالي افتقد إلى خاصيّة الألم المطهّر والمنقّي، إنّه مكوّن من مادّة لا روح فيها، ويكتفي من الحياة بمناداته السيّد.

هذا الواقع الذكوريّ المفرّغ من الرجولة، يتّخذ على مسرح الواقع شكلاً ممتلئًا، ولكنّه امتلاء كاذب أجوف، عوّض به الرجل عن نقصه المعنويّ والنفسيّ. استطاعت الصباح أن تبرهن بالكلمة على الفراغ الروحيّ والنفسيّ في حياة الرجل، معتمدةً التجربة المباشرة التي يجريها الرجل يوميًّا في سكونيّة وجوده. إنّ العجز الروحيّ، والقصور المعنويّ عن إدراك الحقيقيّ والجوهر، يغرق الرجل في الحديث عن مغامراته النسائيّة، وهذه الأحاديث وصفتها الصباح بالغرغرة.

والغرغرة في المفهوم الطبّي تطهّر الحلق من جراثيم تختبئ في تجويفات الفم، وغرغرة الرجل هي نوع من التداوي الذي يستخدمه الرجل ليشفيه وهميًّا من تقرّحات سكونيّته المختبئة في تجويفات تواجده المريضة.

إنّ الصباح تشرِّح الرجل، وتنقل الخفيّ المستتر إلى الظاهر المرئيّ، وتعلن السيادة الحقيقيّة للأنثى التي تتحمّل خوض المغامرة والتورّط في لعبة الوجود، ليبقى الرجل مكتفيًا بمظهره المستعار، وأفكاره المحنّطة التي تدفعه إلى الاعتقاد أنّ رجولة الرجل تكمن في عدم إخلاصه لزوجه وفي سيادةٍ شكليّة.

بهذه الرؤيا تخاطب الصباح الرجل، معترفةً له بسيادته، ولكنّها في الوقت عينه تنقض الفرضيّة؛ لأنّ كلّ ما جاء بعدها من براهين لا يتوافق ومعطيات الفرضيّة، فهذا الوصف السلبيّ الإيجابيّ وصف كاشف وفاعل ومحرِّض.

أيّها السيّد
الذي يضع ساقًا فوق ساق
ويتغرغر بفتوحاته النسائيّة القديمة
إنّني أعفيك من مجاملتي.
ومن مراسلتي.

ومن الظهور معي في شوارع المدينة
فأنا لا أريد أن أورّطك في اللعبة[٢٧]

لم تكتفِ الصباح بتعرية مفهوم الرجولة الخاطئ، بل أوغلت في تصوير حقيقة الرجل الشرقيّ المريض، كاشفةً الغطاء عن بعض تصرّفاته النفسيّة، معلّلة المظاهر الخاطئة بأسباب غير مرئيّة، وراحت تفصح عنها وتكشفها.

إنّ رغبة الرجل في الاستملاك، نوع من ملء الفراغ النفسيّ، وتعويض وهميّ لنزواته الإقطاعيّة، وإرضاء للنزعة الفرعونيّة التي تسكنه ويساكنها، هذه النزعة التي يرضيها سماع الإطراء والإعجاب والمديح.

إذًا الإطراء والمديح والإعجاب هي من حظّ الرجل وحده، وبذلك تؤكّد الشاعرة أنّ انزعاج الرجل من المعجبين بزوجه نوع من الغيرة.

الرجل يكره تفوّق المرأة ويعتبرها منافسةً له، فالانتصارات ـ ولو كانت تافهة ـ من حظّه، والإعجاب ـ ولو كان سطحيًا ـ له وحده، ولكي يريح نفسه من المنافسة غيّب دور المرأة، وقمع قوّة الابتكار قبل صدورها.

شبّهت السعاد قوّة الابتكار بالعطر، وكانت في هذا التشبيه متّفقةً مع جبران، الذي سمّى قوّة الابتكار في الأمّة بـ «العطر»، وبالتالي كانت نظرتها إلى المرأة بالنسبة إلى الأمّة كنظرة جبران، ولكنّها لمّحت ولم تفصح. لقد كان تصويرها عميقًا، تصويرًا يكشف، ويفجّر، ويعلن وينقل الواقع بالنداء والتساؤل:

يا من تعقّدك انتصاراتي
وتكره أن ترى حولي
ألوف المعجبين
يا من تخاف تفوّقي
وتألّقي...

(٢٧) فتافيت امرأة، صفحة ٧٨.

وتخاف عطر الياسمين
هل ممكن
أن يكره الإنسان عطر الياسمين؟[٢٨]

عرّت الشاعرة واقع الرجل، وكشفت عن حقيقته، فكان للكلمة فعل مخاضٍ وولادة، حيث أثبتت الأنثى قدرتها على التحرّر من عقدة الخوف، وصنميّة العلاقات الوثنيّة.

ألغت الهرميّة المقدّسة، ونالت من عصمة الرجل، وهزّت هيبته بأسلوبٍ علميّ منطقيّ قائم على وضع الفرضيّة والبرهان عليها.

ففي قصيدتها «عقوق» تضع فرضيّة تقول إنّ الرجل عقوق مع علمه الكامل بفضل المرأة عليه منذ لحظة ولادته، وتربيته، وتعليمه حتّى يتخرَّج من الجامعة، وعند ذلك يتمرّد على خالق جسده وفكره، وثقافته، وينتقص من قيمة الأنثى التي أوجدته، معلنًا عن رجولته باحتقار فكرها ودينها وعقلها

عندما يصبح رجلاً
يضع ساقًا فوق ساق
ويعقد مؤتمرًا صحفيًّا يقول فيه
إنّ المرأة بنصف عقل
وبنصف دين [٢٩]

هذه الفرضيّة التي وضعها الرجل، وعقد على أساسها "مؤتمرًا صحفيًّا" لا تقرّ الصباح بصحّتها، بل ترى في الأنثى تفوّقًا، وفي فكرها ريادة، فهي تتخذ من الكتابة فعل خلق وولادة تتعاطاه في أيّام خصوبتها، وتعطي من ذاتها. أمّا الرجل فالكتابة لديه نوع من التسلية، والفرق كبير بين الولادة والتسلية.

(٢٨) فتافيت امرأة، صفحة ٧٠.
(٢٩) في البدء كانت الأنثى، صفحة ١١٠.

الرجل يكتب في أوقات فراغه
والمرأة تكتب في أيّام خصوبتها
واحتشادها بالبروق
والفاكهة الاستوائيّة[٣٠]

تعتمد الصباح في رسم محاور العلاقات الأنثويّة ـ الذكوريّة أسلوبًا علميًّا، فالسكونيّة السلبيّة المقبولة عند الرجل تقابلها بفعلٍ إيجابيّ مرفوض فكريًّا، ليلتقي القطبان المتنافران في توليد تيّار كهربائيّ بفعل الصدمة. لم تقابل الرفض بالرفض، فلقد التزمت أوّلاً بإقرارها له بالسيادة بأسلوب استفهاميّ استنكاريّ، محاولةً تفجير البنية الداخليّة وتحريك العلاقات التي كبّلها منطق الخوف الغامض، بهذه الحركة يتجرّأ المكبوت الحيّ ويستجوب الموروث غير مكترث بعصمة الماضي، وهكذا تخترق البنية السطحيّة وتصل حركة السؤال إلى تشابك الجذور وامتداداتها العميقة.

لقد ألبست سؤالها فعل الاختراق للكشف عن الحقيقة، أملاً في إيجاد الحلول، فكيف للرجل ادّعاء الثقافة، وهو لا يعترف ببنيتها المتكاملة. فالتردّي الثقافي ـ في نظر الصباح ـ لا ينحصر في حدود الانحطاط العلميّ، بل يتغلغل في البنى القائمة من اجتماعيّة وسياسيّة ونفسيّة، وعلى الرجل أن يزحزح مفهومه السائد للثقافة، ليعطي الكلمة بُعدها الحقيقيّ والإنسانيّ، والتاريخيّ والاجتماعيّ والنفسيّ، فإن كان مؤمنًا بديانة سماويّة، فالأديان كلّها حرّمت الوأد، فكيف يسمح الرجل لنفسه أن توءد المرأة تحت سلطة العادات والتقاليد؟ وإن كان عصريًّا يؤمن بالتهذيب الثقافيّ، فأيّ كذبة هذه التي يمارسها على مسرح الحياة في أفكاره الرجعيّة؟

أمثقّف؟؟
ويقول في وأد النساء...

(٣٠) قصائد حب، صفحة ٢٧.

فأيّ ثقافة هذي ... وأيّ مثقّفين
أمثقّف...
ويريد أن يبقي حبيبته بسرداب السنين؟
أتقدّمي في كتابته
ورجعيّ بنظرته الى الأنثى؟[٣١]

إن الواقع العربيّ الاجتماعيّ مأساويّ، عنصرا الحياة فيه مشلولان. بدءًا من الإرث السلطويّ، والمبدعون يحاولون تصحيح الواقع، أو التعويض عنه، ولكنّهم يصطدمون بالمناعة المكتسبة ضدّ أيّ تطوّر أو تغيير، أو تقدّم، فيصابون بكآبة لها وجهان، كآبة قاتلة وكآبة سكونيّة محرّضة، وسعاد الصباح كانت كآبتها سكونيّة ذات كمون حركيّ معرفيّ وفنّيّ، سجلت بواسطتها معرفتها بالظواهر، في أصلها وتجلّياتها، وما تؤول إليه، فكانت كآبتها معبرًا للكشف عن الحقائق، من خلال التصوير الحقيقيّ لحالة الاغتراب النفسيّ الاجتماعيّ الذي نزعت معه إلى الحرّيّة والرفض وإعلان رغبتها الملحّة في تحقيق ثورة تتحول الأنثى معها، وبكيمياء الشِّعر إلى أنثى جديدة، فأبرزت أناها الإنسانيّة في جسد النصّ الشعريّ مسقطةً ذاتها وطبيعتها، وفي روح النصّ ودلالاته:

قد كان بوسعي
أن أتجنّب آهة كلِّ المحزونين
وصرخة كلِّ المسجونين
وثورة آلاف الأموات
لكنّي خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات[٣٢]

(٣١) فتافيت امرأة، صفحة ٧١.
(٣٢)في البدء كانت الأنثى، صفحة ٢٠ ـ ٢١.

الرفض والتمرّد

لم تكن الصباح مصوِّرة تلتقط الصور الاجتماعيّة الواقعيّة فحسب، بل اعتبرت الحضور الإنسانيّ منطلقًا لقضيّتها، والتمرّد طريق هذه القضيّة، ومحورها الرئيس.

والتمرّد لا يكون في الخارج والشكل، وإنّما في الجوهر؛ والتمرّد الحقيقيّ هو الذي يعلن موقفه من الأشياء ويصوّرها تصويرًا حقيقيًّا من دون تغليف، ثمّ يعيد النظر فيها، ليلغي ما هو غير جدير بالحياة، يبدّل ويخلق ويجدّد، معينه مغامرة الكشف، وحبّ المعرفة، ووعي للحضور الإنسانيّ.

استشفّت السعاد أبعاد العلاقة الإنسانيّة، ورسمت صورتها المجتمعيّة، وأظهرت بعض جوانبها ومسبّباتها، ثمّ دعت إلى رفض ما يعيق تواصل هذه العلاقة من الأفكار السلفيّة، والحكايا والشرائع، والتقاليد التي سنّت لزمانٍ غير زماننا، مع المحافظة على القيم والأصول التي تصون كرامة المرأة وعظمتها. تقول بلسان المرأة العربيّة المتميّزة:

أنا النخلة العربيّة الأصول
والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول
فبارك ثورتي[1]

---

(١) فتافيت امرأة، صفحة ٤٩.

إنّ التصادم بين الشاعرة والعدوانيّة المتكرّرة، والقوى الخارجيّة تركها عرضة للانفعالات والردود التي تدافع بها عن مقوّمات فرديّتها، فعصفت في خلجان نفسها جراح كبرياء المرأة العربيّة، وبدأ فعل المقاومة يحفّز السير إلى الأمام، إنّه سيرٌ مسلّح بالطاقات والإمكانات الذاتيّة، وبالرغبة في إثبات الحقّ، سيرٌ هدفه الحدث وفعله في صيرورة التاريخ، وأشكاله سلوكيّة خلقيّة رياديّة:

معذرة... معذرة
لن أتخلى قطّ عن أظافري.
فسوف أبقى دائمًا
أمشي أمام القافلة...
وسوف أبقى دائمًا...
مقتولة... أو قاتلة[٢].

إنّ عدوانيّة الواقع تزيد من صلابتها وقدرتها على المسير؛ لأنّ الصدمة التي لا تقتل تعطي القوة، فتتمنطق الصباح بالتمرّد وتعلن عصيانها ورفضها لواقع مستقرّ في أفعال الأمر والنهي، منتشيًا بمراقبة قطيعه على دروب الطاعة المستكينة، فيأخذ تمرّدها شكل الولادة المستقبليّة، ويصبح الرفض هدمًا للأعراف والشريعة المتحجّرة بشقّيها الدينيّ والاجتماعيّ، ومفهومها المومیائيّ الذي يرغم المرأة على الطاعة العمياء:

لن تدخلني بيت الطاعة...
فأنا امرأة...

(٢) القصيدة أنثى، صفحة ٩٠.

تنفر من أفعال النهي...
وتنفر من أفعال الأمر[٣].

رفضت تقديس الماضي، والاستسلام إلى القرارات التعسّفيّة، فمارست رفضها بعدم المبالاة بالأحاديث، والنقد، والآراء، والأفكار المتداولة، سلاحها العزم، والتصميم والكبرياء لتفتح طريق الرفض والتمرّد أمام الأنثى العربيّة، كي لا تبقى صورة عن أشباح الماضي، بل صورة متجدّدة في قلب الحياة، فيكتب لها الخلود والسموّ:

وأضحك من كلّ ما قيل عنّي
وأبقى أغنّي على قمّتي العالية[٤]

والتمرّد في شعرها مبرمج عقلانيًا، مؤسّس على علاقات إنسانيّة، فالزواج ليس ضمانة الاستمراريّة بالإنجاب، إنّه علاقة سامية ترتفع بعنصريها إلى مرتبة الأصل والخلق، ولذلك يجب أن يتخلّص الزوج من نظرته السلفيّة، ومن الموروث الشعبيّ وأن تعلن المرأة تمرّدها على واقع يعتبرها سجّادة تحتاج إلى ضرب من وقتٍ إلى آخر، ويعتبرها قطعة من الممتلكات، وعليها في الوقت عينه أن تلبّي نداءات الحقيقيّ والفعليّ في أعماقها، لتزيل ما يعيق الثورة، بجرأة، سلاحها التصميم والإرادة والرغبة في بلوغ الهدف:

سأنسف...
هذي السماوات

(٣) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٣٠.
(٤) فتافيت امرأة، صفحة ٢٠..

نجمًا... فنجما

ولن أتنازل عمّا أريد[٥]

تميّز رفض الصباح بالجرأة والوضوح، والمنطق، والثقافة، فكانت ثقافتها طاقة كامنة تتمنطق بها للدفاع عن فاعليّة قضيّتها، فتشرعن انتقامها علانيّة من الرجل، كما فهم هو تشريع الله له في كتابه العزيز أن يتزوّج مثنى وثلاثًا ورباعًا، فألبست شعرها بعدًا ثقافيًّا دينيًّا وإنسانيًّا، وأعلنت موقفها من التأويل والتفسير الذي يسخّره المذكّر لخدمة أهوائه.

مارست الصباح، في إعلان ثورتها، أسلوبًا قانونيًّا؛ لأنّ ما تقوم به ليس سببًا، وإنّما انتقام من مسبّبات أوصلتها إلى مرحلة الدفاع عن النفس، والتي لا تضمن نتائجها إلاّ بارتكاب جرم القتل بشكل علنيّ من دون خوف: «العين بالعين والسنّ بالسنّ والبادئ أظلم»، أليست بشرًا ويحقّ لها الانتقام؟ لقد مثّلت جريمتها على مسرح الحياة من دون خوف وانتقمت للنساء اللواتي دفنّ قرونًا تحت أطلال شريعة بائدة، وهي تدفن الرجل تحت أطلال أفكاره التي جعلت من القتيل قاتلاً، ومن القاتل مقتولاً.

سأعلن يا أيّها الديك...

أنّي انتقمت

لكلّ نساء العشيرة منك

وأنّي طعنتك...

مثنى...

ثلاثًا...

(٥) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥٤، ١٥٥ ـ ١٥٩

رباعًا...

وإنّي دفنتك تحت الطلول

ولن أتراجع عمّا أقول(٦)

والانتقام ـ في شعرها ـ يأخذ بعدًا تاريخيًّا وإنسانيًّا، منذ الجاهليّة وحتّى اليوم، من دون أن تبالي بشبح التاريخ وسيطرة حضوره، فلقد اتّخذت منه غمدًا لتستلّ سيف الجرأة والتمرّد على الخوف والتردّد، فهاجمت واقعًا غيّر في شكله الخارجيّ وظلّ في داخله جمجمة تستعمرها التقاليد ورجلاً تحصّن بثقافة مستعارة ليثبّت حكم شريعته البالية، فتدعوه إلى الاستمرار في همجيّته والاستسلام إلى جاهليّته الفكريّة وقبليّته الحياتيّة.

لن تبالي بهمجيّته ولا بغزواته الاستعماريّة؛ لأنّها تحصّنت بالمعرفة التي جعلت من جسدها أرضًا محرّمة لا يمكن الاستيلاء عليها، وجعلت من فكرها معقلاً للمعرفة وأنكرت تقلّبات العواطف، وعبّرت عن ذلك بقولها:

تصرّف...

ككلّ رجال القبيلة...

غزوًا... وفتكًا...

وكرًّا وفرًّا...

فليس بتاريخ جهلك... شيء جديد،

(...)

فجسمي أرض حرام...

وعقلي ثلاّجة للجليد(٧)...

---

(٦) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٤٨

(٧) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥٦ ـ ١٥٧.

وكأنّي بسعاد الصباح تريد من خلال الدلالات اللفظيّة في هذه القصيدة أن تظهر قبيلة الرجال كلصوص قادمين من الصحراء يعالجون حصون المدينة الفاضلة، وينهزمون ثمّ يعيدون الكرّة لينهزموا، وتنحدر الصورة الذكوريّة لتصل الى درجة التقزيم والانحطاط ناهيك عن حالة الجهل التي عبّرت عنها صراحةً.

في هذا الواقع صمّمت على إثبات شرعيّة الرفض لتخترق أساليب القمع والإرهاب، فيتّخذ التمرّد شكل الجنون والحرّيّة. والمرأة المتوهّجة بجنون معرفتها لا تبالي بتصرّفات الرجل الشرقيّ، لأنّها تحصّنت بالرؤيا المستقبليّة الواعدة، فيأتي الرفض مرادفًا للتحدّي وهدم الأشكال الموروثة والأعراف المستبدة، ويأخذ طريق التقريع والتحقير ويكون الجنون نوعًا من الرؤيا التي ينجذب فيها المجنون إلى عالم المثل غير مبالٍ بالعادات والتقاليد والقيم المصنوعة.

إنّ عالمه مخالف ومغاير، عالم من الحرّيّة والانعتاق، عالم من الانفعالات والترقّي، لا يمكن أن يدركه إلاّ من توهّج بجنونه، وفي هذا العالم المصنوع من التمرّد لا يستطيع الرجل ذو الشكل المستعار والقوّة المستعارة أن يبلغ مستوى الارتقاء أو الرؤيا، وبالتالي لن تستطيع المرأة أن تهدم أحلامه المادّيّة وتطلّعاته.

تصرّف
كذئب يجيد ثلاث لغات
فلن تستطيع اختراق حصوني
ولن تستطيع احتواء جنوني
ولن يستطيع جنودك
أن يشربوا قطرة
من سواد عيوني[٧].

(٧) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥٦-١٥٧.

هـذا الـمـنـحـى الـرفـضـيّ لـم تـدعُ إليه الصباح لو لـم يؤسّس له الرجل بظلمه التاريخيّ، وبالتالي كان تهجّمها على الرجل الشرقيّ من صنع الرجل نفسه؛ لأنّ تعاليه أفقده حاسّة التمييز بين الحقّ والباطل، وبين التسليم والتمرّد، فكلّ أنثى هدف لسهامه، والحبّ ألعوبة وتسلية. وعلى المرأة الخالقة أن توقظه من سكرة النصر المزيّف ليعود إلى وجدانه وضميره ويعترف بحبٍّ حقيقيّ، أو ينالا معًا عقابًا متساويًا.

...

سأصرخ:
حتّى سقوط السماوات...
فوقي، وفوقك... يا سيّدي
ولن أتراجع عمّا أقول...[٨].

والرفض في شعر الصباح يكتسي ثوب السخريّة واللامبالاة، فقبول الشيء وعدم الاكتراث به شكل من أشكال الرفض، فأفكار الرجل الشرقيّ وثقافته المبنيّة على الخوف من المرأة وعليها، المستمدّة من كتاب ألف ليلة وليلة لا تعنيها؛ لأنّه هو الخاسر الوحيد عندما يجد نفسه في نهاية المطاف آلة لا تشعر ولا تحسّ، لذلك عليه أن ينفض عن عاتقه غبار الموروث، ويهدم البنية السلفيّة السطحيّة في أفكاره ومعتقداته:

...

فاحتفظ بذاكرتك المعدنيّة كما تريد...

---

(٨) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥٠.

فإنّ آخر اهتماماتي
أن يحبّني (كومبيوتر)...[٩].

إلى جانب الرفض الساخر مارست الصباح رفضها بالقبول السلبيّ، إنّها لا تلغي أشكال الواقع، ولا تدعو إلى هدمها بل تمارس رفضها وهدمها الصنميّة بعدم الاكتراث، مبدأها في سلوك القبول مستمدّ من قانون الحياة:

إذا لم تستطع أن تغيّر العالم، اعمل لتدخل ضمن اللعبة التي تصنع الأشكال، وادخل بأسلوبك الشخصيّ مزايا بعض المظاهر وتقلّباتها، كن محرّكًا «للمريونات» ولا تكن دمية.

عندما تدخل في نفوس الآخرين الاطمئنان تستطيع أن تتسلّل من خلال النعاس المسترخي إلى حقيقة الحلم وتسرق اللحظة التي تفرض ذاتها على الواقع، وباكتساب فاعليّة لحظة زمنيّة من عمر الوجود تمتلك تثبيت ذلك، وتثبيت الذات هو نوع من تعميق الصلة بالجذر، وبالعودة إلى الأصل تقوى الثقة بالنفس، وبالثقة تشرعن الذات عمليّة تعرية الواقع.

بهذه الفرضيّة تعلن الصباح التماهي التام بالرجل، وانتماءها الطوعيّ إليه وارتباطها الوجدانيّ والقوميّ به، واعتناقها تعاليمه وأفكاره كلّها حتّى صارت نسخةً عنه، وتغذّي غروره باعترافها بسيادته، ومناداته «مولاي»؛ لأنّ الرجل يطربه التأليه:

أيّها السيّد: ماذا بمقاديري فعلت؟
لم يعد عندي انتماء غير أنت...
إنّك القوميّة الكبرى التي تربطني

(٩) في البدء كانت الأنثى، صفحة ١٣٦.

وتعاليمك ـ يا مولاي ـ أحلى ما قرأت
كلّ أوراقي التي أحملها في سفري
فوقها رسمك أنت
والمرايا لا أرى وجهي بها
بل أرى وجهك أنت[١٠].

هذا الرفض الاستسلاميّ قدّمت له الصباح برفض قائم على التهديد والوعيد مبشّرةً بولادة المرأة العربيّة المتحدّية كلّ الإسقاطات الخارجيّة على حياتها، لتلغي سيطرة الإرهاب القائم على التخريف والسحر والشعوذة معلنةً ثورتها المؤجّجة بفاعليّة النفط النفسي، تسلّحه بانبعاثها القسريّ من تحت ركام التواريخ، وما تحمله من أكاذيب وادّعاءات وإرهاب وسيطرة ذكوريّة لم يكن لأصحابها أيّ صفة من صفات الرجولة، ناعتةً إيّاهم بأشباه الرجال.

أيّها السيّد... إنّي امرأة نفطيّة
تطلع كالخنجر من تحت الرمال
تتحدّى كتب التنجيم
والسحر
وإرهاب المماليك
وأشباه الرجال[١١].

إنّ الشعر مع السعاد بوّابة الولوج إلى عالم الرفض والحركة وإثبات الذات المتجذرنة في أصالتها. لذلك حاولَتْ هدم البنى الاجتماعيّة الموروثة وإقامة بنية

---

(١٠) فتافيت امرأة، صفحة ٣٧.
(١١) فتافيت امرأة، صفحة ٣٥.

جديدة يكون للمرأة فيها دور فاعل، ومحرّض على وجود حركة دائمة نحو التجديد المبنيّ على منطق التحوّل لا الثبات؛ فيستضيء واقع المرأة بلهب التحوّلات عبر الحضور الفاعل بالفكر، وتتّحد الأنثى بشخصيّتها الجديدة المتحرّرة من التبعيّة، رافضة الخوف ومتسلّحة بالفكر والقوّة والتمرّد، والتحدّي، معلنةً عدم مبالاتها بالقوّة الخارجيّة التي تلاحقها لتعيق سيرها نحو الأمام، فتتحرّر من القمع الخارجيّ وسلطته بالنفي المطلق لواقعها الاستسلاميّ:

ليس في إمكانهم
أن يقمعوا صوتي...
ولا أن يقمعوني
ليس في إمكانهم
أن يوقفوا برقي...
وإعصاري...
وأمطار جنوني...[١٢].

هذا التمرّد على العالم الخارجيّ وعصيان قوانينه، ورفض هيمنته وسلطته، يجب أن تسبقه المرأة بهدم لوثنيّتها الأنثويّة التي استعبدتها في أشكالٍ خارجيّة، حيث صارت خاضعةً لمظاهر برّاقة شلّت فكرها وطاقاتها عبر مراحل التاريخ. فالخروج على الشكل الخارجيّ الجاهز يجب أن يواكبه نزوع نفسيّ إلى التخلّي عن رغبات ماديّة قيّدتها واستعبدتها. والخروج على الذات والتخلّص من أدوات الإرث يكون برفض مظاهر العيش وإبطال الشغف بالمظاهر البرّاقة، فتعلن الصباح بلسان الأنثى الرافضة أنّ الكنز الأكبر في حياة المرأة هو الرجل الرفيق:

---

(١٢) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٣٦.

لا العطر يدهشني...

ولا الأزهار تدهشني

ولا القمر البعيد...

ماذا سأفعل بالعقود... وبالأساور؟

ماذا سأفعل بالجواهر؟

(...)

ماذا سأفعل في كنوز الأرض

يا كنزي الوحيد[١٣]؟

عندما تصير المرأة قادرةً على التخلّص من الاستعمار الداخليّ المزمن، تستطيع أن تتحرّر فكريًّا من سيطرة الشغف الماديّ، وتسعى للتسلّح بالمعرفة والثقافة، فتولد المرأة التي نادت بها الشاعرة ونادى بوجودها جبران، فهل يمكننا اعتبار الصباح النموذج الأنثويّ الجبرانيّ الذي أراده ورغب في ولادته؟

إنّها تحرّض الواقع الأنثويّ على هدم أشكال الظلم والاستبداد بسيرٍ دائمٍ نحو الأمام، وهذا ما طلبه جبران من المرأة المثال، التي تتحدّى الصعاب وتسير نحو الأمام؛ قال جبران مخاطبًا سلمى كرامة: «أمامنا الحياة وما في الحياة من حرّيّة، وما في الحرّيّة من غبطة، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا، ونكسر القيود الموثقة بأرجلنا ونسير حيث الراحة والطمأنينة؟»[١٤].

والصباح تحرّض على التحدّي والسير إلى الأمام بالطريقة عينها من أجل ولادة الأنثى الخالقة القادرة على تفعيل دور الحياة، والمتسلّحة بالثقافة المعرفيّة والرؤيا الشعريّة، وتحقيق حرّيّتها وشموخها المعنويّ بسيرها إلى الأمام.

---

(١٣) امرأة بلا سواحل، صفحة ٢١.

(١٤) جبران، م. ك. ع.، الأجنحة المتكسّرة، صفحة ٢٢٩.

أتحدّاهم بشعريّ

وبنثري...

وصراخي...

وانفجارات دمائي...

(...)

ما تعوّدت بأن أنظر يومًا للوراء

فلقد علّمني الشعر بأن أمشي

ورأسي في السماء[١٥].

وبالتجاوز والتخطّي، تترسّخ الذات الأنثويّة في أصالتها، لأنّه تجاوز مرتبط بالأصل وليس اعتباطيًّا، إنّه مؤسّس على الجوهر الحقيقيّ، والتأسيس السليم يبشّر ببنية اجتماعيّة سليمة وصحيحة، بنية تأبى اللُّحمة مع مظاهر الغشّ، والتخاذل، وتحدّد هويّتها بالقوّة والصمود والتحدّي، هذه الفاعليّة الكيانيّة الوجوديّة تحفّزها الصباح في ذات الأنثى وتدعوها إلى التخلّي عن منطق وأفكار عصر مزيّف فقد أصالته فتدعوه «عصر التنك»، شريطة أن تبقى المرأة متسلّحة برغبة في الحرّيّة، غير عابئة بالصعاب المؤقّتة؛ لأنّ المعركة ستحسم نتائجها في النهاية لصالحها.

وأضحك من كلّ ما قيل عنّي

وأرفض أفكار عصر التنك

ومنطق عصر التنك

وأبقى أغنّي على قمّتي العالية

وأعرف أنّ الرعود ستمضي

---

(١٥) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٣٨ ـ ١٣٩.

وأنّ الزوابع تمضي
وأعرف أنّهم زائلون
وأنّي أنا الباقية[١٦]

من عمق مأساة الأنثى تبرز الأنا الصباحية بشكل صارخ تحمل هاجس البحث عن الحرّيّة، البحث المسكون بالقلق، والمتعدّد المستويات، محوره الأفقيّ الأصالة العربيّة، ومحوره العموديّ توق المرأة إلى حرّيّتها، ونقطة الالتقاء القدرات الأنثويّة المتشكّلة من الأصالة والتوق، وبها يتحفّز الكمون الذاتيّ، وتخرج الأنثى على حزنها، وتقاليدها وشكلها المزدوج وتحدّد مستويات تلاقي محوري وجودها الماضي والمستقبل ولكنّها لا تجد إلاّ شكلاً واحدًا وتسمية واحدة لمستويات تواجدها كلّها، فتمتطي جواد تمرّدها وتحقّق ذاتها وحرّيّتها بعيدًا عن خرافات متوارثة وتسمو الأنثى بإنسانيّتها فوق فرديّتها، وتعتنق قضيّة الإنسان الكبرى من دون تمييز:

أنا الخليجيّة
التي نصفها سمكة
ونصفها امرأة
أنا الناي... والربابة... والقهوة المرّة
أنا المُهرة الشاردة
التي تكتب بحوافرها نشيد الحرّيّة.
أنا الخنجر البحريّ الأزرق
الذي لن يستريح
حتى يقتل الخرافة[١٧].

---

(١٦) فتافيت، صفحة ٢٠.
(١٧) فتافيت، صفحة ٥٣.

اختزلت «الأنا» الأنثويّة الصباحيّة الأنا النسائيّة الإنسانيّة الكونيّة، ورسمت التمرّد علامة مميّزة فارقة ورفضت الانصياع للأعراف المغلوطة، والبروتوكول الموضوع، وخرجت بالمرأة على العادات والتقاليد والتبعيّة للأفكار السلفيّة، هدفها التفاعل الحقيقيّ مع عذريّة الوجود الإنسانيّ بعيدًا عن التصنّع والأقنعة والعلاقات الكاذبة، إنّها تسعى إلى تأصيل العلاقة الإنسانيّة التي تقرِّب وتوحّد بين الأنا والآخر، مؤكّدةً على غجريّتها، وعدم استعدادها للتعرّف إلى أقنعة المدن، وفق العلاقات العامّة.

إنّ سعاد الصباح لا تفرض على المجتمع الذكوريّ الاستئثار بفاعليّة الحركة والتغيير، وترى أنّ إيجابيّة النتائج تكون أكثر تأصّلاً إذا استطاع المجتمع الذكوريّ أن يواكب باحترام الحركة الأنثويّة، ويعملا معًا على تجسيد الذات الكبرى ليتحرّرا معًا من مخلَّفات الوحل والركام؛ والواقع المأساويّ وإن كان قاسيًا على وضعيّة المرأة وتحرّكاتها، فهو لا يأسر الطاقات ويحدّ من انفعالاتها.

وإذا أراد الرجل أن يؤدّي دوره الحقيقيّ فالخطوة الأولى تكون بخروجه مع الأنثى على القوانين التي أفقدت الكلام حيويّته ونضارته ومعناه، فخسر الحبّ سماته الحقيقيّة وهويّته.

إنّ دعوتها للرجل من أجل الوقوف إلى جانبها في الانتفاضة الإنسانيّة تسبقها باعترافها له بالسيادة لتحفِّز فيه بشكلٍ مبدأيّ الرغبة في الحركة، تخاطبه بـ «الأنا» الجماعيّة.

يا سيّدي:
قد يبس العشب على شفاهنا
وانكسر الكلام...

فكيف نسترجع أيّام الهوى؟

ونحن مدفونان...

تحت الوحل والركام...[١٨]

ولكن هل استطاعت سعاد الشاعرة الإنسان أن تخرج الرجل العربيّ من مومياء الذاكرة التقليديّة؟

هل استطاعت أن تحرّره من ذاته المنتهكة؟

إنّ شكل الرجل العربيّ الحقيقيّ - في رأي الصباح - لم يزل حلمًا ترسمه الأنثى العربيّة وهج ولادة، وهو مستوطن في عمق تطلّعاتها التحرّريّة ولا تمكن رؤيته إلاّ بعين العين، إنّه الحلقة التي تصل بين اللامرئيّ والواقع، والفرق شاسع بين رؤيا مستقبليّة وأشكال الترهّل والقمع المجتمعيّ.

الرجل الحلم إنسانٌ حقيقيّ مسكون بعذريّته، يعشق المغامرة يسعى نحو اللامحدود، يؤمن بانطلاق المرأة، يدفعها بقدراته وطاقاته نحو الأمام ولكنّ حضوره الملموس نوعٌ من مقامرة «على رجل لا يأتي... وحصان لا يربح»[١٩]. بالرُّؤيا المستقبليّة حدّدت بعض سِمَات الرجل الاستثنائيّ الذي يتّصف بمناقب الرجولة الحقّة، وبالحلم استعاضت عن الواقع، واستضاءت به، وامتشقته حجّةً وبرهانًا، وأثبتت حقّها في رفض الشكل الذكوريّ المشوّه والمفرّغ من إنسانيّته وفاعليّته، والثورة على قوانينه وأحكامه وانتهاكاته.

فإذا كانت الأداة العاملة على خلق الأشياء غير صحيحة، فهل تستطيع أن تخرج أشكالاً صحيحة وسليمة؟

والرجل العاجز عن معرفة ذاته، وتحديد إحداثيّاته في الحياة والكون، هل يستطيع أن يضع قانونًا إنسانيًا سليمًا؟

١٨) امرأة بلا سواحل، صفحة ١١٣

(١٩) قصائد حب، صفحة ٩٢.

من التساؤل إلى الشكّ إلى اليقين انتقلت، وباليقين عبّرت، وصرّحت، وضعت الشروط، ورفضت صلاحيّة أنماط الواقع، وانتهاكاته، وأحكامه وقوانينه المغلوطة، وأعلنت انتماءها إلى أصالتها العربيّة، هذه الأصالة التي أسّس أركانها الرسول الأعظم يوم أعطى المرأة حقّها في الحياة الكريمة.

رسمت الصباح الأبعاد النفسيّة والإنسانيّة للأنثى العربيّة بطموحها وتطلّعاتها وانفعالاتها وجوهرها وأصالتها، وأبرزت أسباب ثورتها التي جاءت ردّة فعل ودفاعًا عن كرامتها وإبائها وكيانها الإنسانيّ، وكانت الثورة هادفة إلى المساواة بين الرجل والمرأة لتتفاعل أحاسيسهما انعكاسًا وجوديًّا رقيقًا بعيدًا عن العناد والمواقف المتشنّجة، والإسقاطات الخارجيّة فتخاطب الرجل قائلةً:

إنّ في قلبي جوادًا عربيًّا
عاش طول العمر في الحبّ أبيًّا
فإذا عاندته ألفيّته
ثار كالمارد جبّارًا عتيّا
(...)

ثمّ تنتقل من التصوير إلى التهديد وإبراز هويّتها الثائرة واللامبالية لأنّها تطمح إلى تحقيق نتائج تساوي بينهما، المهمّ، بالنسبة إليها، أن تتحقّق المساواة:

لا تعاندني... فأغدو حممًا
تهدم الدنيا عليك... وعليّا
لا أبالي إن تحطّمت معي
ودفنّا قصّة الحبّ سويّا

فحنانيك... وحاذر غضبتي

إنّ في قلبي جوادًا عربيًا[٢٠]

ولمّا كانت طريق الثورة لا تعبّد إلاّ بالنضال، والنضال حركة تستشرف أشكال المستقبل، وترسم حيثيّاته، وتنبئ بما سيكون عليه إنسان الغد، فلقد اتّخذت الصباح من النضال الثوريّ معبرًا إلى تحقيق الكيان الأنثويّ ذي الخاصّة المتميّزة، وهذه الخاصّيّة لا يكشفها ـ في رأيها ـ إلاّ المدجّجات بفضيلة القتال الفكريّ، والمتّجهات نحو المستقبل، المؤمنات بالحياة، والحياة لا بدّ أن تنتصر بعناصر مسكونة بالحركة والحقّ.

وبانتصار الحياة، يتغيّر شكل العالم، وينتشر السلام، والحبّ. والحبّ هو القوّة التي تكسب الكون حياةً وخصبًا، إنّه القوّة العجائبيّة التي تبعث الحياة حتّى في الأموات.

بهذه الرؤيا تُعلن الشاعرة ولادة الأنثى المتمنطقة بفاعليّة النضال سعيًا وراء تحقيق كيانها الذاتيّ.

يا سيّدي:

سوف أظلّ دائمًا أقاتل

من أجل أن تنتصر الحياة.

وتورق الأشجار في الغابات.

ويدخل الحبّ إلى منازل الأموات

لا شيء غير الحبّ

يستطيع أن يحرّك الأموات[٢١]

(٢٠) أمنية، صفحة ٤٩ـ ٥٠ ـ ٥١.

(٢١) القصيدة أنثى، والأنثى قصيدة، صفحة ٨٢.

لقد حاولت الصباح هدم الأشكال المهترئة بالكلمة الأنثويّة المغايرة للأعراف، فزلزلت صنميّة النظرة إلى الشِّعْر الأنثويّ، وكشفت عن الشكل الحقيقيّ الأصليّ لذات المرأة العربيّة المغرّبة عن واقعها وعن ذاتها، ولكنّها - في رأيي - لم تكن لتستطيع أن تؤدّي رسالتها من دون دعم زوجها القائم على الاحترام والحبّ والتقدير، وقد صرّحت بأنّ «الكثير من قصائدها وكتاباتها هي من وحي أفكاره وتعليقاته»[٢٢].

وكان دائمًا يشاركها في مجالسه ويخصّص لها مكانًا في ديوانيّته ويستمع إلى آرائها وأفكارها بكلّ احترام وديموقراطيّة، فكان خروجها فاعلاً، وفاعليّته أربكت المجتمع الذكوريّ الذي لاحقها محاكمًا، محاسبًا، ولكنّها لم تبالِ بمحاكماته ولم تنكر دورها التحريضيّ الثوريّ الذي تريده كونيًّا شاملاً، وتجيب هؤلاء بقولها:

يقولون:
إنّي كسرت رخامة قبري
وهذا صحيح.
وإنّي ذبحت خفافيش عصري
وهذا صحيح
وإنّي اقتلعت جذور النفاق بشِعْري
وحطّمت عصر الصفيح
فإن جرّحوني...
فأجمل ما في الوجود غزالٌ جريح.
وإن صلبوني، فشكرًا لهم
فقد جعلوني بصفّ المسيح[٢٣].

(٢٢) صقر الخليج صفحة ٢٦٨
(٢٣) القصيدة أنثى والأنثى قصيدة، صفحة ٧٩.

إنّ الهدم الاجتماعيّ الذي هزّ المفهوم الخاطئ لم يكن اعتباطيًّا ولا تخريبيًّا، إنّه هدم يهدف إلى بناء مجتمع متكامل بقدرات عنصريه الذكر والأنثى، هدم يلغي الحواجز المرتفعة فوق مظاهر واهية من الاستسلام والكذب والنفاق والانقياد، وفي هذا المجتمع الجديد يكون للمرأة دورها الرياديّ، لتشارك في صنع القرار والتاريخ، وتلغي الهوّة ما بين نظرة الرجل ونظرتها إلى الحياة، وبإلغاء الهوّة تتمّ اللُّحمة ويقوّى التفعيل الديناميكيّ من أجل ولادة إنسان الغد.

ترى الشاعرة أنّ وجود الهوّة ناتج عن محاولة ترويض الرجل للمرأة، ولكنّ هذا الترويض مستحيل بسبب التنافر النبوغيّ والكيفيّ بينهما، وكانت قصيدتها «درس خصوصيّ» تعبيرًا صريحًا عن هذه الهوّة، فالمرأة تتمسّك بالأصل، والرجل يستغلّ الأصل بحسب رغباته وعلى الأصل تُبنى الحضارات، وبالاستغلال يترسّخ الطغيان.

فرقٌ كبير بيننا يا سيّدي
فأنا محافظة... وأنت جسور
(...)
فرقٌ كبير بيننا يا سيّدي
فأنا الحضارة
والطّغاة ذكور[٢٤].

إذًا، كيف تنادي السعاد بمشاركة وجدانيّة إنسانيّة إذا كان الخلاف بين الرجل والمرأة قد فرّق في النوع والكَيْف؟

إنّ هوّة التفاوت - في رأي الصباح - لا تُردم إلاّ بوجود الحبّ الحقيقيّ،

(٢٤) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٢٥ ـ ١٢٦.

المتحرّر من التبعيّة والانقياد. وهذا الحبّ يولد من رفض العنصر الأنثويّ الصالح المتزامن مع رفض العنصر الذكوريّ، فيلبّي الرجل نداء الإنسان في داخله، ويتخلّص من قيود الماضي، ومن الأعراف الاجتماعيّة البالية، ويؤمن بالأنثى رفيقة درب، ويعطيها حقّها في الحياة، فيلغي وصايته عليها، وينزع عنها طوق التبعيّة الفكريّة والنفسيّة ليكون حبيبًا لا سجّانًا[٢٥].

وببلوغ الرجل مرحلة من المعرفة تؤهّله ليكون عنصرًا جديرًا بالحياة تنضج رؤياه الإنسانيّة، ويتخلّص من موروثه العاطفيّ الذي كان يرى في الأنثى جسدًا ماديًّا، ليرتقي برؤيته إلى الإيمان بالمرأة كفكر ومشاعر وعواطف.

ولذلك تدعو سعاد الصباح الرجل إلى أن يتسلّح بمعرفة حقيقيّة لمشاعر المرأة وعواطفها الصادقة، ليكون قادرًا على رفض الفكر السلفيّ الماديّ الجامد وتغيير أساليب التعاطي مع العنصر الأنثويّ، ليرتقي معها وبها من حدود السلفيّة المقيّدة إلى فضاء معرفيّ لا حدود له، فضاء منتعش بالحبّ فتخاطب، الرجل بصراحة وجرأة قائلة:

لو كنت تعرف كم أُحبّك
لم تعاملني ككرسيّ قديم
أو كنصٍّ من تراث الأقدمين
لو كنت تعرف كم أحبّك
ما قمعت...
ولا بطشت
ولا لجأت لحدّ سيفك
مثل كل الحاكمين[٢٦].

(٢٥) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٨٦.
(٢٦) القصيدة أنثى والأنثى قصيدة، صفحة ٥٨.

إنّ الصبّاح تدعو الرجل إلى رفض الواقع وقبول الآخر، وبخاصّتي الرفض والقبول ومساعدة الرجل تستطيع المرأة ـ في رأيها ـ أن تُعلن عن عواطفها، وتفصح عن مشاعرها النبيلة، فإذا كان المجتمع يعتبر كلام الأنثى على الحبّ خروجًا على المألوف والمقبول، فلتبارك وجودها بنعمة الرفض، وعلى الرجل الصادق مع نفسه، والمنسجم مع مبادئه ألاّ يقمع صوت الحبّ الأنثويّ؛ لأنّ فيه نعمة من التحدّي والرفض.

والكلام على الحبّ تنقله الصباح شعرًا عن وعي كامل لحقّها في التعبير عن إنسانيّتها، وتذكر رأيها بجرأة وصدق في مقدّمة كتابها «قصائد حبّ» قائلةً: «هذه قصائد أحاول بها أن أقيم ديمقراطيّة عاطفيّة يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرّيّة البوح (...) إنّ لدى المرأة كلامًا عاطفيًّا مخزونًا منذ آلاف السنين تريد أن تقوله»[٢٧].

جعلت الصباح من الحبّ عمليّة ارتقاءٍ وتحرّرٍ، ورأت أنّ الحبّ الفضائيّ الكونيّ الفاعل ناتج عن حركتي الارتقاء نحو اللاّمحدود، والرغبة في الحصول على المعرفة.

وبحركتي الارتقاء والرغبة تتحرّر المرأة من قيودها وتكشف المحجوب المستتر، وتفصح بفعل الكتابة عمّا احتجب منذ مئات السنين، فيأتي الحدث غريبًا عن الحياة العربيّة. إنّه ـ في عرف المجتمع ـ حدثٌ إجراميّ ارتكبته المرأة وبالحدث تولد الحركة إيجابًا وسلبًا، وتتفاعل عناصر الحياة التي أيقظتها الشاعرة بهدم حصون التقاليد العربيّة وشقّ الطريق أمام حرّيّة القول والتعبير، وإضاءة الوجود الأنثويّ بالحركة الصاعدة بحثًا عن اللاّمحدود واللاّملموس. ويتمّ القطاف المعنويّ بحركتين متكافئتين: البحث التصاعديّ عن الضوء، والبحث التصاعديّ عن المعرفة، وتعلن أنثى الصباح تفرّدها واستباقها، ويتوحّد فعل القصيدة والقمر، والجريمة خلقًا وابتكارًا:

(٢٧) قصائد حب، صفحة ١٢.

أصعد إلى سقف القمرْ
لأقطف لك قصيده
وأصعد إلى سقف القصيده
لأقطف لك قمرًا
أصعد إلى فضاءاتٍ
لم تصعد إليها إمرأة قبلي
وأرتكب كلامًا عن الحبّ
لم ترتكبه سيّدة عربيّة قبلي
ولا أظن أنّها سترتكبه بعدي[٢٨].

إنّ دعوة الصباح إلى الإفصاح عن مشاعر الحبّ هي نوع من الثورة وقلب المفاهيم، وخرق هالة القداسة، فهي رفض وهدم وخروج وثورة.

وحبّ ثوريّ كهذا له خصائص ومقوّمات تمتلك خاصّيّة التغيير والتحديث، حبٌّ فاعل، كاشف، محرّض، حقيقيّ لا يؤمن بالطقس والشكل، إنّه نابعٌ من الذات الإنسانيّة بكلّ شفافيّتها وطهرها وعذريّتها، إنّه شموليّ أكبر من الزمان والمكان والكلام.

عرّفت الصباح الحبّ الذي تريده بقولها:

حبٌّ يثور على الطقوس المسرحيّة في الكلامْ
حبٌّ يثور على الأصول...

(٢٨) قصائد حب، صفحة ٨٧.

على الجذور...

على النظام...

حبٌّ يحاول أن يغيِّر كلّ شيء

في قواميس الغرام[٢٩].

والحبُّ الثوريّ، حبٌّ يعرّي، وينقّي، ويفصح عن جوهر المرأة من دون زيف ولا غشّ، من دون طلاء أو أصباغ، إنّه يتمرّد على قشرته، وينبثق عنه كونٌ جديد، ولقد عرّفته الشاعرة بقولها:

حبّي شتائيّ

ولا أشعر أنّي امرأة

إذا انتهى الشتاء

حبّي جنونيّ

ولا أشعر أنّي امرأة

إذا لم أحطّم قشرة الأشياء[٣٠].

إنّ الثورة الإنسانيّة في شعر الصباح ليست هدمًا للمألوف فحسب، وإنّما حاجة تفرضها الحياة السائرة إلى الأمام، من أجل بناء كيان إنسانيّ صحيح يراعي الجانب العقليّ والنفسيّ لعنصريها «الرجل والمرأة»، فهما جسدٌ واحد في كيان الحاضر والمستقبل، وعليهما أن يتبادلا المعاملة الحَسَنة، فتتفاعل الأحاسيس انعكاسًا

---

(٢٩) امرأة بلا سواحل، صفحة ٢٠.

(٣٠) امرأة بلا سواحل، صفحة ٣٥.

وجوديًّا رقيقًا ومستقرًّا تكون المرأة فيه ذات حضور إنسانيٍّ لا متناهٍ، تتخطّى معه الماضي والحاضر وتثبت دورها وفاعليّتها في حركيّة مستمرّة، فالعنف لا يُولّد إلاّ العنف، والإلفة لن تولّد إلاّ الإلفة، وبالمحبّة الحقيقيّة تتجسّد مشيئة الله.

إنّ هدم الصباح هدم يسعى إلى التشييد والبناء وتأسيس مقوّمات المجتمع الإنساني الصحيح والسليم.





البناء

لم تهدم الصباح المؤسّسة الاجتماعيّة العربيّة، ولم تدعُ إلى التخريب والفوضى، وإنّما كان هدمها أشبه بالبرق الذي يسبق الرعد والأمطار، فكانت غايتها هدم العلاقات القديمة الهشّة المهترئة، والنموذج المقدّس المصنوع من غبار الماضي، من أجل خلق نمط جديد من العلاقات.

كان هدمها أشبه بهزّة في معتقداتنا الراكدة، ليتساقط منها ما ليس جديرًا بالحياة، ويستمرّ بنا ومعنا ما كان بذارًا صالحًا للصيرورة والتغيير والتجديد.

تجسّد رصدها لواقع المرأة العربيّة تصويرًا حيًّا يعنى بالتفاصيل والجزئيّات الشكليّة والنفسيّة، وبرزت الصورة البشعة التي تراكمت تشوّهاتها من تكرار الموروث التاريخيّ؛ والتغيير لا يقوم من الفراغ أو على الفراغ، وإنّما يحتاج إلى قياديّين يمهّدون الطريق أمام الأجيال.

والعمل القياديّ في رأي الشاعرة ليس حكراً على جنسٍ واحد، وإنما يشترك فيه الذكر والأنثى.

فالأنثى الرياديّة، قياديّة، منعتقة من المادّة، ومعتنقة الجوهر بعطائها وتضحياتها، تعي تمامًا حقيقة وجودها، وتؤدّي دورها الفعليّ من غير خوف، متحرّرة، واثقةً بنفسها، لا تقعدها الإشاعات والكلام الفارغ عن المضيّ إلى هدفها، فتلبس

رفضها للواقع، بقبوله وتغذيته بعنصري الحركة والحرّيّة، فتأكل السلبيّة ذاتها ويتحوّل السلب إلى إيجاب:

لا تضايقني الإشاعاتْ
التي يروونها عنك وعنّي
بل على العكسْ
إنّني أفتح لها نوافذ بيتي
وأقدّم لها القمح على راحتي
وأتركها تلعب في خزانة ثيابي
إنّ إشاعات الحبّ في بلدي
عصافير جميلة
وأنا أرفض قتل العصافير[1].

تدعو الصباح المجموعات النسائيّة إلى الإفصاح عن المشاعر والأحاسيس. والحبّ في رأيها حرّيّة وليس فيه عار، إنّه «شعلة سماويّة»، وضعها الله في قلوب ولدت حرّة. ولقد قال الخليفة عمر بن الخطاب رضيّ الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا»، فالحرّيّة الشخصيّة أو الفكريّة أو العاطفيّة هبة من الخالق، ولا يجوز تجريد الإنسان من حقٍّ إلهي.

ولما كان الحبّ حرّيّة، والمرأة إنسانًا كامل الحقوق كما نصّ الله في كتابه العزيز:

﴿... لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[2]

(١) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٨٢.
(٢)سورة النساء آية ٣٢

إذًا فيجب أن تكون المرأة حرّة في التعبير عن عواطفها ولا يحقّ للرجل أن يحرّمها من هذا الحقّ، وليس من الطبيعيّ أن تحلّل المجتمعات البشريّة للرجل حرّيّة البوح والتعبير وتحرم المرأة.

هذا الواقع السكونيّ تحرّكه الصباح وتوقظه بالسؤال، وبه تكون يقظة تدفع نحو التنقيب والكشف وبالتالي الحصول على معرفة حقيقيّة تستضيء بها الجوانب المظلمة من حياة المرأة.

وأسأل نفسي:
لماذا يكون غناء الذكور حلالاً
ويصبح صوت النساء رذيلة؟[٣]

لم تتوقّف الأديبة عند حدود السؤال التحريضيّ، بل عمدت إلى الكشف أيضًا بالتجربة والاختبار، فالمجتمع العربيّ الذي حرّف الأصل وربط كل مظهر خاطئ بالسنَّة والشريعة ليبرّر أخطاءه وتهالكه، يسيطر على فكر المرأة بالأمثال المحذِّرة لتنشأ في عبوديّة السهل الموروث، بعيدًا عن التساؤل والبحث والتطلّع وتقنع بقبول كلّ سلفيّ من عادات الحياة متغاضيةً عن حرّيّة وجود دنيويّ طمعًا في نعيم الجنّة وحرّيّتها وتتخدّر مفاهيمها تحت تراكمات من المعرفة الخاطئة.

تقدّم الصباح للمرأة العربيّة موادّ ونقاطًا مقدّسة لا تقبل النقاش أو الحوار «الكتابة إثمٌ عظيم ـ الصلاة أمام الحروف حرام ـ مداد القصائد سمّ...»، وتنقل شكل السلطة القمعيّة الرافضة للاختبار باستخدام أسلوب النهي «لا تكتبي ـ لا تقربي ـ إيّاك أن تشربي» لكأنّ القراءة رجسٌ من عمل الشيطان، أو محرَّمات مسكرة «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى».

(٣) فتافيت امرأة، صفحة ١٦.

لم ترفض الصباح تكرار هذه المشاهد أمام جمهور النساء، ولكنّها أثبتت بخوض التجربة أنّ الافتراضات لا صحّة لها، ولا أساس دينيًّا لها، فلقد كتبت ولم تتسمّم ولم يغضب الله منها ولا استاء النبيّ:

وها أنذا
قد شربت كثيرًا
فلم أتسمّم بحبر الدواة على مكتبي
وها أنذا
قد كتبت كثيرًا
وأضرمت في كلّ نجم حريقًا كبيرًا
فما غضب الله يومًا عليّ
ولا استاء منّي النبيّ[٤]

وبنجاح الاختبار العلميّ تدعو الأنثى إلى تفعيل دورها الثقافيّ والتقرّب من الرجل لخلق علاقة إنسانيّة لها حضور إيجابيّ قابل للتبدّل والتطوّر من خلال الفاعليّة الذاتيّة للإنسان فيهما، هذه الفاعليّة التي تصنع الروابط، وتهدم الهوّة، وتحوّل الصراع في نفس المرأة إلى طمأنينة واستقرار، وباطمئنانها إلى قيمتها كعنصر فاعل له دور مهمّ في مسيرة الحياة والكون، تتغيّر نظرتها في تكوينها، وتتصرّف من منطلق الحقوق الطبيعيّة والواجبات الضروريّة، وتتخلّص من أخطاء الكبت وباطنيّة الفكر المغلوط، وتنتصر على عواطفها التي استعبدت فكر المرأة أجيالاً طويلة.

بهذه الفرضيّة تستطيع المرأة أن تبوح للرجل بأحاسيسها ومشاعرها، ولكن

---

(٤) فتافيت، صفحة ١٤.

شريطة ألاّ تتخلى عن كرامتها وكبريائها؛ لأنّهما أغلى ثروة تملكها المرأة، وهكذا نجد أنّ الشاعرة لم تطالب بحرّيّة المرأة العاطفيّة المنفلتة من كلّ القيود، إنّها تشترط على المرأة العظيمة أن تحترم حرّيّة العواطف التي وهبها الله لها، وفي الوقت عينه تكبّلها بعظمة الكبر والكرامة، إنّها معادلة تجمع النقيضين وقابلة للحلّ:

فأمانيَّ، برغم الحبّ، أحرارٌ وأسرى
هنَّ أحرارٌ، لأنّ الله صاغ القلب حرًّا
هنّ أسرى كبريائي، وهي بي أولى وأحرى
كبريائي هي، من كلّ المنى أعظم قدرًا
فإذا ما صنتها لي، بات لي حبّك ذخرًا[٥]

أمانيّ حرّة + كبرياء موجّهة ⟸ الحبّ الحقيقيّ

وباعتماد هذه المعادلة الصحيحة، تستطيع المرأة القياديّة أن تنقض بالبرهان العمليّ والعلميّ كلّ النظريّات الخاطئة التي فرضت عليها، وتتحرّر من هيمنتها، فتتخلّص من مقولة إنّ الكلام ميزة الرجال، والتغزّل من اختصاصهم، والكتابة بحرٌ عميق المياه مخيف، وتتحرّر من أفعال الأمر والنهي وتثبت قدرتها على الكتابة كالرجال:

وها أنذا قد سبحت كثيرًا
وقاومت كلّ البحار
ولم أغرق[٦]

(٥) أمنية، صفحة ٧٣.
(٦) فتافيت امرأة، صفحة ١٥.

والمرأة الحقيقيّة تتقن تحوّلات الكيمياء، وتمتهن لعبة الصبر، تُفاعل الأنا الإنسانيّة في ذاتها مع جوهر الرجل الخالق، وباتّحادهما يتجسّد الإنسان الحقيقي الجوهريّ، وتتلف الشوائب، فالصبر - في رأي الصباح - فعل تحويل وخلق، يثبت القدرات الإيجابيّة إيمانًا بقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾

والمرأة الخالقة تواجه ضربات الرجل المعنويّة، وتجبُّره، وتسلُّطه على حياتها بالصبر، وقوّة الإرادة، وتجعل من صبرها علمًا وفنًّا، لتوقظ الإنسان الحقيقيّ المستتر وراء تصرّفات الرجل المستبدّ وتعيد ولادته من جديد.

يا هولاكو هذا العصر:

(...)

أنت تمارس فن القتل

وأنا أتقن فن الصبر[٧]

ومن الملاحظ في هذه القصيدة «رجل تحت الصفر» أنّ الشاعرة تصوّر فيها الرجل الظالم «فرعون» الذي يصل به الغرور إلى حدّ ادّعاء الألوهيّة وتطلق عليه إسم أحد رموز الوحشيّة فتقول له: «يا هولاكو الأول يا هولاكو الثاني يا هولاكو التاسع والتسعين»، وهو جزّار بطّاش، لا يعرف العلم ولا الحضارة ولا للحبّ معنىً، وهو يبطش أوّل ما يبطش بأبناء جنسه من الذكور، يتّصف بنوع من الصنميّة والجماد «أنت تحبّ ثبات البرّ»، فتناولت رجلاً بعينه أو نوعًا معيّنًا من الرجال مستعملةً صفة تخصيصيّة تميّزه عن المجموعة ناعتةً إياه بـ «الرجل السوداويّ»، وهي امرأة فوق العادة تلبس التحدّي درعًا.

(٧) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٢٩.

وهذه الطاقة التحويليّة المفعّلة بخاصّيّة التحدّي، هي قبل كلّ شيء طاقة معرفيّة، ثقافيّة، ووليدة الموهبة والقوّة، والرؤيا، إنّها طاقة تهدف إلى ولادة الأعمال العظيمة. والأعمال لا تكون عظيمة إلاّ بقدر ما تعبِّر عن الذات الكونيّة وتحمل انبثاقات وتطلّعات وأحلام الإنسان المنطلق نحو ذاته الحرّة.

وبالتالي فإنّ أيّ عمل تسعى الأنثى إلى خلق أشكاله الصحيحة لن يكون عظيمًا إلاّ إذا اختزل في معانيه الرغبات العليا التوّاقة إلى الانفلات من محدوديّة الانتماء نحو انتماءٍ كونيّ شامل، لتتّحد قضيّة الأنا الصغرى بالقضيّة الإنسانيّة الكبرى، وترتقي الأنثى بفعل التحدّي الذاتيّ للصعوبات من المحدوديّة إلى حرّيّة كونيّة مطلقة حيث تتفجّر الحياة حبًّا، وتعاونًا، وتعاليًا على التفرقة والتمايز البشريّ، وهذا العمل العظيم هو محتوى رسالة التحدّي والريادة في فكر السعاد لتكون المرأة الخالقة قادرة على إثبات ذاتها.

أتحدّاهم بشعري
وبنثري
وصراخي
وانفجارات دمائي
أتحدّى ألف فرعون على الأرض
وأنضمّ لحزب الفقراء[8].

وعندما تصير قادرةً على إثبات ذاتها تحاول نشر رسالتها وتعميمها على المجتمع الذكوريّ بشكلٍ علميّ وذكيّ، فتحقّق رسالتها بالسعي إلى التفهّم والتأثير في الرجل، لتزرع في عواطفه وأفكاره، عواطفها وأفكارها فيصيرا معًا

(٨) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٣٨.

الجسد المتوهّج بنور الألوهة:

يا الذي لا يشبه رجلاً
ولا يشبهه رجل
مرآتي أنت
فما أجمل وجهي[٩].

تترك سعاد الصباح للمرأة حرّيّتها في استخدام إمكانيّاتها المفترضة، وتقدّم لها مفتاحًا يخرجها من قمقم الاستسلام، لتكتسب بعض صفات المرأة الخالقة، وتخرج كالمارد من تحت الرماد، وتثور على المتشدّقين باسم الحرّيّة، وتقلع جذور النفاق والكذب من العلاقات الاجتماعيّة، وتتخلّص من الشكل الجاهز للمرأة في مخيّلة الإنسان العربيّ، ومن وصايا القبيلة، ومن سلطة الموروث، وتحطّم العصر المتجمّد الذي هدّد التاريخ والجغرافيا لتبتكر مع الرجل تاريخًا مغايرًا ومختلفًا لتحرّكه العلاقة الحميمة المشتركة بين المرأة الخالقة والرجل الخالق. وتتكوّن النواة الإنسانيّة الخارجة على كلّ مفهوم قديم ترهّل بتكرار مشاهده واستهلاك أشكاله. وتقدِّم نفسها مثالاً للتحدّي.

أنا الخليجيّة
الهاربة من كتاب ألف ليلة
ووصايا القبيلة
وسلطة الموتى

(٩) خذني الى حدود الشمس: صفحة ٢١.

والتي تتحدّى حين تكون معك
حركة التاريخ وجاذبيّة الأرض[10].

المرأة الخالقة - في رأي الصباح - لا تكتفي بالخروج على الموروث المستهلك والبالي، بل هي الأنثى القادرة على رفض الخضوع لأشكال العصر المغرية والخاطئة، إنّها الأنثى التي تأنف التحلّي بأثواب الحضارة المزيّفة الجديدة، هذه الحضارة التي اكتفت بالقشور وغيّبت الجوهر.

الأنثى الحقيقيّة لا تغريها القشور ولا تهتمّ بالبالونات المنفوخة ولا المفرقعات المستحدثة، بل تبقى متمسّكةً بأصالتها، وقناعاتها وإيمانها غير مكترثةً بما تتناقله الدعاية الغربيّة عن تفسّخ في علاقات الرجل والمرأة، وتحوّلها إلى روابط جسديّة، مغلّفةً التفكّك بمظاهر من الإغراءات ظاهرها حرّيّة وتمرُّد، وباطنها انقياد واستعباد.

إنّ تأثيرات الحياة الغربيّة في بلادنا، والتي سبّبها وجود النفط، غريبة عن طبيعة أرضنا وحياتنا وأصالتنا ومعتقداتنا وتراثنا الأصيل، وبالتالي تدعو الصباح إلى الاحتفاظ بعلاقات إنسانيّة بين الرجل والمرأة، علاقات مؤسّسة على التفاهم والصداقة، والتشاور، والتعاون بعيدًا عن مؤثّرات الإضاءة الخارجيّة.

يا صديقي
إنّ عصر النفط ما لوّثني
لا ولا زعزع بالله اقتناعي
(...)

---
(١٠) فتافيت امرأة: صفحة ٤٩

كلّ ما حولي

فقّاعات من الصابون والقشّ

فكن أنت شراعي[11].

وهذه الأنثى القياديّة المتمسّكة بأصالتها والمتألقة بريادتها الفكريّة عليها مسؤوليّة تغيير أفكار الرجل الشرقيّ وعاداته غير الصالحة عن طريق الحوار بأسلوب علميّ منطقيّ تستطيع معه أن تقنع الرجل برفض موروثات حوّلته إلى بطلٍ وهميٍّ على مسرح الحياة، فيبطل شغفه بشكل المرأة الخارجيّ ويهتم بعقلها وتفكيرها، ولكي تستطيع إقناعه عليها أن تكون جريئة في طرح أفكارها والتعبير عن حاجاتها النفسيّة، ورغبتها في قيام العلاقة الحقيقيّة على الصداقة والتفاهم، والتقدير الثقافيّ، وعليها أيضًا أن تشرح للشريك الموضوعات التي تثير اهتماماتها، ليتجاوز الرجل المفاهيم التي يحملها شكلاً ثابتًا من دون أن يعلم حساسيّة المرأة الخالقة من تطبيقها.

إنّ المرأة الاستثنائيّة تحتاج إلى الصديق الذي يعطيها الأمن والسلام، ويشاركها في التفكير والحوار، بعيدًا عن المادة القاتلة، ويحترم خصوصيّاتها وحاجاتها الروحيّة، فالعشق لا يهمّها، ولا الكلام المفرَّغ من المعنى، ولا القصور، أو الهدايا القيّمة، ولا الاهتمامات بالشكل.

وعندما تستطيع المرأة أن تفصح للرجل عن حاجاتها النفسيّة والروحيّة وتحثّه على التخلّي عن بطولة وهميّة يولد الرجل الصديق:

كن صديقي

(١١) القصيدة أنثى، صفحة ٣٠.

ليس في الأمر انتقاص للرجولة
غير أنّ الرجل الشرقيّ لا يرضى بدور
غير أدوار البطولة
(...)
فلماذا تهمل البعد الثقافيّ...
وتعنى بتفاصيل الثياب
(...)
كن صديقي فأنا محتاجة جدًّا لميناء سلام[١٢].

المرأة الخالقة تتمتّع بشخصيّة ذكيّة وصريحة، وصادقة في التعبير عن نفسها، فلا تخفي حبّها، إذا كان شريفًا لأنّه نور الله في قلوب المحبّين وإعلانه حقّ مشروع، وفي إعلانه خروج على التقليد، ومن العادة، من أجل افتتاح مسارٍ جديد، تخلق فيه الأنثى نموذج تعبير متميّزًا، شكّلته برغبتها وإرادتها وكبريائها وخفرها، وظلّت محتفظةً بسرّ إبداعها لهذا النموذج، وبقدر ما تصون المرأة خصوصيّتها تبقى سرًّا، وحيث يكون السرّ توجد الرغبة في الكشف:

أنا من حبّك أخفي عنك آلاف الفكر
في ثنايا كبرياءٍ، وحياءٍ، وخفر...[١٣].

تدعو الصباح النساء إلى خوض معركة الدفاع عن النفس حتى تنتصر الحياة بانتصار المرأة على قيودها، فتكسب الوجود جمالاً، وحياةً، وخصبًا، ويصير إلى

(١٢) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٩ ـ ١٢.
(١٣) أمنية، صفحة ٧٧.

حركة تحيي النفوس الظمأى، فتجعل من معركتها تجربةً يؤسّس عليها المستقبل، ولذلك يجب أن تتميّز بالحرّيّة والعبوديّة، الحرّيّة الفكريّة والعبوديّة لكبريائها فتحرِّم جسدها عن علاقة إذلال غير مبنيّة على التفاهم، وتجعل من العقل حاكمًا على عواطفها، وتسيطر على المشاعر والأحاسيس غير الناضجة، وتتحلّى باحترامها لنفسها، جاعلةً من الجسد أرضًا حرامًا، والعقل ثلاّجة الجليد[١٤]، كي لا تنتقل من عبوديّة التقاليد إلى عبوديّة العواطف، وهنا ترسم الصباح صورة معبّرة عن الصراع في نفوس النساء القياديّات وخوفهنّ من المجهول غير المحدّد الرؤى؛ فجسّدت الصراع في نفس المرأة بين عاملين عامل الرغبة في الحبّ، وعامل الخوف.

تتصارع في أعماقي رغبتان
رغبتي في أن أكون حبيبتك
وخوفي من أن أصبح سجينتك[١٥].

إنّ الأنثى القياديّة، لا تسيطر عليها العواطف، فهي متحرّرة، ورافضة لعواطفها تستمد من فطرتها قوّة، وطاقات حقيقيّة، فتكون الأنوثة عندها رفضًا للانقياد والانصياع وتأجّجًا للعواطف، وتمرّدًا على المألوف، وحرقًا لقشور الأعراف، لتحتفظ بالجوهر، وتحرص عليه.

إنّها بحر يكتنفه السرّ والغموض، بحرٌ لا قرار له، يموج بالصخب والأسرار، وشواطئه لا تعرف السكينة والهدوء، إنّها حركة دائمة، حركة واعدة، مبشّرة،

(١٤) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٥٧.
(١٥) امرأة بلا سواحل، صفحة ٨٣.

فبعد البروق والرعود الخير والخصب، فعواطفها عصف يقضقض السكون ويحطّم كلّ ما هو بالٍ.

هذا أنا... من يوم أن خلِقت
أنوثتي ساحقة...
عواطفي حارقة
شواطئي تضربها البروق والرعود...[١٦]

والمرأة الرياديّة ثورة بحدّ ذاتها تدافع عن قضيّتها بوضع الفروض وإثبات صحتها أو نقضها إذا لم تكن هذه الفروض متّفقةً مع الحقائق الحياتيّة والإنسانيّة. فتجسّد كونًا مطلقًا، مفعمًا بالحركة والحيويّة، ومن هذا المنطلق وعبره تعلن موقفها، وتحدّد إحداثيّات قضيّتها التي تهدف إلى تحرير المرأة والثأر لها من كلّ العصور التي أفتت بظلم الصابرات والحائرات والقاصرات، وهتك حرمة العذارى.

تختزل الشاعرة في صوت المرأة القياديّة أصوات النساء عبر التاريخ والعصور، حيث عوملت الأنثى كالحيوانات بيعًا وشراءً واستغلالاً، فتبطل بصوتها المظاهر الإجراميّة، وتلغي الأعراف الإنتهاكيّة، وتكون الأنثى الحقيقيّة.

سأصرخ:
باسم العذارى اللواتي
تزوجتهنّ...

(١٦) امرأة بلا سواحل، صفحة ٣٣.

وطلّقتهنّ...
كما تشترى وتباع الخيول!![17]

إنّ الأنثى في شعر الصباح، خالقة، مواطن كوني، فاعل ومؤثّر في العالم كلّه، وهي الفعل والفاعل في آن تستخدم ذكاءها وثقافتها فتخلق في نفس الرجل شعورًا بالحاجة إليها، ويكون استمرارها إلى جانبه قضيّة يحارب من أجلها، بعدما غيَّرت من عاداته وتقاليده وأفكاره السلفيّة، وتكون المثال الحيّ الخالد للأنثى الرياديّة التي تبعث الحياة بالموت، تقدِّم نفسها فداءً لقضيّة تسعى إلى تحقيقها، وتكون نموذجًا آخر عن شهرزاد التي خلقت شهريار من جديد، عندما نشرت في أفق حياته الحاجة الزوجيّة لوجودها، وغيّرت من المفهوم الخاطئ عن المرأة، فهي ليست جسدًا، إنّما الأداة الفاعلة في حياة الرجل والكمون الحقيقيّ في دفعه نحو ذاته الإنسانيّة الحقيقيّة:

وكأنّي شهرزاد الحبّ عادت في الخفاء
لتردّ الملل القاتل عن سيّدها طول المساء[18]

المرأة الخالقة في رأي ـ السعاد ـ تسير إلى الأمام، ولا تنظر إلى الماضي إلاّ لأخذ العِظَة، تتحدّى الصعاب ماضيةً نحو الهدف متجاهلةً أهل الحكم والشريعة، والتجّار، وسارقي الفكر. وتتسلّح بأصالتها وحدسها، وحذرها لتبقى العين الساهرة على تحقيق قضيّتها والوصول إلى أهدافها العظيمة، فتحول الأنثى بقدراتها الكرة الأرضيّة إلى كتلة موحدة بالفكر، فالذي لم يتحقّق بالقوّة المادّيّة

(١٧) امرأة بلا سواحل، صفحة ١٤٩
(١٨) أمنية، صفحة ٩٦

يحقّقه العمل الفكريّ الدؤوب؛ لأنّ البقاء والخلود والحياة الحقيقيّة للكلمة.

والأنثى هي الأكثر قدرةً على ولادة الكلمة المؤثّرة الفاعلة؛ إنّ الجواد الأصيل مهما وضعوا اللجام في فمه فصهيله لن يتوقف، والمرأة الأصيلة القادرة تبقى في حالة تهيّؤ واستعداد لمجابهة أيّ لجم للحركة أو الفكر، فإن سكت الصوت منها تسجّل الكلمة، والكلمة هي الأساس:

سوف أبقى أصهل
مثل مهرة فوق أوراقي...
حتى أقضم الكرة الأرضيّة بأسناني[١٩]

إنّ مهمّة المرأة الرياديّة عظيمة جدًا، إنّها مطالبة بهدم الحصون الماديّة والنفسيّة والفكريّة، وتحطيم القيود، وتجاوز الواقع، وتحرّر الفكر من سلفيّته، لتلغي التمييز العنصريّ والجنسيّ؛ لأنّ لحمة الكون المعنويّة، وتشكيل كيان الإنسان الموحّد بالإلفة والمساواة والتسامح والمحبّة، لن يكونا إلاّ بالتعالي على التفريق بين العنصر ونوعه.

وترى الأديبة أنّ وجود التفرقة بين الأجناس البشريّة، وخاصّة بين الرجل والمرأة، أشبه بجدارٍ خرافيّ بين وجهين لحقيقة واحدة، وبين تشابك العناصر واتّحادها وبين السبب والمسبّب، وتتساءل بأسلوب استنكاريّ إذا كان من الممكن إقامة هذا الجدار الخرافيّ بين الحقول وبين الشجر، أو بين الغيوم والمطر.

إنّه طرحٌ فلسفيّ علميّ تتسلّح به أنثى الصباح لتعلن تمرّدها على التفريق بين

(١٩) قصائد حب، صفحة ٢٨.

الأنثى وبين الذكر، وهذا الطرح تخلص نتائجه إلى إثبات دورها الثقافيّ والفكريّ في ميادين الحياة كلّها، متّخذةً من الطبيعة المثال والقدوة.

ومن قال: للشعر جنس؟
وللنثر جنس؟
وللفكر جنس؟
ومن قال إنّ الطبيعة
ترفض صوت الطيور الجميلة؟[٢٠]

بهذه الرؤيا تسعى إلى تأسيس مجتمع سليم، عنصراه المرأة والرجل، تحطّم فيه العوائق في لحظة المكاشفة والتعبير والدعوة، شريطة ألاّ تتراجع المرأة عن قرار المسير المتميّز بالإباء والكرامة والكبرياء؛ لأنّ التغاضي عن المفهوم الجوهريّ لمساواة المرأة والرجل يفقد المعادلة صحّتها، وتأتي النتائج غير سليمة، ولذلك كانت المرأة مطالبة بشكلٍ دائم بإثبات شرعيّة نضالها بنفي الوجود السلبيّ، وبنفي النفي تولد فاعليّة الإيجاب؛ وبهما يتجسّد حقّ الحياة:

لا... لن نذلّ، ولن نهون، ولن نفرّط في الإباء
لقد انتهى عصر الحريم وجاء عصر الكبرياء...
وجلالنا حقّ الحياة، فكلّنا فيه سواء...[٢١].

إنّ المرأة الخالقة المجسّدة في مسيرة سعاد الصباح تحيا في الحياة لا في إرثيّة

(٢٠) فتافيت امرأة، صفحة ١٧.
(٢١) أمنية، صفحة ٣٦.

متكرّرة، تعشق الحركة، وبفعلها اللانهائيّ تمثّل السعة والشموليّة والانتماء إلى إنسانيّة مطلقة، فلا تقابل الحقد بالحقد، والظلم بالظلم؛ لأنّ قضيّتها هي الإنسان ذكرًا وأنثى، فتجّسد فكرتها على الأرض بالعمل لتنشئ مع الرجل كونًا إنسانيًّا حقيقيًّا، فانتماؤها إلى الرجل وانتماء الرجل إليها ضرورة حتميّة، فلا عاصمة من دون وطن، والوطن يحتاج إلى مركز وعاصمة، فهي لا تلغي دور الرجل، فالعاصمة هي مركز الحركة والتجاذبات، والمرأة هي التي تخلق الرجل العظيم وتدفع به إلى الحركة والنشاط، وفي وصوله فعل للأنثى، وفي احتوائها له الطمأنينة والهدوء. فالعلاقة حتميّة متكافئة، حميمية، باعثةٌ، فلا أنثى خالقة من دون رجل خالق، ولا مطر من دون غيوم، إنّ هذه العلاقة تمثّل التجسّد الإنسانيّ في أعظم تجلّياته.

أعدك أن أكون وطنك
فعدني أن تكون عاصمتي
أعدك أن أكون سفينة أحلامك...
فعدني أن أكون آخر مرافئك...
وعدتك أن أكون غيمتك
فعدني أن تكون مطري[٢٢]...

ومن منطلق هذه العلاقة الحتميّة السببيّة المتشابكة تدعو الشاعرة المرأة الخالقة لتبقى إلى جانب الرجل متكاملي الدور، فهي رحم ولادتيه الأولى والثانية، ولذلك

(٢٢) في البدء كانت الانثى؛ صفحة٦٧

تعيش مع الرجل علاقة تكافؤ وتكامل وتساند وتعاضد. وهذه الرؤيا في العلاقة الإنسانيّة اكتسبتها من شراكتها الزوجيّة مع الشيخ عبد الله مبارك - رحمه الله - فاستمدت منها قوّة نفسيّة وفكريّة جسّدتها قولاً وعملاً في الحياة.

كانت نظرته السامية إليها وتقديره لطاقاتها يجعلانه يشركها في مجالسه الخاصّة، تقول في «صقر الخليج»: «كان دائمًا يشاركني في مجالسه ويخصّص لي مكانًا في ديوانيّته ويستمع إلى آرائي وأفكاري بكلّ احترام وديمقراطيّة»[٢٣].

هذا الموقف الرجوليّ الحقيقيّ من أبي مبارك جعل السعاد تنادي بديمقراطيّة حقيقيّة في المجتمع، ديمقراطيّة مختلفة مغايرة، فهي شعارات ومبانٍ، وموظّفون، ومؤسّسات حيّة، وبنى حقوقيّة، وإجراءات تضمن حرّيّة الرأي والتحكّم بالمصير. ولكنْ لا حظَّ للمرأة العربيّة، ولا موقع لها من هذه الديمقراطيّة، فهي ليست من أفراد هذه الأسرة الدوليّة،ولأنّ حرّيّة الأنثى تترجم خيانة، وكلامها في الحبّ زندقة، فقد دعت إلى ديمقراطيّة تمنح الأنثى حقّ الحياة والتعبير؛ تقول:

ليست الديمقراطيّة
أن يقول الرجل رأيه في السياسة
دون أن يعترضه أحد
الديمقراطيّة أن تقول المرأة
رأيها في الحبّ
دون أن يقتلها أحد[٢٤].

(٢٣) صقر الخليج، صفحة ٢٧٤.
(٢٤) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٥١.

وهذه الحياة الزوجيّة المبنيّة على الاحترام والتكافؤ وليدة رؤيا إنسانيّة متكافئة، تميّز بها الشيخ عبد الله «لقد قدّر الشيخ المرأة كقيمة وكإنسانة، وتحوّلت عنده إلى رفيق درب، ووسام حياة يتباهى به ويزهو بشموخ الكبار الواثقين بالذات»[٢٥].

إنّ نَفَسَ العظام يترك أثره الطيّب في الأرض الخصبة، فتعطي ثمارًا طيّبة توزّع على المجتمع. ومن هذا المنطلق دعت الشّاعرةُ الرجل العربيّ إلى التعامل مع المرأة كشريك، والنظر إليها كفكر يساعد على التحليل، وكعصفورة تمثّل له الجمال والرفعة والحرّيّة، والتحليق في فضاء قدراتها، فهي الأمن والسلامة والإيمان والاطمئنان، وخلاصه النفسيّ في الإصغاء إلى صوت الحنين الدافئ والصادق في أعماق تعبُّد المرأة وتنسُّكها، فيكونان معًا آدم وحوّاء وتكون الغطاء والملجأ

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٢٦]

أنا قصيدتك المكتوبة بحبر الأنوثة
أنا عصفورتك
أنا جزيرتك
أنا كنيستك
فاسمع أجراس حنيني
واطرق الباب عليّ في أيّ وقت تريد
وعلّق على أهدابي
أحزانك[٢٧]

(٢٥) صقر الخليج، صفحة ٢٧٤.
(٢٦) سورة البقرة، الآية ١٨٧.
(٢٧) فتافيت امرأة، صفحة ٥٧.

وهذه العلاقة الجديدة المبنيّة على المشاركة تتطلّب وجود الرجل الرياديّ الخالق الذي يقدّر في المرأة فكرها، ويحترم آراءها، ويطل النظرة الماديّة إليها من وراء نقاب الشهوات، فلا يرى إلاّ الشكل، فصرخت من أعماق أنوثتها محرّضةً المجتمع الذكوريّ على واقعه ليلغي فتونه بالجمال الشكليّ، ويركّز على العقل والمنطق:

فلماذا - أيّها الشرقيّ - تهتمّ بشكلي؟
ولماذا تبصر الكحل بعيني
ولا تبصر عقلي
أنّني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار[٢٨].

جسّدت الصباح في صرختها نساء الشرق الرائدات، فمنهنّ يبدأ العطاء، وفيهنّ تفنى الأجساد، ولكن لا قيمة للأرض التي لا تعطي، والأرض لا تعطي إن لم تروَ بالماء، وماء الحياة بالنسبة إلى الأنثى الحوار.

والرجل الرياديّ القائد له ميزات استمدّتها من صورة الرجل المثال، والزوج الذي شاركها نجاحها وتقدّمها «إذا كان بعض الرجال يشعر بالخجل والغيرة أمام المرأة المثقّفة أو المتعلّمة أو المتكلّمة، فإنّ أبا مبارك كان يعتزّ بأيّ نشاط ثقافيّ أقوم به، وبأيّ كتاب يصدر لي، وبأيّ مؤتمر أشارك في أعماله»[٢٩].

فالرجل الخالق معجزة، يساعد المرأة على تخطّي الذات وصقل الجوهر المتأصّل في إنسانيّتها

لا أحد يعرف معجزاتك
أيّها الرجل الذي حوّلني في ثوانٍ

---

(٢٨) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٨.
(٢٩) صقر الخليج: صفحة ٢٧٤

إلى قطعة شمسٍ
وسبكة ذهب[٣٠].

فهو وطن المرأة وامتداد أحلامها، وعمق وجودها المتجدّد، يمنح مشاعرها حبًّا صوفيًّا، تتحطّم على شطآن ولادتها الجديدة أمواج الثورة، ليموكب كلماتها انسيابًا عاطفيًّا، مترقرقًا إيقاعًا موسيقيًّا داخليًّا وخارجيًّا، هادئًا ينبلج من بين يديه كونًا وولادة وحركةً واحتواءً وتمرّدًا.

من إسمك تبدأ جغرافية المكان
ومن عينيك تأخذ البحار ألوانها

ومن ثغرك يولد الليل والنهار
ومن إيقاعات صوتك
أُولد أنا[٣١].

والرجل الخالق صديق، يخلص في معاملته للمرأة كروحٍ وفكر، ويتحرّر من ذاكرته التراكميّة الغباريّة، فلا ينظر إلى المرأة كتمثال رخاميّ جميل، بل يساعدها لتخرج على واقعها المؤلم، ويكون مرفأ أمان، وطمأنينة وحبّ وحنان، ولا يشغلها بعواطف ينطفئ وهجها بالقبل:

(...)
إنّ كلّ امرأة تحتاج أحيانًا إلى كفّ صديق

(٣٠) فتافيت امرأة، صفحة ١٠٦.
(٣١) فتافيت امرأة، صفحة ٨٤.

وكلام طيّب تسمعه

وإلى خيمة دفء صنعت من كلمات

لا إلى عاصفة من قبلات[٣٢].

من هذه الرؤيا يكون الرجل الغطاء العاطفيّ وسهم المستقبل، والأنثى ملجأ وملاذًا، وخميرة يقظة وطريقًا نحو لانهاية الفعل الحركيّ، فتعبّر المرأة عن عواطفها وحبّها الذي يولّد المعجزات، وتشعر بالسعادة والحرّيّة، وتعانق بكبريائها السماء، فيمجّدان معًا الحبّ، ويقدّسان الزواج؛ لأنّ فيه الأمن والسلام والطمأنينة، فالرجل هو غطاء المرأة العاطفيّ والروحيّ:

نعمة أن تشعر الأنثى بإنسان يغطّيها

ويحميها... ويعطيها مفاتيح الغيوب[٣٣]

إنّ الرجل الخالق قادرٌ على زلزلة السكون الأنثويّ الفكريّ، واقتلاع الموّرثات السلبيّة واختراق حصون العادات والتقاليد التي سوَّرت نفسها عبر مرحلة الاستعباد.

وهذا الاختراق يفكّك ما تراكم من عقد نفسيّة، ويعيد تركيبها المعنويّ؛ لتكون قادرةً على السير الأماميّ وحيدة.

والرحيل هنا يحمل معنيين، الأوّل: سلبيّ ولّده الخوف من البقاء وما يترتّب عليه من تضييق اجتماعيّ، والثاني: إيجابيّ، يشير إلى قدرة المرأة على السير واللّحاق بالرجل لترحل معه وإليه في رحلة الحياة.

(٣٢) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٧.
(٣٣) في البدء كانت الأنثى، صفحة ٣٣.

رأت الشاعرة أنّ الرجل الخالق والمرأة الخالقة يشتركان في قوّة الابتكار، ورمزت إلى هذه الخاصّيّة عند كلٍّ منهما بكلمة «العطر»:

يمرّ عطرك في مخيّلتي
كسيف من المعدن
يخترق الجدران... والستائر
يخترقني
يبعثر أجزاء الزمن
يبعثرني
وتتركني أمشي حافية على زجاج المرايا
وترحل[٣٤]...

والرجل الخالق معجزة المرأة، وبوجوده تزدهر ذات الأمّة بعصرٍ ذهبيّ، لأنّه بتفهّمه وطاقاته غير المستعبدة يستطيع أن يكتشف حقيقة المرأة، ويحفّز في نفسها قوّة الابتكار، وعندما تستطيع المرأة اكتشاف ذاتها بمساعدة الرجل يقوى كيان الأمّة، ويتجوهر العطر في ذاتها. وهذا الرجل ترى فيه الصباح صلة الأصل ما بين «الأنا» و«الأنا» النسائيّة الخالقة، فتناديه «يا الذي»، وتصفه بالتفرّد والاستباق.

يا الذي اكتشفت أنوثتي قبل أن أكتشفها
واخترعتني
قبل اختراع النار والشعر[٣٥]

(٣٤) فتافيت امرأة، صفحة ١٠١.
(٣٥) فتافيت امرأة، ١٠٥.

والرجل الخالق «مجنون» في عرف المجتمع كالأنثى الخالقة «المجنونة» لأنّ كلاًّ منهما يتمرّد على الأعراف غير مكترثٍ بالقوانين والتقاليد البالية، إنّه جنون العباقرة الذين يتجرّدون من الاهتمام بالتفاهات، ويلبّون نداء الغيب حيث يتلقّون المعرفة، وبالمعرفة تتسامى ذواتهم عن ماديّات المجتمع واعتباراته السخيفة.

ولكنّني لم أعرف مجنونًا أعقل منك
ولا عاقلاً
أكثر منك جنونًا(٣٦).

هذا الرجل الخالق لا يكتفي باكتشاف المرأة ودعوتها إلى التمرّد، إنّه الرفيق الذي يملأ الفراغ الروحيّ في نفسها بالحقيقة والمغامرة الواعدة، وبالحرّيّة الحقيقيّة المستقبليّة.

أيّ رجلٍ أنت يا سيّدي
(...)
فبعد كلّ يومٍ أقضيه معك
أعود... وأنا ممتلئة بالشمس
ومضرّجة بالبروق
وفي عيني تركض خيول الحرّيّة(٣٧).

هذه رغبة الصباح في ولادة مجتمع عنصراه امرأة استثنائيّة ورجل استثنائيّ؛

(٣٦) فتافيت امرأة، صفحة ١٠٩.
(٣٧) في البدء كانت الأنثى، صفحة ١١٩.

يتكاتفان ويتكاملان، يفجّر كلّ منهما في الآخر القدرات الكامنة ويحفّز أحدهما الآخر على الترقّي اللامحدود، ويبلغان درجة من التسامي يصعب أن تحدّ بكلمة أو وصف، فيكون التكامل بينهما أفصح من الكلام:

لم أجد... يا حبيبي

(...)

كلمة... تستطيع أن تقولني

أو مفردة... تستطيع أن تقولك[٣٨].

وفي تواجد هذا الثنائيّ الخالق يحصل التفاهم الروحيّ، وتكون المرأة أداة المعجزة التي أراد الرجل الخالق حدوثها، والواسطة بين الرجل الخالق والمرأة الخالقة يدا الرجل القويّتان.

تركّز الشاعرة في قصائدها على هذه العلاقة الوجدانيّة الروحيّة بين المرأة والرجل، وتعطي رموزًا وصورًا متعدّدة لهاتين اليدين، ففي إحدى الصور تعتبرهما ساحلاً من الرمل تأوي إليهما عندما تضربها عواصف الحياة، فتشعر بالأمن والاطمئنان باللجوء إليهما.

وتبالغ السعاد في تصوير أهمّيّة اليدين، فتشبّههما بالنخيل الذي أكلت منه السيّدة مريم العذراء يوم ولدت السيّد المسيح (عليه السلام)، حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[٣٩]

---

(٣٨) فتافيت امرأة، صفحة ١١١.

(٣٩) سورة مريم، آية ٢٥.

ويدا الرجل الاستثنائيّ تلجأ إليهما أنثى الصباح في لحظة المخاض والولادة، فيأتيها الوحي الفكريّ والغذاء المعرفيّ الإلهيّ.

إنّ يدي الرجل في شعر السعاد ترمزان إلى إيمانها بالحركة الفاعلة، وبالحركة تكون الحياة:

يداك

هما الساحل الرمليّ الذي أتمدّد عليه

عندما تضربني العاصفة

وهما النخلتان اللتان أهزّهما

عندما يأتيني المخاض

فتتساقطان عليّ رطبًا جنيًّا[٤٠]

هذا هو الرجل الذي تريده الأنثى الشاعرة، وتثبت تمرّدها وقدرتها معه على الخروج والتجاوز والتخطّي، إنّه المثال الذي سعت إليه بعيدًا عن مقرّرات القبيلة والآراء المتوارثة، والأفكار الإجراميّة، إنّه الهدف.

يا سيّدي

أنت الذي أريد...

لا ما تريد تغلب ووائل

أنت الذي أحبّه

ولا يهمّ مطلقًا

(٤٠) قصائد حب، صفحة ١٠٤.

إن حلّلوا سفك دمي
واعتبروني امرأة
خارجة عن سنّة الأوائل[٤١].

إنّ الوجود العقليّ المؤسّس على التكامل والاحترام والإرادة يولّد علاقة إنسانيّة حقيقيّة قوامها الشجاعة والقوّة، والحبّ ذو البعد الإنسانيّ الشموليّ الكونيّ، يرتفع بهما عنصرا الحياة معه فوق الزمان، والمكان، بحرّيّة مسلّحة بفكر إنسانيّ، يلغي الحدود، وينزع الحاجة إلى جواز سفر لتحكم لغة التفاهم والتخاطب بين الأنا والآخر:

حين أكون بحالة عشق
أشعر أنّ العالم أضحى وطني
وبإمكاني أن أجتاز البحر،
وأعبر آلاف الأنهار
وبإمكاني ...
أن أتنقّل دون جواز
كالكلمات ... وكالأفكار[٤١]...

لقد اخترقت سعاد الصباح بصورها حصون الماضي، واقتحمت عرفًا أشبه بمحميّة يصعب الاقتراب منها أو التصدّي لها، فبدا المجتمع العربيّ في شعرها بكلّ سلبيّاته ومساوئه وأمراضه، إنّه يعيش حالة من الركود والسكون، وإنسانه ذو

---

(٤١) امرأة بلا سواحل، صفحة ٩٧.
(٤٢) القصيدة أنثى، صفحة ٦٥.

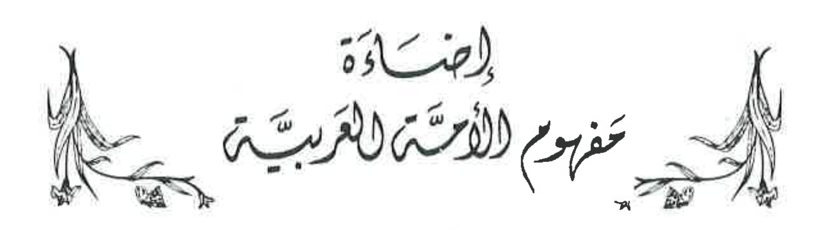
بعد واحد يمارس وجوده مراوحًا في مكانه، فلا تغيير ولا تعاقب في دورة حياته الفصليّة بل سكون عيش، وراحة فكر، وهذه علامات الإصابة بالإغماء الإرادي، ليستسلم إلى هروبه من ديناميكيّة العقل، وتفاعلاته، وانصهاره مع الوجود والكون. إنّه خيار الشعوب البليدة المستكينة إلى قرارها بحرّيّة مزعومة.

تحوّلت المرأة بشعرها وبنظرتها ذات البُعْد الاجتماعيّ من كائن مشلول ألغيت فاعليّته إلى عالم يضجّ بالحياة لتصير عنصر تحويل وخلق لحركة الولادة الأبديّة للحياة في رحم الكون، وصار الرجل إلهًا مشاركًا المرأة في عمليّة الخلق المعنيّة من أجل تأسيس مجتمع إنسانيّ كونيّ شامل مبنيّ على التفاهم، والإلفة والمحبّة والمساواة والتسامح.



الفصل الثاني

القومية العربية بين الواقع وحلم الصباح



قبل الكلام على تحديد معنى الأمّة و القوميّة، في مدلولهما الاجتماعيّ سنبحث في أصل كلّ من هاتين الكلمتين.

جاء في لسان العرب[1] أنّ كلمة أمّة تعني الجماعة و أمّة الرجل قومه، و لقد ورد في القرآن الكريم كلمة أمّة بمعنى الجماعة في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2]

أمّا كلمة قوميّة فهي منسوبة إلى كلمة «قوم» و تعني[3] : الجماعة من الرجال و النساء. و قوم كلّ رجل شيعته و عشيرته، و لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة بمعنى الجماعة نذكر منها:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[4] ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5]

(١) لسان العرب المحيط، دار لسان العرب، خياط مرعشلي الجزء الأوّل صفحة ١٠٢ – ١٠٣.
(٢) سورة النحل، آية ٣٦.
(٣) لسان العرب المحيط، الجزء الثالث، صفحة ١٩٥.
(٤) سورة المائدة، آية ٦٧.
(٥) سورة المؤمنون آية ٩٤.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾[٦]

ممّا سبق يمكننا القول إنّ الدلالة المعجميّة و الدينيّة لكلمة أمّة او كلمة «قوم» تعني الجماعة الموجودة في مكانٍ واحد، ولأفرادها صفات و خصائص مشتركة، فالله سبحانه يبعث لكلّ أمّة متجانسة في صفات و خصائص محددة رسولاً ليهديهم، والله جلّ وعلا لا يهدي المجموعة المتّصفة بالكفر، وبلقيس كانت تنتمي إلى مجموعة من الكافرين.

أمّا المعنى المتداول لكلّ من هاتين اللفظتين بين علماء الاجتماع، فقد كان مختلفًا و وضعت دراسات كثيرة تتناول مفهوم كلمات وطن، دولة، أمّة، قوميّة[٧].

لقد مال بعضهم إلى الاعتقاد أنّ وجود الأمّة ناتج عن وجود جامعة بين الناس تربط بينهم، ويجتمعون باسمها بعضهم حول بعض : "الأمّة جملة من الناس تجمعهم جامعة، و هي بحسب الاستقراء : اللسان والمكان و الدين"[٨].

ولقد تكلّم ساطع الحصريّ على القوميّة ورأى أنّ اللغة والتاريخ من أهمّ العوامل التي تشكل قوميّة ما : "إنّ أهمّ العوامل التي تولّد في النفوس رغبة الاتّحاد فتؤدّي إلى تكوين القوميّة و تأليف الأمّة إنّما وحدة اللغة و التاريخ[٩] ".

ولم تكن هذه الآراء واحدة في الدراسات الاجتماعيّة، و لكن يمكننا ملاحظة نوع من الاتّفاق غير الكامل على مدلول كلمة أمّة التي كانت في رأي البعض

(٦) سورة النمل، آية ٤٣.
(٧) لقد تناول الدكتور ناصيف نصّار في كتابه "تصورات الأمة المعاصرة" آراء الكثيرين من علماء الاجتماع في رؤيتهم الخاصة في معاني كلمة وطن أو دولة – أمة – قومية ... الطبعة الثانية – دار أمواج للطباعة والنشر ١٩٩٤ كذلك تناول الدكتور زين نور الدين زين في كتابه "نشوء القومية العربية"، الصادر عن دار النهار بيروت عام ١٩٦٨، موضوع القومية العربية.
(٨) حسين المرصفي، رسالة الكلم الثمان، طبعة جديدة، دار الطباعة، بيروت ١٩٨٢.
(٩) ساطع الحصري آراء وابحاث في الوطنية والقومية صفحة ٩٠.

تزاوج مجموعة من الناس مع بقعة أرضيّة معيّنة يعيشون عليها فيكيّفونها ويتكيّفون بها ومعها بتفاعل تحتّمه الظروف البيئيّة و المناخيّة، تطبع سكّانها بطبائع معيّنة تصير مع مرور الزمن خصائص ذاتيّة، يمكن اعتبارها مكوّنة من اللغة والدين والعرق.

أمّا القوميّة فهناك من ذهب إلى اعتبارها الرابطة التي تحلّ محلّ العصبيّة القبليّة في مرحلة البداوة، ومنهم من اعتبرها الارتباط العاطفيّ بالأرض التي تكوّنت منها الأمّة بتفاعلها مع الجماعة التي تعيش عليها، ولذلك يمكننا اعتبار القوميّة وعي الأمّة لذاتها.

ولقد عرّف جبران الأمّة بقوله : الأمّة مجموعة أفراد متبايني الأخلاق والمشارب والآراء تضمّهم رابطة معنويّة أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعمّ من الارآء(..) وهذه الرابطة ليست من الأمور المحسوسة «لأنّ لكلّ شعب ذاتًا عامّة، تشابه بجوهرها و طبيعتها ذات الفرد، ومع أنّ هذه الذات العامّة تستمدّ كيانها من أفراد الشعب، وله حياة خاصّة، وإرادة منفردة ومن الصعب تحديد الزمن الذي تولد فيه ذات الأمّة[١٠]».

إنّ علاقة الأمّة بأفرادها علاقة تأثّر و تأثير، و لكنّها ليست تكامليّة شرطيّة، إنّها علاقة وجود و استقلال، فذات الأمّة المستمدّة من ذات الأفراد مستقلّة بخصائصها عنهم كالشجرة التي تستمدّ حياتها من الماء و التراب و النور والحرارة، ولكنّها مستقلّة بخصائصها و طبيعتها عن مقوّمات وجودها، فذات الأمّة من ذات أفرادها، و لكن لها حياة خاصّة و إرادة منفردة، و كيان تامّ يجمع الكلّ و يستقلّ عن المجموع، إنّه التشابه و التماثل و ليس التطابق.

إنّ وجود الأمّة مرتبط بتمايز ذاتها المنبثقة من تمايز ذات أفرادها، و هذا التمايز

---

(١٠)جبران، المجموعة الكاملة العربية، العواصف، صفحة ٤٣١

يشكّل الوحدة الروحيّة التي ترفض التأثّر بالفوارق العرضيّة الزائفة، و القوميّة هي التوق الروحي إلى الاتحاد، فتحقّق إمكانيّة الفرد و الجماعة في وحدةٍ واقعيّة صحيحة تفصح عن ذاتها.

ممّا سبق يمكننا القول إنّ المدلول الجوهريّ الحقيقيّ لكلّ من الكلمتين «أمّة» و«قوميّة» واحد، فحيث كانت أمّة واحدة تنزع إلى تثبيت ذاتها بوحدة روحيّة، كان لا بدّ من وجود قوميّة تشكّل التوق الروحيّ إلى هذه الوحدة. و بالتالي كان شعار القوميّة العربيّة حقيقة اجتماعيّة حياتيّة مصيريّة، فلا وجود لأمّتنا العربيّة من دون تفعيل الروح القوميّة التي تختزل الشعور العربيّ بالانتماء إلى أمّةٍ واحدة، تجمع بين أبناء العروبة بروابط طبيعيّة تهدف إلى ولادة الإنسان العربيّ الجديد الذي يعتزّ بانتمائه و يفاخر به.

لقد كانت ولادة هذا الإنسان العربيّ المتمسّك بأصالته و انتمائه هاجسًا في شعر السعاد التي أوجدت في شعرها حلم الولادة الجديدة.

ظهر المفهوم القوميّ العربيّ في شعرها و كتاباتها، بشكلٍ علميّ منطقيّ، فلم تعلن انتمائها إلى الأشكال المهترئة التي تسيء إلى مفهوم القوميّة و حقيقة دورها النهضويّ، بل كانت كالطبيب الذي يبسط أمامه الحالة المرضيّة، يشرّحها و يظهر الأسباب التي أدّت إلى الخلل و الاضطراب ثمّ يعمد إلى التخلّص بالأدوية الناجعة من العلل و العوائق، ليستطيع المريض أن يقطف حلم الشفاء.

لقد ركّزت في شعرها القوميّ على وصف الواقع العربيّ المهترئ داعيةً إلى تقويض الأشكال المتهدّمة و المهدّدة بالسقوط، من أجل بناء أسس الأمّة العربيّة الحلم الحقيقة.





١ - الإنهيار العربيّ

المثقّف العربيّ يعاني القلق في واقعٍ صعب ومعقّد، ومهمّته الثقافيّة تدفعه إلى موقف جريء وواضح من قضيّة إنسان بلاده، قبل أن تنطلق رؤاه نحو عالم إنسانيّ شامل.

والمواجهة تملي عليه ردم الهوّة بين حلمه العربيّ الفاعل، والواقع المأساويّ الراهن.

بهذه المعادلة ترصد الصباح المعطيات الخيميائيّة غير القابلة للتفاعل فتلمس التضادّ والتناقض، والتباعد المعنويّ، بين ماضٍ عريق سجّل على صفحات التاريخ أعظم ملاحم حضاريّة، وظرف مهيمن مشحون بالاضطرابات والانقسامات. فتفجّر الحلم هدمًا لمظاهر الانحطاط في حياتنا، وأنفسنا، وآمالنا لترفق ذلك بدعوة إلى إزالة ما يعيق قيام أمّة نهضويّة عربيّة واعدة.

ترى السعاد أنّ الإنسان العربيّ مشدود بين قطبين بالقوّة عينها : الاستسلام للراهن، والرغبة في الخلاص، فلا يكفّ عن الحركة لينجو من تمزّقه النفسيّ الذي يهدّده بفقدان إحداثيّات انتمائه، ومستويات تفاعله.

إنّ الشفاء من أوجاع التشرذم، والتنافر، لن يكون إلاّ بالنظر العقليّ إلى الوقائع والمظاهر والعوارض واستنساب الإيجابيّات والسلبيّات، في مجتمع محبط ثقافيًّا واقتصاديًّا، وسياسيًّا، واجتماعيًّا.

إنّ الواقع العربيّ الراهن محكومٌ بالتجزئة النفسيّة التي أوجدها الاستعمار بنوعيه الداخليّ والخارجيّ، وهذا التمزُّق يزداد رسوخًا، ويعيد مستوى الوحدة الوطنيّة إلى مستوى التعاطي القبليّ أوالعشائريّ فيعاني الفرد العربيّ ضغطًا نفسيًّا وقمعا فكريًّا يتوصّل معه إلى قبول التسوية مع واقعه، وهذه التسوية تدفع به إلى إلهاء نفسه بمهاترات يوميّة لا شأن لها بالوطن ولا بقضاياه وكرامته.

فالواقع الثقافيّ اليوم مفرَّغ فكريًّا، وقد استعيض عن هذا الفراغ بمناظرات كلاميّة جوفاء في الصرف والنحو، تغلِّف فراغها الوشايات التافهة التي تملأ الوقت بالقشور وتسرق الجوهر، وبالخلافات في أمور الحداثة والشعر العاموديّ والآراء الفلسفيّة، من دون الالتفات إلى دور المثقّفين الفاعل الحقيقيّ ؛ ولعلّ الأمر الأكثر إلهاءً للشعوب العربيّة الاختلاف على الأديان، وتحويل الطقس الدينيّ إلى صنميّة يوميّة مع تجاهل انعدام العدالة المجتمعيّة، علمًا أنّ الأنبياء كلّهم نادوا بالعدالة.

بذلك صارت الشعوب العربيّة تعبد القشور وتهمل المعنى، فازدادت الخصومات العربيّة نتيجة الاستزلام «للخلفاء» بدل البحث عن قضيّة الإنسان في بلادنا.

يا زمان الصرف، والنحو، شبعنا عبثًا
وكلامًا فارغا..
ووشايات نساء..
أعطني سيفا..
وخذ منّي دواوين جميع الشعراء
أعطني عدلا..
وخذ منّي تعاليم جميع الأنبياء
أعطني خبزا..

فما يشبعني خبز السماء

أعطني الشعب..

وخذ تيجان كلّ الخلفاء[1].

قدّمت الشاعرة وصفًا دقيقًا، وحقيقيًّا ومعبّرًا عن الإنسان العربيّ المستسلم إلى عجزه وفشله والمطمئنّ إلى سقوطه، هذا الوصف يعكس في حقيقته وجوانبه ارتباطها الوجدانيّ العميق بالقضايا القوميّة الكبرى واحترامها لإنسان بلادها، هذا الإنسان الذي توارث جوهر أخلاقيّاته ولكنّه أخفى الجوهر بقشور سطحيّة أفقدته فاعليّته كإنسان عليه دورٌ إيجابيّ نحو وطنه. فكان وصفها للعرب وصفًا علميًّا معرفيًّا مبنيًّا على الاحترام والصدق من دون تغليف.

تقدّم الصباح وصفها الوجدانيّ العقليّ لأبناء قومها، من خلال انتمائها إلى هذه المجموعة العربيّة التي تحبّ ولكنّها ترغب في واقعٍ أفضل لها ؛ ولا يعني وصف الحقيقة نيلاً للموصوف بل من باب "من أحبّ أظهر العيوب للخلاص منها " :

"نحن العرب، طيّبون، وبسطاء، ومقتلنا يكمن في أنّنا نعشق الفصاحة"[2].

إنّ المحبّة الصادقة لا تخفي الحقائق، بل تعرّيها، وتكشف عن مكامن الضعف، للتخلّص منها وإلغاء مسبّباتها، وبهذه المحبّة عينها رأت السعاد أنّ الجماعة العربيّة تقيم في الماضي، وتحيا بأفكاره البالية، وتقاليده المهترئة، تلبس أشكالاً خيّطت لزمن غير زمانها، فسيطر عليها الموروث، وكرّرت ذاتها في لحظات زمنيّة متتالية، فخسرت حاضرها، وتركت بنيانها فوق اضطرابات أشبه برمال متحرّكة، مما أوجد إحباطًا قوميًّا، وإفلاسًا روحيًّا، وقحطًا نفسيًّا، فجاء وصفها

(١) فتافيت امرأة، صفحة ١٥٦.

(٢) هل تسمحون لي بأن أحب وطني: صفحة ١٧٦.

لهذا الواقع مسبوقًا بالتساؤل الكيفيّ الذاتيّ الذي يعبّر عن النزف الداخليّ في نفس المبدعين في الوطن العربيّ، هؤلاء الراغبين في حركة تخترق الحاضر نحو المستقبل، ولكن كيف تسير المجتمعات إلى الأمام بنَفَسٍ مصابٍ بالإحباط ؟

يا أحبابي
كيف بوسعي
أن أتجاوز هذا الإفلاس الروحيّ
وهذا الإحباط القوميّ
وهذا القحط... وهذا الجدب ؟[٣]

عبّرت الأديبة عن قلقها ووجعها القوميّ، وخوفها من نتائج الكذب والتشرذم، والاتّجار بالأوطان، بتصوير الواقع بكلّ مآسيه وأوجاعه وأمراضه، فالمجتمعات العربيّة تعاني التخلّف. والإنسان العربيّ استسلم إلى شبقه الاستهلاكي، هاربًا من قيمه وتاريخه وعلومه الدينيّة الأصيلة، ومارس وجوده في مكان واحد لا يتخطّاه، هاجسه البحث عن وسيلة يضمن بها المكان ويبقى فيه، فالتغيير ليس من صلاحيّاته، إنّه حكرٌ على السلطة المدنيّة التي تستخدمه وسيلة إلهاء، في أمّة تتناول الشكل، وتقمع الجوهر، حيث يسيطر التخلّف والجهل وتتحكّم في العقول فكرة البحث عن الوفر الماديّ والربح، وتنسى الأصالة والقيم العربيّة الأصيلة، فالأخ يقتل أخاه طمعًا بالكسب، والمدنيّة الجديدة تخلّت عن حضارة الفكر والنضال والوحدة وصار الدين فيها طقسًا شكليًّا بعيدًا عن المنبع.

هذا الحزن النفسيّ والانهزام القوميّ يهدّد المبدعين بالهروب من الواقع المشحون قهرًا إلى فضاء من الحرّيّة.

---

(٣) خذني الى حدود الشمس: صفحة ١٢٢

في واقعٍ أنكر ذاته كانت بيروت بالنسبة إلى سعاد الصباح المتنفّس القوميّ والفضاء الفكريّ الواسع الذي يمنحها حرّيّة التعبير وتفريغ القلق.

آتي إليك اليوم، يا بيروت
هاربة من قلقي النفسيّ...
(...)
آتي من التخلّف الكبير...
(...)
آتي إليك من ثقافة الشراء... والبيع
(...)
هاربة من مدن قد أحرقت تاريخها
وطلّقت مبادئ العروبة
وطلّقت مبادئ الإسلام(٤)

دعّمت تصويرها بقدرات حركيّة ساعدتها على كشف الحاضر وتعريته، فهذا الشعب الذي هجر الأصل وتمسّك بالقشور حوّل أرضه من مرتع محبّة، وإيمان، وتسامح، وحرّيّة، وعدالة، ومساواة إلى معتقل للقهر، تمارس فيه أبشع صور الإجرام الإنسانيّة، من إذلال، وقتل، وظلم، وعبوديّة، وحقد، وكراهيّة، وبغضاء. والأكثر شراسة وعنفًا وقبحًا ما ترضعه آذان الأطفال العرب من الإذاعات العربيّة، فتنمو في نفوسهم وعقولهم روح البغضاء والتفرقة، بدل الإلفة والتعاضد ويكبر الصراع في جسد الأمّة الواحد، ويهزل بنيانه، ويضعف ويفقد قدرته على مواكبة الفكر. ويكون التمزّق بين فعل ريادي يفرضه العقل والمنطق وهيكليّة مقطّعة

(٤) خذني الى حدود الشمس : صفحة ١٤٢ – ١٤٣

الأجزاء، متباعدة، فتكبر الهوّة، ويعتلّ العضو الواحد، ويصير القمع الوسيلة واليد.

إنّ الشاعرة تعود في رسم مأساتها إلى أعماق التاريخ العربيّ تستحضر الذاكرة وترى أنّ التغيير في أشكال الأنظمة العربيّة كان سطحيًّا في مظهره تخريبيًّا من الداخل، كان تغييرًا ظاهريًّا مسقطًا على حياتنا الفكريّة من حالة وضعيّة غير مرئيّة، وهذا الإسقاط مفرَّغ من المحتوى الفاعل، فيعوِّض عن فراغه بالإرهاب الفكريّ والقتل، والمنع والتجزئة والتفرقة فتشمئزّ الذات من ذاتها، وتنفر الروح من الروح. إنّه واقع عربيّ تراكميّ بدأ بعد وفاة رسول الله، وهو يزداد مع الأيّام سوءًا، وصار الأخ يقتل أخاه، والمسلم يحلّل سفك دم أخيه المسلم، والمخيف في هذا الواقع شحن روح البغضاء والتنافر في نفوس الأجيال المتعاقبة وتشتّت النفوس، وتحكُّم القمع والإرهاب ؛ واقع بدأ لحفظ كرسيّ وانتهى بتخريب الإنسان.

إنّني بنت الكويت
كلّما مرّ ببالي،عرب اليوم، بكيت
كلّما فكّرت في حال قريش
بعد أن مات رسول الله
خانتني دموعي، فبكيت
(...)
كلّما أبصرت طفلاً عربيًّا
يشرب البغضاء من ثدي الإذاعات
بكيت
كلّما شاهدت جيشًا عربيًّا
يطلق النار على الشعب... بكيت[٥]

(٥) فتافيت امرأة: صفحة ١٢٨

تلتقط الصباح بالعين الثالثة، التناقض المخيف بين أحلام الحاكم وتخيّلاته، وحقيقة الأمر، فالنظريّات، والشعارات، والهتافات، والكلام على تطبيق الشريعة " **وَاجعلوا الأمر شورى بينكم** " كلّها كلمات فرّغوها من مفهومها. فالعلاقة الوجدانيّة بين الحاكم والشعب مفقودة، رباطها التخويف والتهويل، وحرّيّة الرأي مقتنصة، والتآزر بين الأشقّاء العرب يقرأ في جواز السفر.

إنّ التفتُّت يصيب مقتلاً من طموحات وآمال المجنّحين بأحلام العروبة، والمتمنطقين بلواء القوميّة العربيّة، ولكنّه لا يكسر الحلم

كلّما حدّثني الحاكم عن عشق الجماهير له

وعن الشورى.. وعن حرّيّة الرأي.. بكيت

كلّما استجوبني بوليس قطر عربيّ

عن تفاصيل جوازي...

عدت من حيث أتيت[٦]

هذا الواقع العربيّ المفكّك واقع عبثيّ، يدعو إلى السخريّة والألم في آن معًا، إنّه استسلاميّ في سكونيّته ويتجاوز المعقول والمنطقيّ.

ولمّا كانت الحال الأكثر تعبيرًا عن التجاوز المألوف والعاديّ هي حالة الجنون، فلقد وصفت الشاعرة العصر العربيّ بأنّه «عصر عربيّ مجنون[٧]» ولكنّه

(٦) فتافيت امرأة : صفحة ١٢٩

(٧) هل تسمحون لي ان احب وطني، صفحة ٢٣.

ليس جنون خروج وتمرّد، وابتكار بل هو جنون سلبيّ استسلاميّ، غرائزيّ، لا يحمل المعنى الغيبيّ الرؤيويّ، لأنّ الرؤيا كشف وريادة، وجنون العصر العربيّ انهزاميّ، إنّه بالأحرى نوع غياب عن الوعي وفقدان توازن، يخفي العجز والفشل والسقوط.

العالم العربيّ يخالف الطبيعة والحياة، فالعالم اليوم يتّجه إلى توحيد الطاقات وتفعيل القدرات من أجل بناء المستقبل الأكثر ملاءمة مع تطوّر الحياة، والمجتمع العربيّ غارقٌ في عشقه لذاته.

لقد رصدت الصباح حركة العالم نحو التلاقي حول المصالح المشتركة، ورصدت التحوّلات التي قلبت المفاهيم والأيديولوجيّات والأفكار الخاطئة، ورصدت في مقابل ذلك واقع الأمّة العربيّة فوجدت أنّ العالم يسير باتّجاه الديمقراطيّة والحرّيّة والسلام ويتّجه نحو تدمير أسلحة القتل الجماعيّ، ويؤمن بالحضارات وينحني أمام حرّيّة الإنسان.

أمّا العرب فيعيشون في غيبوبة غافلين عن حركة الزمن ويمارسون لعبة رؤساء المافيات والعصابات وقطاع الطرق، والملاكمين، ويسكنهم «نظام يقهر الإنسان ويستعبده ويحوله إلى فتافيت إنسان [٨]»

هذا الواقع العربيّ تختصره السعاد بقولها : «العالم يزداد تلاحما، وتداخلا، ونحن نزداد نرجسيّة، وأنانيّة، وعزلة، وتقوقعًا [٩]».

هذه الحال المفرّغة من الفاعليّة جعلت من جامعة الدول العربيّة شركة مساهمة فقدت بتنافر مؤسّسيها رصيدها الماديّ والمعنويّ، وضعفت إمكانيّة المواجهة وقدرة المقاومة فأعلنت إفلاسها وتخلّت عن الالتزام والتعاطي بقضايا الأمّة الكبرى "فأشهرت إفلاسها وبدأت تبيع طاولاتها وكراسيّها، وملفّاتها في المزاد العلنيّ".[١٠]

---

(٨) هل تسمحون لي ان احب وطني ، صفحة ١٦٥.
(٩) هل تسمحون لي ان احب وطني، صفحة ١٦٣.
(١٠) هل تسمحون لي ان احب وطني، صفحة ٨٨.

وبهذا التصريح الخطير تعلن الشاعرة غياب أيّ دورٍ فاعل للجامعة العربيّة، إنّها شكل مؤسّسة تتاجر بمصير الشعوب العربيّة.

لقد تحوّلت المجتمعات العربيّة إلى مشانق ومدافن موتى، وهي تفخر بتميّزها كمثال فاضحٍ للقتل والنهب والظلم، والاستسلام والخنوع والتحول العكسيّ السلبيّ.

في متابعة لأحداث هذه الغوغائيّة تلهث الصباح لتلتقط صور المآسي الإنسانيّة في المجتمعات العربيّة، فتبصر شعوبًا تنقاد إلى موتها المخيف والمذلّ، موت يفتقر إلى شرف الموت ونبل الشهادة.

على هذا المسرح المصطنع لا يميّز بين الأحذية والجماجم، إنّ أصحاب الجثث أرقام مرّت في بال الحكام ثمّ أسقطوها من حساباتهم بعد الانتهاء من عمليّات الجمع والطرح والضرب والقسمة.

واقعٌ مأساوي يغرِّب الأرض عن ذاتها وأصالتها وطبيعتها، ويجعلها مسرحًا لأشكال التعذيب والقتل والاغتيال، حيث يمارس قتل الأبطال تغييبًا لمعنى البطولة، وتكريسًا لمظاهر بطوليّة جوفاء، تتراكم عبر التاريخ طقسًا يثبت ألوهيّة الحاكم.

تتشابه كالرّزّ الصينيّ
تقاطيع القتلة
مقتولٌ يبكي مقتولاً
وحذاء يدفن قرب حذاء
لا أحد يعرف شيئاً عن قبر الحلاّج
فنصف القتلى في تاريخ الفكر
بلا أسماء[11]

(١١) خذني الى حدود الشمس صفحة ١٢٥.

لكلّ ظاهرة سبب ووراء كلّ حالةٍ مرضيّة خلل عضويّ، واضطراب في تجاوب أجهزة الجسد، وبالتّالي، لا بدّ من وجود سبب يكمن وراء اعتلال جسد الأمّة العربيّة وعدم تناسق أداء أعضائها.

تعلن الأديبّة بجرأة المواطن الصالح التوّاق إلى سلامة الانتماء وفاعليّته، الأسباب الكامنة وراء هذا التخاذل العربيّ وتحدّدها.

تعتقد الصباح أنّ الأنظمة العربيّة الفرديّة هي السبب الرئيس في هذا التشرذم والتعنّت العربيّين، وفرديّتها شكل من مظاهر تكريس عصمتها. والتفرّد في حكم المجموع من صفات الخالق، وحكّام الأنظمة الفرديّة يفرضون أنفسهم على شعوبهم هالة من القدسيّة والعصمة،وبالعصمة والفرادة ينغلق باب النقاش والحوار، وترفض السلطات أن تتعلّم شيئًا، لأنّها تعتبر ذاتها الكمال المطلق، وبإغلاق باب المعرفة يبطل عمل الفكر، وبإبطال عمل الفكر تتوقّف الحياة الطبيعيّة عن مسارها.

إنّه واقع اتّسم بجهوزيّة سلبيّة تقف ضدّ تقبّل المعرفة وتلغي التفاعل السياسيّ والثقافيّ والديمقراطيّ، فتزداد الأنظمة الفرديّة نرجسيّة وتأليهًا لذاتها، وتتّسع الهوّة بين مجتمع يمشي نحو الأمام وآخر يتقهقر على كافّة المستويات.

ترى الشاعرة أنّ ديكتاتوريّة هذه الأنظمة كانت السبب في تدمير الحضارات وتعرّف بهذه الأنظمة الفرديّة قائلة : "إنّ أسوأ ما في الأنظمة الفرديّة أنّها لا تصدّق إلاّ نفسها ولا تثق إلاّ بتقارير مخبريها وشرطتها السرّيّة والأنظمة الفرديّة عبر التاريخ هي التي أشعلت الحروب الكبرى وأحرقت المدن ودمّرت الحضارات" (١٢).

والأنظمة الفرديّة صارت – في رأي الصباح – حكرًا على المجتمعات العربيّة التي يقهر حكّامها شعوبهم ويستعبدونها، في وقتٍ بدأت أشكالها تتساقط في "كلّ مكان في العالم" (١٣).

لقد غُيّب الإنسان العربيّ عن ذاته، وازدادت انهزاميّته وسلبيّته، وتصالح مع

(١٢) هل تسمحون لي ان احب وطني، صفحة ١٥٩.
(١٣) هل تسمحون لي ان احب وطني، صفحة ١٦٦.

عبوديّته فخان حرّيّته، وانغمس في انحطاطه واغتال الإنسان في داخله.

إنّها معادلة واحدة لها وجوه كثيرة، إنسان مستعبد ذاته العظمى باستعباد الآخر لذاته الصغرى، والمستعبد الذات الصغرى هو مستعبد لآخر يحتقره، والمحتقر هو ذليل أمام آخر يسيّره والنتيجة انسحاق ورعب، وانعدام الثقة والاطمئنان. قلق مزعج لا حياة ولا حركة فيه وبالتالي لا فكر ولا إبداع، لأنّ المجتمعات العربيّة أفرغت فاعليّتها في تحفيز روح التجسّس ودخولها في خلايا الأدمغة وسرقت مظاهر الحياة والحرّيّة والاطمئنان.

فعصر المباحث صادرَ منّا السماء
وصادرَ منّا الحقائب، صادرَ منّا السفر
وأدخل للسجن ضوء القمر [١٤] !!

إنّ الإنسان الذي تعتبره المجتمعات الغربيّة ثروة هو حذاء قديم في المفهوم العربي[١٥].

العربيّ المعاصر عاجزٌ عن فهم ذاته، عاجزٌ عن تحمل مسؤوليّاته، وعن محاسبة نفسه، إنّه في حالة غيبوبة وانعدام وزن يخسر أحلامه في عبوديّة السهولة، والمصالح الآنيّة الماديّة،وتقليد الآخر في كلّ أشكاله ليكون النسخة المشوّهة المثيرة للضحك والاشمئزاز ناسيًا أصالته، متخلّيًا عن شجاعته وكبريائه، وإبائه، ونخوته. لقد فقد كلّ مقوّماته الذاتيّة، وغيّب وجوده عن مقوّمات الأصل والجذر، وتخلّى عن المثال والرمز ليذوب في شعوبيّة أكثر تذويبًا وسحقًا لشخصيّته.

هذا الواقع المرير تنقله الصباح باستحضار شخصيّة صلاح الدين إلى ساحة الحياة العربيّة المعاصرة، فتشعر الذات الكلّيّة المنغرسة في أصالتها، جذرها، أنّها

---

(١٤) فتافيت امرأة، صفحة ١٥٣
(١٥) هل تسمحون لي ان احب وطني، صفحة ١٥٧.

صارت غريبة عن الشكل المصطنع المزيّف القائم جاعلة من الحلم مطيّة لتجاوز الواقع.

كلّما أبصرت في الحلم صلاح الدين
يستجدي فتات الخبز في القدس
ويستعطي على باب السيوف العربيّة
كلّما شاهدته
تائها، يسأل في الصحراء عن أحياء طيٍ
وتميم، وغُزَيَّة...
كلّما شاهدته في مركز البوليس،
مرميًّا على الحائط من غير كفيلٍ أو هويّة
صحت في أعماق جرحي:
أيّها العصر الشعوبيّ الذي
صار فيه السيف يحتاج لإبراز هويّة(١٦)

ممّا لا شكّ فيه أنّ الإمبراطوريّة العربيّة كان لها نظامها وهيكليّتها ولم تكن بنيتها قائمة على أسس الدولة المدنيّة.

ومن هذه الزاوية تحاول الشاعرة أن تبرر الاهتراء في واقع الدول العربيّة وتحيل مظاهر التمزُّق النفسيّ والمجتمعيّ إلى أسباب الجهل بمقوّمات الدولة العصريّة التي تحاول سلطاتنا التعامل معها من خلال الموروث لشكل الدولة القبليّة:

«لا بدّ لنا أن نعترف أنّ فكرة الدولة عندنا لا تزال غيبيّة وهشّة، فالدولة كانت في أغلب الحالات ميراثًا شخصيًّا، أو عائليًّا، أو دينيًّا، أو عسكريًّا، أوانقلابيًّا،

(١٦) فتافيت امرأة، صفحة ١٢٧.

وبرغم أنّنا نعيش منذ مئات السنين في مدن كبيرة فنحن لم نستوعب حتّى الآن فكرة المدنيّة، وقوانين المدنيّة، وتنظيمات المدنيّة، ولا نزال نواجه قضايانا السياسيّة، والاجتماعيّة، والدوليّة بمنطق البادية، وشرائع البادية[١٧]»

إنّ الجهل بمقوّمات الدولة المدنيّة أخضع الإنسان العربيّ إلى استبعاد داخليّ، للقهر والاستعباد، والثروات العربيّة الطبيعيّة كانت سببًا لغزو الإنسان العربيّ اقتصاديًّا، ونفسيًّا وفكريًّا، وبهذا الغزو غُيِّب عمل العقل الواعي ووُجّهت قدراته نحو مهاترات أقعدته على هامش الحياة المعاصرة، وأغرقته في التمويه والتسلية، وأبعدته عن أصالته العربيّة، وشمائله وقيمه، وطريقة تفكيره فتحوّل الإنسان العربيّ في بعض الدول العربيّة بوجود النفط إلى انتهازيّ، ماديّ، انبطاحيّ، ذليل، تافه، قد تخلّى عن أخلاقه وحرّيته ليصير مستعبدًا للنفط والمادّة، وبهذه الانبطاحيّة عند قدمي النفط – ترى الصباح – أنّ العربيّ هدم تاريخه المضيء، واستغنى عن كلّ ما هو أصيل وعظيم : «لاعنة النفط الشيطانيّ»

ثمّ جاء النفط شيطانًا رجيمًا
فانبطحنا عند رجليه رجالاً ونساءً
وعبدناه صباحًا ومساءً
ونسينا خلق الصحراء... والنخوة،والقهوة
والمهباج... والشعر القديما...
وغرقنا في التفاهات
هدمنا كلّ ما كان مضيئًا
وأصيلاً وعظيما...
(...)

(١٧) هل تسمحون لي بأن أحب وطني؛ صفحة ١٦١

ثمّ حلّت لعنة النفط علينا
فاستبحنا كلّ ما ليس يباح.

إنّ طمع الغزاة الاقتصاديّين بالثروات العربيّة الطبيعيّة جعلهم لا يطمئنّون إلى نتائج الغزو الاقتصاديّ والنفسيّ والفكريّ، فحاولوا غزو المجتمعات العربيّة أخلاقيًّا، ودينيًّا، محاولين تفريغها من كلّ القيم والمبادئ والأخلاق، لتمتلئ بالشبق والشهوة، والخمر، وتغتال الذات العربيّة من كيانها وأخلاقيّتها وشهامتها وتصير الحماسة العربيّة والشهامة العربيّة أشكالاً تراثيّة لا معنى ولا محتوى لها.

هذا الواقع الجديد ترسمه الصباح بكلمات تتواتر بدفق الموسيقى النفسيّة المضطربة والقلقة أمام مصير وطنها الغامض، فنلمس مرارة اليأس بتزاوج الحروف والكلمات التي نفخت فيها السعاد من روحها وأحلامها وهي تنقل المجتمع العربيّ الجديد الغارق في شهوة المال والجسد والخمر والهوى.

فالبساتين فراش للهوى
والنساء الأجنبيّات...
يعطّرن ليالينا الملاح
والدنانير على الأقدام ترمى...
وعلى الأجساد تصطفّ القداح
هكذا يا وطني...
ترفع رايات الكفاح
هكذا يبكي على الحائط سيفٌ
أثريّ لأبي
هكذا من بأسه يبكي السلاح[١٨].

---

(١٨) فتافيت، صفحة .١١٨-١١٩-١٢٠

ألمس أنّة «أنا» السعاد الوجدانيّة التي خذلها الواقع العربيّ وانهيار القيم فيه، فوقفت نادبةً تلك البطولات التي جمّد مضمونها التخاذل في أشكالٍ بطوليّة مختزلة بسيوفٍ تبكي على الحائط. لكأنّي بها تجعل من البطولة العربيّة ذكرى مأسورة لا تملك إلاّ التعبير عن انهزامها أمام «حائط المبكى»، فهل سنحوّل تاريخنا العربيّ إلى حائط مبكى ؟

إّن المبدعين وحدهم يستوعبون عمق المأساة، ويغرسون أحلامهم في بيادر الذاكرة يلقّحونها من خصب التاريخ،سعيًا الى مستقبل أفضل.

والذاكرة العربيّة المبدعة ماضيًا وحاضرًا، ما زالت تخصّب وجودها من ذوات مضيئة في تاريخنا، والصباح التي صدمها الواقع الانهزاميّ الانبطاحيّ الاستسلاميّ ارتدّت إلى ذاكرتها، تستصرخ مثلاً أعلى في أعماق وجدانها، تشكو لطيف الرجل المثال بشاعة الواقع العربيّ الذي استعاض عن فراغه الروحيّ وإفلاسه القوميّ، بمهاترات حكّامه المتعالين على أصول بروتوكول الخطاب العربيّ، وروحيّة المناقشة والحوار ومخاطبة شعوبهم، ليتقرّبوا من ذواتهم الحقيقيّة فاستعاضوا عن الأصول، بالغوغائيّة، وعن الحوار بالوحشيّة، وعن الخطاب السياسيّ بالقتل والدمار.

حمل بوح الصباح الوجدانيّ الألم والنقمة، الألم على فقدان الرئيس جمال عبد الناصر والروح القوميّة، والنقمة على أعراب تخلّوا عن قيمهم :

يا ناصر العظيم،
لا تسأل عن الأعراب
فإنّهم قد أتقنوا صناعة السبابْ

وواصلوا الحوار بالظفر وبالأنياب

وحاصروا شعوبهم بالنار والحرابْ[19].

لم تكتف الصباح بتصوير الواقع وكشف الأسباب التي أوصلت المجتمعات العربيّة إلى واقعها المرير بل تسلّحت بالمعرفة والتحليل لتترجم بجرأة ووضوح وصراحة نظرتها المنطقيّة العلميّة الى النظام الاجتماعيّ والسياسيّ القائم فعبّرت بشعرها عن كلّ ما لمسته من انهيارات، واعتقالات، ومآس، واغتراب جسديّ ونفسيّ، وكشفت برسومها الوشاح المأساويّ الذي يستر الخطر والإبادات الجماعيّة تلبية قرارات متزمّتة فرضتها نرجسيّة الحكم وساديّته نتيجة استسلامه لصنميّة الشكل الجاهز الموروث مع تفنّن في أشكال القمع والسلطة، فحرّيّة القول ممنوعة، وحرّيّة التفكير أيضا، ومن يخرق قانون المحرّمات يخرج من دائرة الحياة.

لقد قرّر العالم العربيّ اغتيال الكلام

وقرّر أيضا...

إبادة كلّ الطيور الجميلة – كلّ الحمام.[20]

إنّ التطلّعات السياسيّة الخاطئة، تنتهج القمع، وتغييب الآخر، وتأمر بوأد الفكر الحرّ، ووضع القيود، والحواجز وتهدف إلى اختلال التوازن النفسيّ والروحيّ، فتبطل فاعليّة الخلق والولادة، ويختزل العصر العربيّ نفسه بالفقر، والإرهاب، والموت، فلا انبثاق، أو تبرعم، أو انبعاث.

(١٩) فتافيت، صفحة ١٤٢

(٢٠) برقيات عاجلة الى وطني؛ صفحة ٢٢

هل ينبت قمح من جسد الفقراء ؟
هل ينبت ورد من مشنقة ؟
أم هل تطلع من أحداق الموتى
أزهار حمراء.[٢١]

اخترقت الشاعرة بالتساؤل الهادف حجاب الأشكال القمعيّة، كاشفة عن مظاهر القحط الناتجة عن نشر الخوف والإرهاب في زمن محاصر بالموت والرعب. زمن صار فيه الإنسان الحرّ فقيرًا مسكونًا بالذلّ والرعب والخوف والخيبة، زمن مفرّغ من الخلق والإبداع.

في هذا الواقع المأساويّ ليس من المعقول أوالمحتمل أن يولّد الخوف والرعب والقمع تفتّحًا فكريًّا زاهيًا، أوتبرعمًا، وليس من المحتمل أيضًا أن تكون رؤية من أحداق حجبت رؤيتُها بالموت. إنّه واقع محنّط يفيقر إلى مقوّمات الإنبعاث والثورة.

ولكي يستوعب الإنسان العربيّ مأساته، ويعي أبعادها، تقيم لقاءين بين عالمٍ يتقدّم بحركة مستقبليّة غايتها الإنسان وسعادته، فيزداد تلاحمًا، وتداخلاً وانصهارًا، ومجتمع عربيّ يزداد نرجسيّة، وعزلة، وأنانيّة، وتقوقعًا، فيغرق في سكونيّته، رافضًا التطوّر[٢٢] ويصطاد روح الإبداع قبل بلوغها، ويحوّل مثقّفيه إلى طبول يردّد قرعها أهواء الحكّام، ورغباتهم وتُسَجّل الانكسارات بطولة، والظلم فلسفة عدالة، ويقزّم الحلم العربيّ مناظرات عقيمة في دكاكين تباع وتشترى فيها

(٢١) خذني الى حدود الشمس، صفحة ١٢١ – ١٢٤
(٢٢) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ١٦٣

الضمائر، فانسلخ المثقّف العربيّ عن ذاته الكبرى، واتّحد بذاته الصغرى ليكون خادمًا أمينًا يعمل على تأكيد وتثبيت عصمة أسياده الحكّام، فيتخلّى عن دوره الإنسانيّ وعن رسالته المقدّسة، ويرضى الدخول في مرحلة اللاوعي، ومرحلة التغرُّب عن الذات، ومرحلة الموت المعنويّ حيث لا يشعر ولا يتفاعل إلاّ مع رغبات السلطة وأحلامها. وفقدت الثقافة العربيّة هويّتها، فهي السبب بثقافة الأصل أوالأخذ. إنّها ثقافة تثبت تقليد الماضي أوتقليد الغرب ظاهرًا لا مضمونًا، لأنّ المضامين هي روح والروح شفافيّة وصدق، أمّا الثقافة العربيّة فهي ثقافة استزلام قمعيّة، تلغي حرّيّة الإنسان الإبداعيّة، فانخفض بذلك المستوى الثقافيّ وتحوَّل المثقفون إلى تجّار وسماسرة، ترسمهم الصباح بصورة معبِّرة عن الواقع الثقافيّ بقولها : **"إنّ سوق النفاق الثقافيّ في ذروة ازدهاره هذه الأيّام"** [٢٣].

لم تؤثّر الثقافة في تحسين حياتنا وطرق عيشنا، لأنّ ثقافتنا تعليميّة سطحيّة مصلحيّة، نتعلّم لنحظى بالمراتب والوظائف أولتحقيق رفاهيّة مزيّفة، فلم تستخدم الكلمة العربيّة أوالثقافة العربيّة بشكل عام من أجل تحسين الواقع بل لمصالح شخصيّة.

لقد قزّمنا أهداف العلم وجعلنا من فضائه الواسع ثوبًا ضيّقًا على مقاس حاجاتنا وغاياتنا المادّيّة الآنيّة المحدودة، فتشوّه الزمن العربيّ بالقبح، وعدم الانتماء، وفقد الشعر رسالته الإنسانيّة العظيمة، وصار الشاعر ينافق في تصوير الواقع، ويكذب في التعبير عن مشاعره وقضايا الإنسان في داخله. والسبب في رأي

(٢٣) هل تسمحون، صفحة ٩٧

الصباح هو الإرهاب الفكريّ، والقمع والقتل والاغتصاب النفسيّ، وتخلّي الشعراء عن ذواتهم المتألّمة فلم يتمخّضوا عن شعر إنسانيّ عظيم، فكانوا في رأيها، من أولئك الذين تنزل عليهم الشياطين.

استعانت الأديبة بالقرآن الكريم، الذي ميّزت آياته البيّنات بين شعراءٍ أفّاكين كاذبين وشعراء يؤمنون بالحقّ الإنسانيّ ويعملون الصالحات، وهؤلاء سينتصرون من بعد ظلم، فكان لها من ثقافتها القرآنيّة برهان تثبت من خلاله فهمها الجوهريّ للحياة وصلاحيّة أفكارها وآرائها [٢٤] :

يا زمان القبح.. من أين يجيء، المبدعون؟

في بلادي

وعلى أيّ صليب من دموع يولدون ؟

أعطني شبرًا من الأرض يسمّى وطنًا

ما به مشنقة، أومخبرون

لا تغطّيه المنافي والسجون..

(..)

يا زمانًا

ما له لون ولا طعم، ولا رائحة

رحل الأعراب عنه، وأتى المستعربون

واستقال السيف من أحلامه

واستقال الفاتحون

---

(٢٤) " والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا و سيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون". سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ – ٢٢٧

(٢٥) فتافيت صفحة ١٦٣ – ١٦٥

وصل السيف إلى الحلق
ومازال لدينا شعراء يكتبون
وصل السلّ إلى العظم
وما زال لدينا شعراء يكذبون
ويقولون على الأوراق ما لا يفعلون(٢٥)

إنّ السبب الرئيس لهذا الارتداد والتخاذل الفكريّ انعدام وجود الأفكار الحقيقيّة والأصليّة في حياتنا القوميّة والتي يتغذّى منها المفكِّر العربيّ فكلّ أفكارنا الإيديولوجيّة مستعارة ولم تنبع من حاجاتنا ومواقفنا كعرب.

لكلّ أمّةٍ ذاتٌ تميّزها وتفخر بها وتعزّز أصالتها، والذات العربيّة ذات أصيلة متأصِّلة في وجودنا وتاريخنا وكياننا، ولكنّها ذات مغيّبة عن مسرح تفاعلاتنا وقضايانا، وغيابها أصاب المثقّفين الحقيقيّين المؤمنين برسالتهم القوميّة بالإحباط فتحوّلوا عن مبادئهم وسلكوا سبلاً تؤمّن لهم العيش لا الحياة، أوتحوّلوا عن قضيّتهم عمدًا لانعدام القضيّة :"بعض الثوّار تحوّلوا إلى بائعين متجوّلين، وبعض الأحرار أطلقوا الرصاص على الحرّيّة، وبعض القوميّين العرب أثبتوا أنّهم غير قوميّين وغير عرب(٢٦) ".

السبب الثاني يكمن في الصفات المكتسبة للشعوب العربيّة، هذه الصفات التي جعلتهم سطحيّين يؤخذون بالقشور، فيصابون بالدهشة السلبيّة وينهزمون أمام بريق المظاهر، وزيف القشرة الخارجيّة، من دون أن يتوصّلوا إلى الكشف الجوهريّ والحقيقيّ، فيتلهّون بالأسباب الظاهرة ويغضّون النظر عن البحث في المسبّبات. والفرق شاسع بين الشكل والمضمون، الشكل ثوب خارجيّ

(٢٦) هل تسمحون، صفحة ٨٩

والمضمون روح وجوهر وبين الجسد والروح يكمن سرَّ الألوهة. والعرب لم يعتادوا البحث إلا في شكلٍ ظاهريّ فخسروا سرّ الروحيّ وفاعليّته: "لقد تعوّدنا نحن العرب أن نرى ظاهر الأشياء وقشرتها دون أن نتعمّق فيما وراء الأشياء ودون أن ننتبه إلى ما يجري تحت أقدامنا من مياهٍ جوفيّة"[٢٧].

إنّ التأثّر السطحيّ الثقافيّ يلغي التفاعل بين الثقافات. والأمم التي لا تستفيد من تجارب الآخرين تهدَّد بالهرم السريع. ولذلك يمكننا القول إنّ عدم وجود الرؤيا الفكريّة حرم العرب من الافادة من تجارب الآخرين فأخذوا بالسطحيّ ولم يتعمقوا في سير المعطيات التي أوصلت الشعوب الأخرى إلى الإيديولوجيّات التي آمنوا بها، لأنّهم اهتمّوا بالأشياء الجاهزة، من دون النظر إلى مكوّناتها ومعانيها، وذلك – في رأيي – صورة من صور طبيعة العلاقة الاستهلاكيّة التي طبعت علاقة المجتمع العربيّ بالغرب، فالأفكار الغربيّة، كما المنتجات الاستهلاكيّة، يتقبلها العربيّ من دون البحث في تكوينها وتشكّلها ؛ فاهتمّوا بالنتائج والمظاهر وأغفلوا حقيقة التركيبات وتفاعلاتها. والعقل العلميّ أثبت خلال رحلة العلم اللامتناهية أنّ تحقيق الكفاية العلميّة يلزمه معرفة تامّة بسير التجربة وأسباب النتائج التي حصلوا عليها.

إنّ العرب لم يعتادوا الافادة من تجارب الآخرين، وكان اعتمادهم على تقليد الأشكال الجاهزة، وهذا التقليد يقتل كلّ قوّة ابتكار وكلّ إبداع، وبفقدان طاقة الابتكار والرؤيا تتراجع مجتمعاتنا على كافة الأصعدة، وتنعدم الثقافة، والثقافة كما تراها الصباح بمعناها الشموليّ "هي موقف الإنسان في صراعه من أجل الحقّ والعدل والحرّيّة "[٢٨]، وثقافة من هذا النوع غير متوفّرة في واقعنا الحاضر.

إنّ الشعوب العربيّة لم تستطع حتّى اليوم هضم الثقافة الغربيّة، وتحويلها

---

(٢٧) هل تسمحون، صفحة ١٧٤
(٢٨) هل تسمحون، صفحة ٩٦

بالتفاعل الذاتيّ إلى شخصيّتها، وثمّ تعيد إنتاجها وفقًا لحياتها وعاداتها وتقاليدها الأصليّة. وفي الوقت عينه لم تستطع المحافظة على أصالة التراث، ففقدت ارتباطها الفاعل بالجذر من جهة، ومجاراتها للانطلاقات الفكريّة في الغرب من جهة أخرى، ممّا جعلها ثقافة مهزومة غير قادرة على مواجهة العصر وتحدّياته.

المثقّفون العرب يشهدون الاغتصاب التاريخيّ لهويّتنا القوميّة، واقتلاع جذورنا المعنويّة والنفسيّة والعاطفيّة، ويقفون موقفًا محايدًا من قضيّة مصيريّة كهذه. فكانوا بهذا شهود زور على تغيير مقوّمات الأصالة وامتداداتها الروحيّة في انتمائها العريق.

رأت الصباح في هذا الاغتصاب خطرًا أكثر من الاغتصاب الجغرافي. تقول إنّ "اغتصاب الجغرافيا هو اغتصاب أرض وحجارة، أمّا اغتصاب التاريخ فهو اغتصاب للإنسان بكلّ امتداداته الروحيّة والحضاريّة والقوميّة والدينيّة والثقافيّة"[٢٩].

والاغتصاب التاريخيّ أوصل العرب إلى الخروج من تاريخهم في وقتٍ "تتّجه فيه شعوب العالم إلى العيش المشترك[٣٠] ".

إنّ الواقع العربيّ الثقافيّ هو نتيجة لأوضاعنا السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، لأنّ الثقافة الحقيقيّة وليدة الحرّيّة التي تسمح بالسؤال والبحث والكشف. وواقعنا العربيّ قمعيّ يفرض على المثقّف الجواب الجاهز، فحكم القناع الذي يحجب جوهر العلاقة بين الظاهر والباطن، واغتُصبت الحرّيّة الفكريّة عند المثقّفين وفرض عليهم التعاطي بالموثقات التي يفرضها عليهم الحكم لتكريس عصمته، فازدادت الهوّة النفسيّة بين ريادة المثقّف وتبعيّته، وكان للشعر

(٢٩) هل تسمحون، صفحة ١٤٧
(٣٠) هل تسمحون، صفحة ١٥٣

الحظّ الأكبر في هذا الانحطاط لأنّ الشعر يجب أن يكون عالمًا إنسانيًا حرًّا تتماوج فيه تجلّيات الروح وانقساماتها، وتتلاقى من خلاله الأرواح المنفلتة من ماديّتها، ولكنّ القمع أفقده إنسانيّته، فمارس وجوده هروبًا وانهزامًا. وأقلع الشاعر العربيّ عن بثّ رؤاه وأحلامه التي تنقل الإنسان من المادّة إلى الروح، خوفًا من عصرٍ عربيّ يمارس على شعبه حالة الإغماء الروحيّ والنفسيّ العاطفيّ إنّه "عصرٌ عربيّ فيه توقّف نبض القلب"[٣١].

وبالتالي فلا حرّيّة، والكلام على حرّيّاتنا العربيّة زيف وخداع. إنّها في أشكالها جوفاء، وفي معانيها تضييق وانقياد فالحرّيّات العربيّة مفرّغة من المضمون الحقيقيّ وبالتالي لا حاوٍ ولا محتوى فعليّ، وبغياب الاسم والمسمّى، العلامة والغاية، تنتحر الحرّيّة ويضيع الإنسان العربيّ.

إنّ الفرد العربيّ إبتُلي بوأد الكرامات، وخيانة رسالته الإنسانيّة، فخسر ذاته، وأخلاقه، ووصم حياته وتاريخ وجوده بعار الاستزلام، والتبعيّة أوبداء الصمت، ولكنّ الصباح ترى في هذه النكبة اختبارًا، للصبر وللإيمان باختزال الطاقات وصولاً إلى ألم المخاض فيتخلّص الشاعر العربيّ من انبطاحيّاته ويتعالى عن إرضاء السلطة بكلّ أنواعها وألوانها.

يا زمان الانهيارات شبعنا
من دكاكين السياسات، وغشِّ اللاعبين
يا زمان الانكسارات لماذا
يلثم الشعر نعال الفاتحين؟[٣٢].

(٣١) خذني الى حدود الشمس، صفحة ١٢١
(٣٢) فتافيت امرأة: صفحة ١٦١

قرنت الأديبة رفضها بالنقد الصريح المعبّر عن الحالة السياسيّة والاجتماعيّة، والفكريّة. فالسياسات العربيّة التي تمارس خوفها من اليقظة والوعي، سجنًا، واغتيالاً، وإقامة جبريّة، بنت سياستها على الساديّة واعتقال النخبة، لقطع الفاعليّة بينهم وبين المواطنين، فلا حقيقة تمُد الشعب بنور الكشف والمعرفة، ولا نور يضيء ظلمات حياته المدلهمّة بالقهر والحرمان، والعبوديّة، فالفكر معتقل، والخوف ينشر ظلاله في كلّ قلب ومنعطف، ممّا أحدث شرخًا بين الإنسان وذاته، فكلّ شيء ملغوم بالتنصّت والرقابة، بغية تحويل الجميع إلى قطعان تفتقر حتّى إلى مكوّناتها الطبيعيّة، وتكتفي من الحياة بالعيش الغريزيّ.

حتّى الشمس... أخذوها من بيتها

(...)

حتّى ضوء القمر

(...)

طلبوا إلقاء القبض عليه

(...)

حتّى كلامنا في المقهى أوعلى الهاتف

مسجّل على أشرطة

ومحفوظ في أرشيف المباحث العامّة

إنّهم يحاولون أن يغتالوا القصائد

ويحرقوا غابات الحبّ الخضراء

ويستأصلوا رجولة الرجال

وأنوثة النساء[٣٣]

والقمع السياسيّ للفكر العربّي متأصّل في نفوس الحكّام، وتاريخنا يضجّ باغتيالات أهل الفكر والحرّيّة، الذين أبت كرامتهم الصمت، فأخرس القهر والتعسّف أنفاسهم، ولكنّ صدى الصوت ما زال يقلق هجعة الكثيرين ويحثّهم على النهوض، بالرغم من تعتيم أصحاب القرار على وجود المبدعين، ومحاولة قتل الفكر عند الأجيال الصاعدة التي أصبحت – في رأي الصباح –"أجيالاً هابطة مسحوقة، ضائعة، مشمئزّة، قرفانة، كافرة بكلّ ما تسمعه أو تقرؤه... عن مروءات العرب وشهامتهم وعدالتهم"[٣٤].

إنّ الأنظمة الفرديّة في الأمّة العربيّة لم تكتف بالاستئثار بالسلطة وتسخير أهل القلم للتشبث بألوهيّتها الأرضيّة، وتبرير ظلمها باسم الحقّ والعدالة والقضيّة. لقد كانت النتائج أكثر خطورة ممّا نتوقّع لأنّ أيًّا منهم لم ينتبه إلى تشتّت اللغة العربيّة وتجزئتها أيضًا.

إنّ اللغة هي ذات الأمّة، وإذا انقسمت إلى لغات، كانت النتيجة انقسامًا في الانتماء الشخصيّ. وهذا القلق نقلته السعاد قائلة : "انقسمت اللغة العربيّة إلى اثنتين وعشرين لغة... لكلّ لغة منها مفرداتها وأسماؤها، وإعرابها"[٣٥].

وتشرذم اللغة العربيّة يضعف الصلة بين المبدعين والمثقّفين في أقطارنا العربيّة، وهنا يكمن مقتلنا، عندما يبطل الخطاب الفكريّ بين المبدع والمبدع. فما هي الحلقة الأصيلة التي نأمل في توثيق عروتها لتعود إلى الحياة ؟

إنّ الذات العربيّة المتأصّلة في المناقب قد رحلت عمليًّا عن ساحة التصادم

(٣٣) في البدء كانت الانثى: صفحة ١٣٨ – ١٣٩ – ١٤٠
(٣٤) هل تسمحون، صفحة ٨٨
(٣٥) هل تسمحون، صفحة٨٨

الديناميكيّ الفكريّ، تاركة دورها ومفرّغة ساحات الفكر ومشوّهة أيّامنا بالخنوع والاستسلام والتبعيّة، ولكن يجب ألاّ ننغرس في تشاؤميّتنا، وانهزامنا، بل أن نستمدّ من إبراز الحقائق، وتجسيمها حافزًا على الرفض والتمرُّد، فالحلّ لا يكون بالانصياع أوالهروب بل في المواجهة من أجل تحويل التراكم الفكريّ والنفسيّ والتاريخيّ إلى حركة فاعلة متميّزة بالنوعيّة.





٢ـ هدم الأشكال

إنّ الانهيارات العربيّة تؤصّل في ذوات المبدعين العصيان والخروج، والرغبة في التغيير ليكتبوا تاريخ الفكر المتحرّر من التخاذل والاستسلام، متجاوزين قيود الشكل، والتضييق، بثورة تتمرّد على قبول العصمة، والصنميّة. فيكون الوصف للواقع تجاوزًا للسائد والمقبول، والمسلَّم به، وتأتي الكتابة طاقة تغيير، تدعو إلى عالمٍ فسيح من اليقين والثقة فيولد الشكّ والرفض ومن ثمّ القبول، فلا يواجه الواقع بالعرف السائد بل بالرؤيا الخاصّة التي تتمرّد على القيم العامّة المصنوعة والمسقطة على الحياة، وتكشف عن القيم المرتبطة بالجذور والجوهر.

إنّ رسم الانهيارات العربيّة في أدب الصباح، كان تأسيساً لهدم الأشكال المهترئة المشوّهة في جسد العروبة، ليلغي كلّ ارتباط بماضٍ غير الماضي العربيّ، والتخلّص من السقوط الكامل في عرفٍ غير عربيّ.

دعت الشاعرة المجتمعات العربيّة إلى رفض الذلّ والانكسار، والتخاذل، والجبن والخوف، فكان رفضها تفجيرًا لتراكمات اجتماعيّة وسياسيّة، واقتصاديّة، وامتدادًا لجذورٍ نفسيّة وتاريخيّة فاعلة في اللاوعي.

إنّ الحياة العربيّة – في رأي السعاد – ليست فارغة تمامًا، إنّها ما زالت تنبض بالخصوبة، إلى جانب الشكل الصحراويّ المتحجّر، وهي قابلة للحركة بالرغم من سكونيّتها، وسلبيّتها، إنّ كمونها الذاتيّ ينتظر غضبًا يفجّرها.

جعلت الصباح من الغضب عامل يقظة، فحيث تفصح النفس عن غضبها معبِّرةً عن سخطها،وعدم قبولها الشيء الجاهز المفروض، تكون الكرامة في خير، ويكون التحضير للهدم، دعوة لقلب المظاهر الاستسلاميّة وتغييرها بالخروج على القناعة والخنوع، والقبول السلبيّ، فتثور النفس بالاستفزاز، ورفض المألوف، والتخلُّص من النشوة الكاذبة المصطنعة.

إنّ الثروات الطبيعيّة التي يفترض وجودها تحسين الواقع الاقتصاديّ، والاجتماعيّ والسياسيّ، حوَّلت الشعوب إلى سبايا مضلّلة، ترى حرّيّتها في سبيها، ومنزلتها في استسلامها، واطمئنانها في جهلها، ولذلك تبقى التحوّلات اليقظة الفاعلة، والنزوع عن الاطمئنان الكاذب مرتبطة بإرادة الشعوب التي تتفجَّر غضبًا يهزّ المستنقع الآسن ويعيد إلى الحياة خصوبة العطاء والتفاعل :

اغضبي...
أيّتها الأرض التي أسكرها المال
وأعماها البطر
إنّني أرفض أن أعتبر النفط قدر
(...)
اغضبي أيّتها الأرض
فإنّ الأرض لا يفلحها إلاّ الغضب[1].

إنّ الغضب– في رأي الشاعرة – يفجّر طاقات المثقّف العربيّ ليثبت فاعليّة الذات العربيّة ومدى صمودها من أجل التغلّب على الواقع، فيتأصّل في انتمائه العربيّ، ويزاوج في ذات الأمّة بين رفض خارجيّ وداخليّ، لتتعالى هويّتنا الحقيقيّة

(١) فتافيت امرأة: صفحة ١٢٥ – ١٢٦

على الاستسلام، والانصياع. ويعيد الفحص بحثًا عن الضروريّ في ضوء الحاضر وحاجات إنساننا المعاصر، وشروط معاشه، وارتقائه ويؤجّج صموده الفكريّ رسالة الكلمة ويثبت دعائم قضيّته ويوقظ الطاقات ويفعّل ديناميكيّة الانتماء في النفوس والواقع والتاريخ، لإزالة الصدأ المصنوع من الذلّ، لتتربّع الكبرياء على عرش العزّة والكرامة.

لقد حاولت في شعرها أن تفعّل دور الشعر في مجتمعاتنا العربيّة التي تخلّت عن الفكر والثقافة. والكلمة وحدها هي القادرة على بثّ الحياة وتحفيز الطاقات لتتمرّد على واقعها الذليل، وتخلص من عيبها، وعبوديّتها، وانقيادها وتستعيد شعورها بالعظمة وبالكبرياء.

أيّها الشعر الذي
يُحرق بالكبريت أشجار السماء
يا الذي يأكل من قلبي صباحًا ومساء
يا الذي يحفرني حتّى العياء..
كيف ترضى موقف الذلّ،
أليس الشعر ابن الكبرياء؟ (٢)

إنّ للشعر في مفهوم الصباح فاعليّة جدليّة. ينتقل من الوصف الذي يرسم الحقائق ويخبر عن نتائجها، ويكشف بشاعتها، إلى حركة تختزل ضمير الإنسانيّة، وتنقل الشرارة التي تبدأ الفتح في طريق الثورة بحثًا عن حرّيّة فكريّة.

الشعر موقف من الإنسان، ودعوة إلى وقف الاختناق، بثورة تضجّ بالغضب لينكشف المجهول المحتجب بتراكميّة القمع والإرهاب.

(٢) فتافيت امرأة: صفحة١٦٦

والشاعر الحقيقيّ رصاصة معنويّة تصرع صنميّة العبوديّة الفكريّة، وتهزّ هيبة السلطة المخابراتيّة، لأنّه متّحدٌ بذاته الكبرى المتحرّرة من المصالح الشخصيّة الآنيّة، يتجاوز الأنا إلى كونيّة إنسانيّة شاملة. ومن كان هدفه المستقبل لا يرهبه التهديد والتعذيب والقتل، إنّ الحرف سيفه، والكلمة جناحاه، وبهما يتعالى على العروش والقهر والكبت، ويشقّ طريق التمرُّد.

فالشاعر مُطالَبٌ بتجسيد دوره، ونشر رسالته، وذلك بتحفيز قدرات وطاقات ابناء الحياة لينبذوا الذلّ ويخترقوا الظلام العربيّ نحو فجر المستقبل :

نحن طيورٌ مثقّفة لا تطيق
غسل الدماغ، وكسر العظام
ونحن حروفٌ مقاتلة
سوف تهزم بالشعر كلَّ عصور الظلام [٣].

إنّ الشعراء رسل الحياة والكرامة والإباء والمعرفة، إنّهم مفعَّلون بالرفض والحركة والتأثير، وغير مسموحٍ لهم بالتقصير في أداء المهمّة، أوخيانة الدعوة.

بهذه الفرضيّة تتوجّه نحو الشعراء، تحضّهم على أن يبقوا حلقة الوصل بين اللامرئيّ واللاملموس وبين الإنسان، وتحثّهم على أن ينقلوا رؤاهم بصدقٍ وأمانة وكبرياء، ويتعالوا على صغائر المادّة.

استخدمت الشاعرة أسلوب التساؤل الهادف إلى تفجير الرفض، بالخروج على الصمت ونبذ شهادة الزور التاريخيّة، والتعالي على تثبيت عصمة النظام والتأكيد على قمعيّته العادلة، وإرهابه المحبّب، وقهره المكرَّم، وذلّه المسلَّم به، واستعباده المقدّس فتخاطب الشعراء قائلة :

---

(٣) فتافيت امرأة: صفحة ١٥٢

لماذا يسكت الشعراء أمام الذابحين ؟

(...)

لماذا

تلمس الكلمة أقدام أمير المؤمنين[٤] ؟

تطالب الأديبة الشعراء العرب بأن يحافظوا على أصالتهم الفكريّة، ولكن بعيدًا عن التقوقع، والانغلاق، والجمود.

إنّ الحياة الجديدة تعرض عليهم نزع القشرة، والتفاعل مع ثقافات أخرى شريطة ألاّ نسقطها على فكرنا وحياتنا وثقافتنا، بل نتفاعل معها، ونفاعلها بنا، لأنّ الحياة اتّحاد عناصر في لحظة ما من أجل ولادة عناصر أكثر جدّة، ولكن لكلّ أرض، ولكلّ بيئة ظروف تثبّت الأنواع الملائمة للأرض والحياة.

إنّ الفكر العربيّ - في رأيها - قابل للتفاعل، ولكنّه ضدّ الذوبان وبالحرّيّة الحقيقيّة تتناغم حياتنا بثقافات متنوّعة نشدّها إلى أصالتنا ولا تقتلعنا من جذورنا، نجتذبها إلى فضائنا، ولا نسخّر فضاءنا لسيطرتها :

ويسعدني أن تظلّ بلادي

ملاذ العصافير من كلِّ جنس

وبيت المغنّين والشعراء[٥]

بهذه الرؤيا تجد في الشاعر إنسانًا مبدعًا، خلاّقًا يؤسّس لمجتمعٍ إنسانيّ مثاليّ، إنّه معلِّمٌ ثائر، ريادي، ومثال، يزرع مقوّمات الرفض، بانغراسه في مثاليّته

(٤) فتافيت امرأة: صفحة ١٦١
(٥) فتافيت امرأة: صفحة ١٥٢

وعصاميّته، وبنزوعه عن مواقف الذلّ والعبوديّة إلى فضاءٍ من الحرّيّة.

تقدِّم الصباح المجتمع الرؤيويّ مثالاً لتحرِّض بفاعليّته الذات العربيّة الخانعة لتثور على واقعها وتهدم أشكال تبعيّتها وليزداد ارتباطها بالأصل فيشاد على ما بقي صالحًا مجتمع جديد متطوِّر بتطوُّر الحياة؛ ينتزع حرّيّته بقدراته وطاقاته مهما كان الواقع القمعيّ مخيفًا وسيّئًا، ويخلق الحياة الطبيعيّة الحرّة الجميلة والكريمة من أعماق مأساته وقهره، وينطق بالحقّ والحقيقة مهما كان نوع العذاب والتعذيب.

هذا الشكل الجديد من أشكال هدم الأنقاض النفسيّة تستعين الشاعرة على تصويره بالمناجاة والتساؤل الاستنكاريّ في ظاهره والتقريريّ في مغزاه ومحتواه، بوجود فاعِلِيَّتَيْ المحبّة والرغبة في التعلُّم.

يا أحبابي
أرجو أن أتعلَّم منكم
كيف يغنّي للحرّيّة من هو في أعماق البئر ؟
أرجو أن أتعلّم منكم
كيف الوردة تنمو من أشجار القهر ؟
أرجو أن أتعلّم منكم
كيف يقول الشاعر شعرًا
وهو يُقَلَّبُ مثل الفرخة فوق الجمر [٦]؟

بالمعرفة تتجوهر النفس، وبالثقة تُقتحم الحصون، وبالإيمان تُدكُّ الأسوار القمعيّة، وعندما يتخلّص الشعب من خوفه ويعرف قيمة الحرّيّة، لا يقبل أن يموت

(٦)خذني الى حدود الشمس؛ صفحة ١٢٣

جائعًا، خائفًا، مذلولا، لأنّ الحياة الكريمة تصنعها إرادة الشعوب الكريمة. لقد حرّضت الصباح الشعوب العربيّة على القيام بثورةٍ حقيقيّة تشعل فتيلها الطاقات الإبداعيّة التي ترفض الخنوع والجمود من أجل تحويل الإنسان في مجتمعاتنا إلى طاقة تفجير تخلق المستقبل من نواتها الجوهريّة وتنفخ فيه من روح إبائها، وتقلب المفاهيم السائدة فيصير السجّان سجينًا :

إنّ الشعوب تسجن السجّان
وإنّها حين تجوع
تأكل القضبان [٧]

إنّ جيل الشباب العربيّ اليوم مطالبٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى باليقظة، والتسلّح بالرفض فالعالم يتسابق إلى تعزيز دور الإنسان، وتحسين أوضاعه، والإنسان فيه يسعى لينهض بمجتمعه بدءًا من ذاته.

أمّا الإنسان العربيّ فقد سكّنه الخنوع والرضى والاستسلام، إنّه يتوارث قوالب السهولة، ويرضى من الحياة بالعيش.

تحاول الأديبة أن تُحْدِثَ صدمة في نفوس أبناء اليوم بالسؤال الموجّه الهادف إلى إيقاظ الروح المتحرّرة من عبوديّة الجسد، والسائرة نحو كمالها بحرّيّة مطلقة وإباء وكرامة، رغبة في ولادة حركة ذاتيّة تتمرّد فيها النفس على استلابها الطوعيّ.

كانت الكويت المنطلق الأساس لنداء شباب المستقبل في عمليّة وجدانيّة متنامية تهدف إلى التصعيد من الجزئيّ إلى الكلّيّ فتأتي مخاطبتها لأجيال الكويت خطوة أولى نحو الحديث إلى جيلٍ عربيّ متكامل.

لأنّ الصرخة تبدأ من الذات الداخليّة ثم تنطلق بأثيريّتها وفاعليّتها، وذبذباتها

---

(٧) فتافيت امرأة؛ صفحة ١٣٩

نحو المحيط الأثيريّ الأقرب، من الأنا الذاتيّة، والكويت هي الأنا الذاتيّة الأولى للصّباح فهي تنطلق منها وبها إلى أناها العربيّة الأكثر شمولاً واتّساعًا.

فكان خطابها الأوّلي لأبناء الكويت دعوة لرفض الانقياد إلى الاستعمار الاقتصاديّ الذي أوجد استعمارًا نفسيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وذاتيًّا، فصار الإنسان العربيّ مقموعًا مرّتين، يقمعه الغزو الخارجيّ، ويقدِّم إليه إغراءات مادّيّة تلغي الإنسان فيه، فيقمع الإنسان العربيّ كرامته وإباءه وتمرُّده ليرضي نزواته وشهواته، بالسهولة، والقريب المتناول، وإشباع اللذّات.

تحاول الشاعرة أن تعيد هؤلاء الشباب إلى أصالتهم العربيّة، وتحضّهم على رفض غزو النفط لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، وذلك بعودتهم إلى أصالتهم وجوهرهم مفجِّرةً في نفوسهم عتب الأرض وغضبها ورغبتها في الخروج على استسلامهم:

هاتفًا: ماذا دهاكم يا بني الجيل الجديد ؟
فقنعتم بالرغيف السهل والعيش البليد
وقعدتم عن طلابي، وزهدتم في حياضي
أترون الذهب الأسود أصفى من بياضي[٨] ؟

تمتشق السعاد في مخاطبة الكويتيّين كلمة الحقّ وتعرّي أمامهم الحقيقة محفِّزةً روح الرفض للموروث الفكريّ الذي أساء إلى حرّيّتهم.

والرفض يجب أن يبدأ بالخروج على الشكل الحاكم العادات والحياة الجديدة، فيكون الشكل الأوّليّ للخروج في التخلّي عن الإعجاب بالذات في محاولة للوصول إلى نقد التصرّفات واستخلاص العبر من الأخطاء والتمسّك بالحسنات

(٨) أمنية: صفحة ٩ – ١٠

والافادة من نقد الآخر سعيًا إلى التحسين وخلق منهجيّة جديدة تساعد في تغيير طرق التفكير وأساليب التعاطي وجعله يعيد محاسبة نفسه في كلّ تصرّف يقوم به.

وعمليّة النقد الذاتيّ يلزمها رفض التقوقع والخوف، لأنّهما يلغيان التفاعل مع الذات ومع الآخر، والمجتمعات لا تحيا ولا تتجدّد إلاّ بتفاعلها مع مجتمعات أخرى فتحوّل ما تراه صالحًا إلى خصائص ذاتيّة في شخصيّتها وتراثها، على أن يكون التفاعل مع الواقع الجديد سياسيًّا، وإيديولوجيًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا لإثبات القدرات على مواكبة العصر: "يجب أن نتعلّم ويجب أن نتغيّر، ويجب ألاّ نخاف من مواجهة المرايا ومواجهة أنفسنا (...) ونخرج من قوقعتنا وأفكارنا السابقة، وخوفنا المزمن لنصبح جزءًا من إيقاع العصر ومتطلّبات النظام العالميّ الجديد[٩]".

إنّ العلاقة الجنينيّة بأرض الوطن هي التي تحدّد ارتباط الإنسان بأصالته، بكلّ ما فيها من قيم وأعراف وثقافة، وبقدر ما يكون هذا الارتباط الجنينيّ الأوّلي سليمًا، يخرج الإنسان من رحم التكوين الوطنيّ قويًّا، يستطيع أن يتفاعل مع واقعه ومحيطه، ويثبت فاعليّته الوطنيّة الأكثر اتّساعًا والأكثر امتدادًا، وكما أنّ الأشجار برهانٌ على أصل البذور، كذلك يأتي شكل ارتباط الإنسان بالتربة التي انفلقت عنها بذرته وتشقّقت "فالأصول عليها ينبت الشجر"، والشجرة المتشبّثة بارتباطها بالجذر تنشر ظلالها وأوكسجينها في الوطن الأوسع والأشمل.

ممّا لا شكّ فيه أنّ ذات الصباح قد تشكّلت من نواة فكريّة تاريخيّة عربيّة، بكلّ ما تحمل من أبعادٍ وطنيّة وإنسانيّة، وقيم وأعراف ومفاهيم وثقافات وحضارات، وهذه الذات استطاعت أن تجد متنفّسها في وطن العروبة الواحد فوحّدت بين ذاتها الكويتيّة وذاتها العربيّة، معلنةً تجذرنها وتمسّكها بالكويت، ومعتزّةً بارتباطها الوجدانيّ والوطنيّ بالعروبة.

هذا الشعور كان دائمًا يدفع بها إلى صرخة عربيّة شاملة توحّد بين جسد الوطن العربيّ ليشعر كلُّ جزء من أجزائه بألم الآخر، فيرفض الجزء انسلاخه الوجدانيّ

(٩) هل تسمحون: صفحة ٢٢١

والعاطفيّ عن الجسد الأكبر، لأنّ التقطيع النفسيّ هو نوعٌ من القتل المستمرّ الذي جاء قتلاً نفسيًّا أدخل الأجزاء في المهاترات، والاهتمامات الماديّة التي تلهي عن أهميّة الاهتمام الروحيّ والمعنويّ بالكلّ.

بالرؤيا عينها تحرِّض الكويتيّين على النزوع عن المظاهر الماديّة التي أوجدت لإبعادهم عن قضيّة الوطن الكبرى، وعلى الشعور بما يعاني منه أطفال لبنان، لأنّه بولادة الشعور الوطنيّ تكون الرغبة في الانضمام إلى جيش العرب لمواجهة الأخطار. وهكذا تأتي مناجاتها نوعًا من الصرخة الوجدانيّة المختزلة الحبّ والرفض.

يا بلادي
اخرجي من نشرة العملات.. والأسهم
وانضمّي إلى جيش العرب
إنّ في لبنان أطفالاً يموتون
وعرضًا يغتصب[10]

بالوجدانيّة الوطنيّة، وبالاعتزاز القوميّ تعلن ارتباطها وتمسّكها بعروبتها، وتأخذ من هذا الارتباط طريقًا لتحفيز العرب للتخلّي عن استسلامهم، ونزع القناع المزيّف الذي وضع على وجوههم، وخلع أشكال الخزيّ التي جعلت العواطف جامدة مشوّهة، أوبالأحرى تفقد حيويّتها التي تبعث الحركة.

تحاول الشاعرة تحفيز الذات العربيّة الخانعة والمستسلمة إلى عزلتها القوميّة، وذلك بتوليد الرغبة في طرح القضيّة كإشكاليّة تحتاج إلى النظر والتحليل، فتلقي في ركود العواطف وسكونيّتها سؤالاً يحرّك العناصر الحيّة الكامنة وراء مظاهر الجمود واللامبالاة.

(١٠) فتافيت امرأة: صفحة ١٢٦

وبطرح القضيّة تبيّن مساوئها، آملة التخلّص من واقعٍ جزّأ الجسد العربيّ، ففقدت الأجزاء اتّصالها الشريانيّ وبانقطاع الشريان تجمّدت دماؤها، وبتجميد الدماء غابت العواطف العربيّة تحت مظاهر إغمائيّة. ولكنّه في رأي الصباح إغماءٌ وقتيّ، تصدمه بإلقاء السؤال الثاني الذي يعيد بصدمته الذات العربيّة إلى وعيها "هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب" ثم تقدِّم الجواب الجوهريّ والحقيقيّ الذي تؤسّس عليه قضايانا وارتباطاتنا القوميّة، فيكون الجزء تجسيدًا للكلّ، ويكون ألم العضو الواحد مبعثًا لألم الأعضاء كلّها، وتشترك الأقطار العربيّة بمسؤوليّة واحدة في مقابلة تحدّيات العصر :

إنّني بنت الكويت
هل من الممكن أن يصبح قلبي
يابسا.. مثل حصانٍ من خشب؟
باردًا..
مثل حصانٍ من خشب؟
هل من الممكن إلغاء انتمائي للعرب ؟
إنّ جسمي نخلةٌ تشرب من بحر العرب
وعلى صفحةِ نفسي ارتسمت
كلُّ أخطاء وأحزان
وآمال العرب(١١).

إنّ العمل على خلق مناخٍ عربي يسوده التفاهم والإلفة والمحبّة والروابط القوميّة المشتركة والشعور بالمصير المشترك، يلزمه إزالة الخصومات العربيّة المفتعلة

(١١) فتافيت امرأة: صفحة ١٣٠

التي جزّأت العالم العربي، وجمّدت مشاعره وعواطفه، ويلزمه أيضًا قائد عربيّ لوحدة عربيّة تجمع وتقرّب وتوحّد، يجتمع حول رؤياه القوميّة وطروحاته الوحدويّة الأشقّاء العرب الذين يؤمنون بمصيرهم الواحد.

تطرح الصباح المشكلة، تحاول إيجاد حلٍّ لها، وفي الوقت عينه تحاول أن تردّ على أولئك المشكّكين اليائسين من الوحدة العربيّة، وترى أنّ العمل على تحقيق الأهداف هو الطريق الوحيد للخروج بنا من نفق الانقسامات والتشرذمات، فالرغبة في إعادة اللحمة القوميّة، وإغنائها بالحرّيّة والثورات الإيجابيّة والانفتاح الكونيّ، والازدهار والإشراق، لن تتحقّق إلاّ برفض الاستسلام للحزن واليأس "إنّ الأحزان قد تقتل الجبناء والضعفاء والمستسلمين، ولكنّها لا تقتل أبدًا من يؤمنون بربّهم، ووطنهم وقدرتهم على صنع الحياة" (١٢)

تقدّم الشاعرة نفسها كنموذج للذات العربيّة المتعالية على واقعها الانقساميّ والداعية إلى التخلُّص من يأسها، والتمسّك بالأمل والعمل على تحقيق مستقبلٍ ينهض بالأمّة العربيّة من تحت الخراب، وتلغى الرؤيا السرابيّة :

سوف أبقى دائمًا
أنتظر المهدي يأتينا
وفي عينيه عصفور يغنّي
وقمر..
وتباشير مطر
سوف أبقى دائمًا
أبحث عن صفصافة.. عن نجمة..
عن جنّةٍ خلف السراب..

(١٢) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ٢١٨

سوف أبقى دائما..

أنتظر الورد الذي

يطلع من تحت الخراب[١٣]...

إنّ عمليّة إعادة الالتحام القوميّ عمليّة صعبة ومعقّدة ولكنّها ليست مستحيلة، فهي تحتاج قبل كلّ شيء إلى تفعيل دور جامعة الدول العربيّة، لتكون مؤسّسة قوميّة ترعى مصالح العرب جميعًا، ويلتقي الرؤساء العرب تحت خيمة واحدة مصنوعة من المحبّة والتفاهم والتعاون، والتواصل الدائم، وخالية من الفكر النرجسيّ العربيّ الذي كان سببًا في الكوارث القوميّة، فيعمل الجميع كفريقٍ واحد له أهدافه وغاياته المشتركة.

إنّ دور الجامعة العربيّة هامٌّ جدًّا، ولذلك تحضّها الصباح على أداء دورها القوميّ الصحيح وهذا يقتضي رفضها لواقعها المفرَّغ من المعنى والمسؤوليّة، ونزوعها عن القبول بالشكل والظاهر لتؤسّس مهمّتها على دورٍ قياديّ يتحوّل فيه اللقاء العربيّ إلى ذاتٍ فاعلة في شكلها ومعناها، في الاسم والمسمّى، وبذلك تتخلّص الوحدة العربيّة من أهم أشكال شرذمتها وتباعد العضو عن العضو، لتتوحّد أعضاء الكيان العربيّ في بوتقةٍ مصيريّة ثقافيّة عربيّة إنسانيّة واحدة.

لقد نقلت رغبتها هذه في نقد الواقع المهيمن لخرقه والبناء على أصلٍ عربيّ صحيح وذلك برفض الحالة الراهنة التي شهدتها منذ تأسيسها: "فالجامعة العربيّة منذ تأسيسها عام ١٩٤٥، لم تكن أكثر من فندقٍ كبير يسكن فيه اثنان وعشرون نزيلا... لا يكلمون بعضهم، ولا يرون بعضهم، إلاّ في غرفة الطعام[١٤]".

وعندما يستطيع العرب أن يتخلّصوا من التجزئة والانقسامات، يتسلّحون بقوّة لإعادة أصالتهم والدخول مجدّدًا في " نادي التاريخ" ويلغى الواقع العربيّ الذي

(١٣) فتافيت امرأة: صفحة ١٣١

(١٤) هل تسمحون لي بأن احب وطني: صفحة ١٦٠

جعل "أمّتنا العربيّة ذات الأصول، والتاريخ والطبائع، والثقافة والحضارة الواحدة مجموعةً من (الأمم والقبائل) يذبح بعضها بعضًا، ويقتلع بعضها بعضًا، ويلغي بعضها بعضًا [١٥]".

وبالتخلّص من أمراضنا المفتعلة، والخروج على الواقع المزيّف الدخيل على أصالتنا تعود الأمّة إلى حقيقتها وجوهرها.

إنّ تصحيح الخطأ في رأس الهرم يبقى ضعيفًا ومهدّدًا بالسقوط إذا لم تكن القاعدة قويّة ومثبّتة ومتماسكة، فأيّ تفريغٍ للقاعدة يهدّد باختلال التوازن، وينذر بالتداعي والانهيار..

إنّ الوحدة العربيّة لا تعاني فقط من ضعف في أداء الجامعة العربيّة بل هناك أخطار أكثر تهديدًا لحقيقتها واستمرار جوهرها في مقاومة الهجمات الخارجيّة التي تستهدف البنية الداخليّة للمجتمع العربيّ، والتي تتناول المثقّفين من كلّ الشرائع. وهذا الخوف دفع بالصّباح إلى تحديد المخاطر الذاتيّة التي يفرزها الإنسان العربيّ بإرادته، ويراكم سلبيّاتها.

إنّ المثقّفين في كلِّ أمَّة هم ثروتها الحقيقيّة، والثقافة هي قلب الأمّة، وفكرها ووجدانها فحيث توجد الثقافة توجد الأمّة السائرة نحو نهضتها، وكلّما ترسّخ دور الثقافة والمثقّف اشتدّت قوّة الأمّة وتحقّق كيانها المتميّز.

ولكي تستعيد الأمّة العربيّة كيانها المتميّز، ودورها الرياديّ الفاعل يجب أن يتسنّى لمثقّفيها حرّيّة فكريّة، وممارسة عمليّة بعيدة عن القمع والإرهاب والتسلّط يستطيع معها المثقّف العربيّ إعلان رأيه وموقفه من الأحداث ومجرياتها بجرأة وصراحة، بعيدًا عن التملّق الذي يفقده كرامته ويجعله واقفًا ويقف في نقطة الوسط التي تمهره بصفة التذبذب ويكون أشبه بالمهرِّج.

ولذلك تدعو الصباح المثقّفين العرب إلى الابتعاد عن هذه المواقف الساخرة،

---

(١٥) هل تسمحون لي بأن احب وطني: صفحة ١٥٣

والتمرُّد على استلابهم الفكريّ، وإعلان موقفهم من القضايا الوطنيّة المصيريّة بصدقٍ وحرّيّة، لأنّ مواقفهم تفجِّر الكمون المحتجب وراء نفوس الشعوب الهاجعة بألم تحت نير استسلامها: "لا يمكن للمثقّف العربيّ أن يقف في نقطة الوسط بين الحرّيّة والعبوديّة وإلاّ تحوّل إلى لاعب سيرك[١٦]".

ومن المنطلق الفكريّ الثقافيّ نفسه تطالب السعاد بصحافةٍ حرّة، ترفض التسوُّل على أبواب الأنظمة، وتزوير المواقف، وتغيير الولاء، وتتمرّد على تبعيّتها وذيليّتها لتبقى "محتفظةً بنقائها وشرفها وعذريّتها[١٧]".

ولم تكتف السعاد بدعوة العرب إلى التخلُّص من التشرذم والتجزئة، ولا بحضّ المثقّفين على النزوع إلى ثورة فكريّة تقلّب مفاهيم المثقّف المهيمنة على إبداعه. بل تحثّهم أيضًا على التنبّه إلى الخطر الخارجيّ المحيط بهم، هذا الخطر الذي يهجم كذئبٍ يلبس لباس الحمل، والذي كان السبب الرئيس في انقساماتنا، وخصوماتنا وحروبنا، والذي كان في الماضي إرهابًا دمويًّا، واستعمارًا جغرافيًّا، وهو اليوم يأتينا بشكلٍ آخر إنّه الاستعمار الاقتصاديّ والتاريخيّ والفكري والحضاريّ، يظهر الإفادة ولعابه يسيل على ممتلكاتنا الطبيعيّة والفكريّة، فيطّلع على قضايانا بدقائقها وتفاصيلها في محاولة لتغيير جسد الأمّة إلى مجموعاتٍ صغيرة تتبع كلّ منها دولة لخدمة المصالح، هذه المصالح التي ترى فيها المجموعات المشتّتة ربحًا كبيرًا، ولكنّها في حقيقتها ما هي إلاّ عظمة تلقى، أولعبة للتسلية في وقت تبقى الدول المستفيدة من ثرواتنا متيقّظة للحصول على الأرباح والثروات الطبيعيّة والبشريّة، ولذلك تشترط على العرب إذا أرادوا الحفاظ على أمّتهم أن "يبقوا دائمًا حذرين، ومتحفّزين وأن يحاولوا قدر الإمكان أن يعتمدوا على جهدهم الذاتيّ، وتجميع قواهم المشتّتة، ومواردهم الكبيرة،

(١٦) هل تسمحون لي بأن احب وطني: صفحة ٩٦
(١٧) هل تسمحون لي بأن احب وطني: صفحة ١٤١

وطاقاتهم البشريّة الهائلة[١٨]".

بهذه الرؤيا تعتبر إسرائيل قنبلة موقوتة في خاصرة العالم العربيّ، ووجودها يجب أن يدفع بالعرب إلى الكثير من الحذر والدقّة، وتحصين الوحدة، والتمسّك بالأصل والجذر، وبالعمل على معرفة ما وراء القشور، والتحقّق من كيفيّة مجريات الأحداث في العمق، بعيدًا عن التلهّي بالسطحيّ المرئيّ، لأنّ ما يحاك في الخفاء، وما يخطط وراء أقنعة من الدهاء السياسيّ هو وراء الأشكال السياسيّة والوطنيّة والثقافيّة التي نشاهدها على مسرح الساحة العربيّة، تقول :

"إنّ إسرائيل هي لغم موقوت مزروع تحت أيّ قضيّة عربيّة، وهذا ما يدفعنا إلى الحذر والحيطة، وإلى مراقبة تحرّكات المياه الجوفيّة تحت الأرض العربيّة[١٩]".

ولم تنس أن تحرِّض الشعب العربيّ على الوجود الإسرائيليّ بخطابٍ يحمل في خلجات حروفه الرفض والتمرُّد والثورة، بالإضافة إلى صرخةٍ عربيّة لتوقظ العرب على أصالتهم ليقارنوها بأصالة الشعب الإسرائيليّ غير الموجودة، فتتحقّق فائدتان أوّلاهما التمسّك بالأصل العربيّ والاعتزاز به، ومعرفة حقيقة العدوّ لأنّ المعادلة العلميّة تقضي بالتعرّف إلى حقيقة العدوّ لاكتشاف نقاط ضعفه والتعامل معه على أساسها.

تنبّه الأديبة إلى وجود إسرائيل واستمرارها وتراه تدبيرًا أميركيًّا عمل على تجميع الشتات الإسرائيليّ المتعدّد القوميّات لتبقى في قلب الأمّة العربيّة فتنةً دائمة يسهل من خلالها اختراق قدرات العرب وطاقاتهم ليبقوا متشرذمين. ومهمّة العرب تقضي بأن يتسلّحوا بالرفض، والأصل لينتصروا على كلّ ما يخطّط لهم وذلك إيمانًا منها

(١٨) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ١٧٩
(١٩) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ١٧٥

بأنّ الدائرة تدور على الباغي، ولابدّ من أن يأتي فجر يومٍ جديد تشهد فيه بلادنا يقظتها العربيّة الواحدة والسلميّة، فتعلن باسم العرب التحدّي لإسرائيل وأميركا:

أجّجوا الحقد أيّها الأشقياء
لم تمت في عروقنا الكبرياء
من حنايا عروبتي رضع المجد
وكان العلا، وهان الفداء[٢٠].

إنّ الرفض في شعر الصباح يؤسّس لدعوة عربيّة قوامها تحدّي أبناء العروبة المتسلّحين بالحبّ والتآخي، ليوقظوا ما هجع في الذاكرة من قيم وأعراف أصيلة حيّة، ويثبتوا أنّنا شعب ككلّ شعوب الأرض، نبت متفاوت الأنواع والأشكال، ومختلف الأريج، ولكن إذا ما توحّدت الجهود بطاقات الحبّ وقدراته، تولّدت فينا قوّة لا تقهر تردّ جحافل الغزاة وهجمات التخاذل والانحطاط، فنحافظ على كرامتنا، ونخرج من المنفى الزمنيّ المستقرّ في الأذهان والوجدان والضمائر، وننفض عنّا خوف المسافة الزمنيّة التي تفصلنا عن الغرب لأنّنا بالسعي نختزل التباعد ونسعى لنكون جزءًا من إيقاع العصر ومتطلّبات النظام العالميّ الجديد، تقول في كتابها صقر الخليج:

"إنّ التحوّلات التي طرأت على العالم خلال العقد الأخير سياسيًّا، وإيديولوجيًّا، واقتصاديًّا، وثقافيًّا، تدفعنا إلى الخروج من تقوقعنا وأفكارنا السابقة، وخوفنا المزمن، لنصبح جزءًا من إيقاع العصر ومتطلّبات النظام العالميّ الجديد[٢١]".

والنهوض من الواقع وتجاوز قيوده يتمّ بالعمل على تأسيس واقع أشمل وأعمق وأغنى، وبالجهد يتحوّل مجتمعنا المنعوت بالنامي إلى مجتمع منتج يعتني

---

(٢٠) امنية: صفحة ١٨ – ١٩ – ٢٠
(٢١) هل تسمحون لي بأن احب وطني؟: صفحة ٢٢١

بحصاده الفكريّ، ويعطي لبعده الثقافيّ دفق الفعل الحركيّ المتجدّد، ويكون لهذه المجتمعات رقم عضويّة فاعل في نادي التاريخ [٢٢].

فنواكب بذلك الحضارة بجهدٍ ذاتيّ، وطاقات موحّدة بحذر واستعداد وإيمان، ونثبت إرادتنا في الحياة، ويتأصّل فينا إيماننا العربيّ، وعزّنا العربيّ وقدراتنا العربيّة غير المحدودة، فنعمل معًا لخلق رؤىً مستقبليّة متجدّدة لأبنائنا تجمعهم تحت راية الوحدة العربيّة.

وبقاؤنا على مسرح الحركة العالميّة وفاعليّتنا عليه وبه، مرتبطان بقدرتنا على تطويع مجتمعاتنا وحكوماتنا لتتبنّى القوانين والحقوق الإنسانيّة التي أوجدها المجتمع العربيّ لخدمة الإنسان وسعادته، واحترام حرّيّته، وتحقيق العدالة والمساواة فلا يبقى وجود لأيّ نظام يقهر الإنسان ويستعبده ويحوله إلى فتافيت إنسان[٢٣].

لقد بقي الأمل متوهّجًا في نفس الصباح، لم تشوّهه بشاعة الواقع، فالمستقبل في نظرها يعد بوحدة الأحلام العربيّة يقودها مهديّ مارد خارج على المألوف، يعرّض صدره للحربة وجبينه للّطمة وينهض بالمتهاونين الذين عفّروا جباههم على أعتاب المماليك ويحمل إلى شعبنا السلام النفسيّ، والحرّيّة والخصب، ورؤى الولادة الجديدة.



(٢٢) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ١٦٦
(٢٣) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ١٦٥



٣ ـ الحلم والرؤيا

الحلم شكل من أشكال الرؤيا يخترق الواقع إلى ما وراءه، ويتجاوز المرئيّات رغبة في معرفة الغيب وكشف أسراره التي تتوق النفس إلى معرفتها ومعانقتها.

ومعرفة الغيب هاجس النفوس التوّاقة إلى التحرّر من ضيق المادّة وقيود الحاضر وبالحلم تحقّق الذات هامشًا من حرّيّتها تمارس فيه ملامسة لمحة من لمحات الغيب.

إنّ المقدرة على ملامسة أسرار الغيب، ونقلها إلى الواقع، ورسم أشكالها كما تبدّت للرائي، ليست على درجةٍ واحدة فهي متفاوتة من شخصٍ إلى آخر، وبهذا التفاوت وطريقة النقل يكمن التمايز والفرادة.

إنّ الحلم تعويضٌ نفسيّ داخليّ تركن إليه الروح، وتطمئنّ إلى ما يحقّقه من انعتاق واستباق، فهو مظهر من مظاهر الإبداع والابتكار غير المرئيّ إلاّ بالعين الثالثة، وغير الملموس إلاّ بالحاسّة السادسة، وبقدر ما تكون الفاعليّة الرؤيويّة غيبيّة متحرّرة تستطيع أن تنقل نبوءاتها بصدق وشفافيّة بعيدًا عن قمع الوعي وإرهابه. وبالتالي إنّ أشكال الحلم لا يمكن فصلها عن الواقع، إنّها مستمدَّة من جوهره ولكنّها تخالف الملموس والمرئيّ، ترتبط بالمعروف والقريب من حيث المبدأ، وتتجاوزه وفقًا للطموح الذي يلهب النفس إلى الانعتاق ويحرّرها من عبوديّة القبول.

إنّ الطموح إلى خلق المثال وتجسيده، يمكن اعتباره القوّة الخفيّة التي تسهم في تشكّل الحلم، واكتشاف المجهول، ومعانقة المرغوب، وإيجاد المستوى الذي تطمح النفس إلى ملاقاته أوالحصول عليه أوالعيش فيه.

والشعر الحقيقيّ هو نوع من رؤيا الغيب يكشف طموحات الشاعر، ويفسّر عواطفه الإنسانيّة، ويعلن عن خلق عالم من المثل والقيم تصبو النفس المرهفة إلى وجوده فترسم إحداثيّاته، وتحدّد مستوياته أو أوصافه انطلاقًا من أفكاره وأحلامه وتصوّراته.

فعمليّة الحلم تبنى على تصوّرات مسبقة، وتكون نتيجة حقائق واقعيّة ملموسة، أقرَّ بها العقل الواعي، وتعامل مع مجرياتها الملموسة بقبولٍ ظاهريّ ولكنّها مرفوضة من حيث الاقتناع والاعتراف الضمنيّ، فيأتي الحلم العربيّ لينقض ما يراه غير مناسب لطموحاته، ويؤسّس لمعطيات أخرى يرى فيها التوافق والمثاليّة.

لقد رسمت الصباح بشعرها الأنماط العربيّة المتنافرة، والمفرّغة من معانيها ومسمّياتها، ودعت إلى هدم الصنميّة السياسيّة والفكريّة التي استعبدت الشعوب العربيّة وسيّرتها في تبعيّة وثنيّة خانقة ولكن لم يكن هدمها نوعًا من الترهيب والتخريب بل كان هادفًا إلى تأسيس نواة مجتمعٍ عربيّ تلقَّح بقدرات وطاقات أبناء العروبة ليولد المستقبل العربيّ المتميّز بأبنائه والمتجدّد بقدراتهم.

هذا المستقبل الذي تحلم السعاد بخلقه، وتجسيده، تستمدّ مقوّماته الأوّليّة من جذور الأصالة العربيّة، لتبني على الأصول الحياة المستقبليّة بكلّ قيمها الإنسانيّة والحضاريّة، المنبثقة من جوهر انتمائنا، والمتفاعلة مع تطلّعات شعوبنا وطموحاتهم، وهذا المستقبل أساسه شباب عربيّ واعد يجسِّد العنفوان القوميّ، والأصالة العربيّة، والحساسيّة القوميّة المرهفة والثقافة، والقيم العربيّة بفطرتها وجوهرها. إنّهم سهام أقواس الأصول والجوهر متنمّرون باتجاههم نحو الغد، وبارتباطهم بالماضي المضيء، هويّتهم الانتماء الصحيح، والحماسة، والقدرة،

والحذر، والأمانة، وتحمل المسؤوليّة.

تخاطب الصباح الشباب العربيّ من خلال النداء الوجدانيّ الذي تطلقه إلى أبناء الكويت محفِّزة فيهم النهوض والتخلّي عن القشور والمظاهر، وتحفّز طاقاتهم، وتأتمنهم على الحاضر والمستقبل.

يا شبابي... إنّ فيكم كلَّ آمالي الرفيعة
وبلادي بين أيديكم تراثٌ ووديعة
انهضوا... لا النار ولا البترول في أيدٍ أمينة
لا... ولا أنتم على وعي بأطماعٍ دفينة
اطرحوا كلَّ بريقٍ وتناسوا كلَّ زينة
واجعلوا أيديكم درعًا على الحقّ أمينة [1]

إنّ البناء لا يكون سليمًا إلاّ إذا قام على معرفةٍ صحيحة وسليمة في العمق الجيولوجيّ البنيويّ لتركيبة الأرض التي يبنى عليها. فكلّما كان الارتباط بالأساسات حقيقيًّا جاء البناء أكثر قوّة وتماسكًا مع مراعاة ترابط الأعمدة ونوعيّة المواد.

والبناء القوميّ الصحيح لا يكون قويًّا متماسكًا إلاّ إذا أسّس له على أصولٍ وطنيّة قويّة، ترتبط بالجذر والأصل العربيّ، مع الاهتمام المطلق بالعلاقات الجوهريّة التي تعمِّق الترابط القوميّ، وتقوّيه، وتزيد من متانة الشكل الهرميّ لقوميّتنا، وتمنحه اتّحاد الظاهر والمعنى في الإشارة إلى وحدة في الشكل والمضمون، تستطيع معها أمّتنا أن تستعيد ذاتها ومركزها الحقيقيّ في نادي التاريخ.

لقد وعت الصباح أهمّيّة ارتباط الفرد العربيّ بوطنه الجزئيّ المحتوى في وطنه

---

(١) إليك يا ولدي: صفحة ٦٧ – ٦٨.

الكلّي، فتمخّض حلمها العربيّ عن رؤى لمستقبل عربيّ حقيقيّ، مؤكّدةً على ارتباط الأفراد بأرض الوطن الصغير كخطوةٍ أولى ليخرج إلى وطنه الأوسع أكثر قوّةً وتماسكًا. وهذه المواقف القوميّة تعكس انصهارها الوجدانيّ بعروبتها، جسدًا، وفكرًا، وعاطفة، لأنّ إيمانها بالهويّة العربيّة لم يكن فكرة تتبنّاها، أو آراء خارجيّة تسقط على واقعها، لتؤمن بها أوترفضها.

إنّ الهويّة العربيّة هي القدر الوجوديّ الحقيقيّ الذي كان هاجسًا يوميًّا عاشته الصباح مع عائلتها وزوجها الشيخ عبد الله مبارك والذي كان يردّد دائمًا: "إنّ الكويت جزء من الوطن العربيّ[٢] "، وتذكر الدكتورة سعاد أنّه كان دائمًا يؤكّد على انتمائه العربيّ نتيجة البيئة التي يرى فيها شعوره القوميّ الذاتيّ ويردّد أمامها "إنّ بيتنا هو بيت العرب، وكان يلقّب كلّ بيت نسكن فيه باسم «قصر العروبة» وكتب على علم الكويت الكويت بلاد العرب[٣]".

فاصطخبت في نفسها أحلامها العربيّة، ولكنّها لم تتخلَّ عن ارتباطها الوريديّ بالرحم الأول الذي وهبها الحماية، والأمان فيزهر ارتباطها بالكويت اعتزازًا وفخرًا مقرونًا بالوعي القوميّ، وتحاول إيقاظ الشعور الوطنيّ الحقيقيّ في أبناء الكويت، تذكّرهم بالأصالة الكويّتية والعودة إليها والتمسّك بها ليخرجوا إلى وطنهم بدعوتها إلى الإنطلاق من الارتباط العاطفيّ الكلاميّ إلى العمليّ المنطقيّ المبنيّ على المعرفة العميقة بالتاريخ والاعتزاز به. فتتولّد علاقة تكافوئيّة بين الوطن وكرامة المواطن، لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر فحيث يكون الوطن تكون كرامة الفرد وحيث تكون الكرامة الفرديّة يتمجّد الوطن، ويثبت دوره الحضاريّ.

تحاول الصباح ترسيخ علاقة مبنيّة على عاطفة وجدانيّة مقرونة بعاطفة عقليّة معرفيّة مستمدّة من جذور التاريخ، فالشعب الكويتيّ شعب تأصّلَتْ فيه الحياة

---

(٢) صقر الخليج: صفحة١٣١.
(٣) صقر الخليج: ١٢٣.

الحرّة الكريمة وكان رمزًا لتحقيق ذاته الحرّة فتجتاز الصعاب من أجل تعميق الارتباط الوطنيّ الوجدانيّ المنغرس في التاريخ النفسيّ والوقائيّ.

كويت كويت
أشيلك
حيث ذهبت حجابًا بصدري
(..)
هنا.. ابتدأت رحلة السندباد
هنا.. وردة البحر قد أزهرت
وراح ابن ماجد
يقطف نجما.. ويزرع نخلا..
ويخلق في لحظات التحدّي بلاد [٤].

أكّدت الصباح في شعرها أنّ ارتباطها بالكويت لم يكن عاطفيًّا فقط بل كان مقرونًا باعتزاز مبنيّ على تاريخ، وحقائق وأحداث، فأثبتت أن الكويتيّين صنعوا تاريخهم بالعزّة والكرامة والعنفوان وهذه العزّة يجب أن تنتقل بشكلٍ طبيعيّ إلى أجيال الحاضر والمستقبل، فيتثبّت ارتباطهم بأرض الكويت أوّلاً، ثم يخرج الكويتيّ إلى انتمائه الخليجيّ بثقة وإيمان لأنّ الشجرة إن لم تكن قويّة الجذر لا تستطيع أن تتفاعل عضويًّا ومعنويًّا مع مناخ البيئة المفتوح، وبذلك ترى الشاعرة أنّ انغراس المواطن الكويتيّ في أرضه يعطيه القوّة المعنويّة ليزداد تفاعله مع الوحدة الخليجيّة فيبلغ مستوى الوحدة العربيّة بثقة ووعي.

تجعل السعاد من علاقتها بالكويت والخليج العربيّ والأمّة العربيّة مثالاً

(٤) برقيات عاجلة الى وطني: صفحة ١٧ – ١٨

للمواطن العربيّ الذي يجدر به التوحيد في أعماق وجدانه بين أرضه الصغرى وأرض العروبة الأشمل والأعم والتي من دونها تبقى أوطانها الصغرى بلا غطاء ولا تعاضد ولا تساند، فيفقد العضو الصغير فاعليّته بانفصاله عن الجسد الأمّ.

كويتيّة أنا بنت الخليج
وصاحبة الهامّة العالية
وملء دمي مجد آل الصباح
ومنهم بناتي وأبنائيه
(...)
ولا تقطعوا الرحم المرتجى
لمستقبل الأمّة الغالية[٥].

تظهر الصباح في محبّتها للكويت عمقًا عربيًّا يوحي بطاقات روحيّة وفكريّة، تطمع إلى وجود عربيّ، وتبشّر بخصب الحضور القوميّ، وبالحبّ، والحدب والتأصّل المؤسّس على العطاء، والحنان، والمشاركة.
تشكّل الكويت في شعرها الملتقى الدافئ للعرب الأشراف، وترسمها رمزًا للمحبّة والصمود وخيمة أمان، وملجأ. إنّها في ضميرها ووجدانها وعقلها مزارٌ روحيّ، وجزيرة حرّيّة:
"ويسعدني أن يكون تراب بلادي مزار البنفسج والشهداء وسقفًا لمن تركتهم حروف العروبة دون غطاء ويسعدني أن تظلّ بلادي جزيرة حرّيّة رائعة[٦]".
إنّ حلم الصباح الكويتيّ حقيقة تنقلها إلى أبناء الكويت ليبنوا عليها المستقبل الأعظم والأجمل، فالكويت في وجدانها، بلد السلام، والحرّيّة والجمال،

---
(٥) الى ولدي: صفحة ٧٤ – ٧٧
(٦) برقيات عاجلة الى وطني: صفحة ٢٣

والرؤى، وأبناؤها مسكونون بالحركة والإبحار يركبون الأخطار، ليقطفوا المجهول، والمستحيل، وليسخروا المعاني المحتجبة وراءها من أجل الوطن وأبنائه فهم عنوان أصالة واستباق وريادة، ويجسّدون انفتاح الكويت وجوهر اللؤلؤ المخزون في مياهها، هذا المخزون الذي يحفّز في أبناء الكويت الرّغبة في خوض المغامرة والكشف، وحيث تكون المغامرة يمكن الكشف، وبالكشف تتجوهر النفس بمعرفة الأسرار.

إنّ الشاعرة تؤكّد انتماءها إلى أرض الكويت، وتحرِّض الشعب الكويتيّ على التمسُّك بالصفات الفطريّة التي منحتها الكويت لأبنائها فيتجسَّد حلم الأرض اللامتناهي:

إنّني بنت الكويت
(..)
في عيوني تتلاقى
أنجم الليل وأشجار النخيل
من هنا.. أبحر أجدادي جميعًا
ثم عادوا يحملون المستحيل
(..)
ومع اللؤلؤ في البحر ترعرعت
ولملمت محارًا ونجوما..
(..)
وجدودي اخترعوا الأمواج.. والبحر..
وموسيقى الرياح

صادقوا الموت.. فلا الخيل استراحت

من أمانيهم

ولا السيف استراح [٧].

لم تأخذ الكويت في شعرها شكلاً عربيًّا فقط بل كانت أكبر من حلمها الإنسانيّ المنبثق من العدل والمساواة بين البشر، فالكويت والخليج، والعالم العربيّ، والكون إنسانه واحد وحقوقه واحدة وهي في ضميرها ووجدانها تحمل قضيّة الإنسان أينما كان. والإنسانيّة الكونيّة هذه تبدأها الصباح بإنسان بلادها الذي يشاركها المصير الواحد.

أنا الخليجيّة

التي تقاتل بأظافرها

من أجل أن يكون الخبز للجميع

والمطر للجميع

والحبّ للجميع[٨]

والشموليّة الإنسانيّة تأخذ بعدًا إنسانيًّا ذاتيًّا عندما تعلو في ضمير الكون آهة قطر عربيّ فتختزل الكونيّة المطلقة بالأنين العربيّ الذي تبدأ علاقتها بالعالم والآخرين منه.

عندما تضرّج لبنان بدماء الحرب المفتعلة، ظلّت الصباح مؤمنة بقيامته وحضارته، وعظمة إنسانه القدموسيّ، وجعلت من شعرها بطاقة محبّة وتاريخ، تنقل من خلالها إلى العالم العربيّ حقيقة لبنان، الذي كان المتنفّس الحقيقيّ لأبناء

---

(٧) فتافيت امرأة: صفحة ١١٧ – ١١٨ – ١١٩

(٨) فتافيت امرأة: صفحة ٥٤

العروبة والذي يشهد له التاريخ بأصالة جذوره الممتدّة في أعماق التاريخ سواء أكان ذلك على المستوى الحضاريّ أم الثقافيّ.

تضمّن كلامها شواهد من الأدمغة اللبنانيّة التي أتحفت العالم العربيّ بالفكر، وخلّدت الأدب العربيّ المعاصر كجبران وبشارة الخوري (الأخطل الصغير)، ثم تركّز على الجانب التاريخيّ المضيء فلبنان منذ كان مهد الحضارات، ورمز التفاعل الثقافيّ والمدنيّ والاقتصاديّ.

أكّدت السعاد من خلال كلامها على التاريخ ثقتها بلبنان وبشعبه هذه الثقة التي جعلت بيروت أكبر من موتها.

بهذا الحلم الرؤيا المرتبط بواقع التاريخ والحضارة والمجاوز الواقع الراهن في بحثٍ عن الصورة المثلى،وعن الشكل الأعظم تؤكّد الشاعرة على قيامة لبنان الفينيق من تحت الرماد.

سبعة عشر عاما.. مرّت على حريق بيروت..
ولا تزال أكبر من موتها..
وأكبر ممّن دمّروها وأحرقوها
سبعة عشر عامًا تحت ألسنة اللهيب
ولا تزال تتوهّج تحت الرماد
كسبيكة الذهب..[٩]

في زمن الانهيارات العربيّة سقطت بيروت تحت حمم التناحرات والمنازع والأهواء الأنانيّة. سقطت ولكنّها ظلّت حنين أصالة وتوق حلم في نفس الصباح.

في زمن رديء ندب الشعراء بيروت وتخلّى عنها عشّاق البحر والحرّيّة،

---

(٩) خذني الى حدود الشمس؛ صفحة ١٠٤

واللاهثون وراء عصافير الفرح؛ حملت الصباح عذريّة بيروت في وجدانها ورسمت الرؤيا حلمًا يتوهّج بالقيامة متعاليًا على الاعتراف بسقوط بيروت أو بجغرافيّتها المحدودة. إنّ بيروت أبعاد من دون نهايات، وهذا الحلم الحقيقة تريد ان يتمسّك به اللبنانيّون والعرب.

ليس صحيحًا
أنّ بيروت يحدّها البحر من الشرق
والجبال من الغرب
إنّها مدينة لا نهايات لها
تمامًا لا نهايات لها
تمامًا كالحلم.. والشعر.. والحرّيّة (١٠).

بالحلم الرؤيا تنكشف بيروت أمام الصباح بكلّ تجليّاتها، ارهاصاتها، فبيروت الحقيقة المطلقة المثاليّة، فوق الاقتتال، يجب ان تبقى في الضمير الملجأ والمأوى للمثقّفين العرب.
في الحلم الحقيقة تخترق السعاد الواقع وترسم بيروت وهي ترتفع فوق الجرح، وتمزّق السطحيّ وتتخلّص من قمقم المصطنع بكامل فاعليّتها وحيويّتها الأصيلة، فإذا هي بيروت الثقافة، والحضارة والعطاء، والمشرب الفكريّ.
إنّ حلم الشاعرة ليس خياليًا او اضغاث احلام. انّه منغرسٌ في عمق الذاكرة العربيّة الاصيلة، وحقيقة اختبرتها الشعوب العربيّة والعالميّة، ولذلك تحثّ الصباح المجتمعات العربيّة على احترام بيروت وتقديم الشكر لها لما قدّمته من ثقافة فتعلن عن مجيئها للتعبير عن ولائها لبيروت الشعر والحياة، لتذكّر العالم بفضل

---

(١٠) خذني الى حدود الشمس: صفحة ٩٧.

اللبنانيّين عليهم يوم انطلق الحرف معلّما من شواطئه، وهذا الحرف الذي تدين له حضارات العالم بأسرها ولتؤكّد على الدور الحضاريّ الذي لعبه لبنان من خلال موقعه الجغرافيّ.

آتي لكم مشتاقة
كي اشكر الحرف الذي ثقّفني
وأشكر البحر الذي
إلى حدود الشمس قد أطلقني
(...)
بيروت يا شفّافة العينين
يا لؤلؤة بحريّة
يا مهرة تصهل في ملاعب الحرّيّة
يا وردة قد تركت أوراقها... وعطرها
وأصبحت قضيّة [١١]

لم يكن لبنان في شعرها مسرح ثقافة، وأصالة وحرّيّة فقط، بل ظلّ في ضميرها نبض حياة كريمة، وعظمة، وبطولات.

جعلت السعاد من الجنوب الحلم الاجمل للقضيّة العربيّة، هذا الحلم الذي يثبت كلّ يوم النضال، والعنفوان، والعزّة، والنخوة والتجدّد. الجنوب الصامد الذي لم ترهقه المدافع، بل ظلّ اكبر من أيّ إرهاب أو استعمار أو قمع، ظلّ في حالة من العطاء المادّيّ والمعنويّ حيث فجّرت الارض الجنوبيّة في صمودها معاني الشهادة والحياة والتفرّد النضاليّ.

(١١) خذني الى حدود الشمس، صفحة ١٣٢ – ١٣٧

آتي إلى الجنوب
حيث الارض تنبت الليمون، والزيتون
والأبطال..
وتنبت العزّة.. والنخوة.. والرجال..
آتي إلى الجنوب
كي أقبل السيوف، والخيول، والنضال..
وفي فمي سؤال:
هل أصبح الجنوب وحده.. قاعدة النضال [١٢]؟

لم يكن لبنان في شعر الصباح عاطفةً وحسب بل نقلته حقيقة تاريخيّة، وأصالة ثقافيّة، متجاوزة نظرة الآخرين اليه، بأنّه بلد الاستجمام والحرّيّة، وعندما تفقد الغايات تلغى العلاقات.

لقد ظلّ لبنان النبض الحيّ في وجدانها ولذلك جاء موقفها من الحرب اللبنانيّة عاطفيًّا وعقليًّا تضبطة بفاعليّتي الوعي واللاوعي، تناجيه عاطفيًّا وتبحث عن أسباب المشكلة في محاولة جريئة لعرض حقيقة القضيّة اللبنانيّة على مسرح الكون، فحمّلت الصراع العالميّ مسؤوليّة ما يجري على الساحة اللبنانيّة لأنّه صراعٌ مفتعل تقف وراءه اسرائيل ومن يساعدها لتبقى القضايا العربيّة عالقة من دون حلّ، ويظل الوطن العربيّ ساحة صراع للمنازع والاهواء العالميّة، معتبرة وجود اسرائيل عقبة في طريق الوحدة العربيّة.

تستخدم في كلامها اسلوبا شرطيًّا معرفيًّا لجواب تحثّ من خلاله العالم العربيّ على وعي وفهم حقيقة المشكلة الأكثر صعوبة وتعقيدًا في حياة الامّة، وتقول:

(١٢) خذني الى حدود الشمس؛ صفحة ١٤٤.

"إذا كانت القضيّة اللبنانيّة قد بقيت بلا حلّ... واذا كان السّلم اللبنانيّ سوف يبقى مستحيلاً طالما أنّ اسرائيل مزروعة في خاصرة لبنان الجنوبيّ (...) فكلّ ذلك من بركات السيّدة اسرائيل.[١٣]

بالحلم الرؤيويّ الفاعل جسّدت القضيّة الفلسطينيّة، ورأت أنّ الشعب الفلسطينيّ العربيّ، قد وقّع حقّه في الحياة بشهادة الدمّ، فكان موت أطفال فلسطين وشبابها شهادة حياة. قهروا الموت بالموت وبعثوا في الكون وهج حياة رسموا فضاءها بشوق الى الحرّيّة، حرّيّة تضع الشكل الآتي للجسد العربيّ، المفعم بالطاقة والعنفوان والإباء والشموخ، فتآلّفت البطولات سيمفونيّة خلود كونيّة تخبر عن ملاحم الأرض المقدّسة التي نظّمها شعب فلسطين بالإباء والشموخ والدمّ والفداء والعزّة والكرامة والإيمان المطلق بالانتماء القومي محوّلين الكلام والمناظرات والخطابات الى قوّة فعل تخلق الحياة الكريمة:

تلك سمفونيّة الأرض العظيمة
تتوالى..
تتوالى
مثل ضربات القدر
مرّة في بيت لحم
مرّة في غزّة
مرّة في الناصرة
(..)
تلك سمفونيّة الأرض المجيدة
تتوالى.. تتوالى

(١٣) هل تسمحون لي بأن احب وطني؛ صفحة ١٧٥

مثل ايقاع النواقيس
وموسيقى القصيدة
تحمل البرق الينا والمطر
أحرقت أوراق كلّ الأدباء
خلعت أضراس كلّ الخطباء
ورمتهم في صقر[١٤]

ترى الشاعرة أنّ الاجيال الفلسطينيّة تنصهر في فعل ثوريّ، تمارسه غضبًا ورفضًا للواقع المستلب لتخلق من عمق ثورتها مستقبلها الذي تفعل اشكاله من تحت رماد الحاضر، لتفرض حقّها على أرضها، بسلاح الرفض والتحدّي مدمّرة هيمنة السلطة القمعيّة والارهابيّة ومتجاوزة الحصار الروحيّ والتاريخيّ، بالانغراس المعنويّ في الأصل الذي يبنى عليه الحلم الآتي.
إنّ ما تفعله الأجيال الفلسطينيّة حلم حقيقيّ تخطّى أحلام الشعراء، وقتل الخرافة المزعومة بأنّ اسرائيل قوّة لا تقهر، وأثبت للعالم أنّ الحجر في أيدي الأطفال أكثر فاعليّة من مدفع، لأنّها أيدٍ مباركة بكلمة الحقّ كما جاء في قوله تعالى:

"ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون" [١٥]

أيدٍ مفعّلة بالارادة والايمان، تحمل الخير والبركة وتصنع أشكال مستقبل الزمن العربيّ؛

(١٤) خذني الى حدود الشمس: ١٤٩ – ١٥١
(١٥) سورة يونس: آية ٨٢

(..)

إنّ اسرائيل بيتٌ من زجاج..

وانكسر..

ها هي الأخبار تأتي كالفراشات الينا

خبرا.. بعد خبر..

حجرا.. بعد حجر..

فعلى اجفاننا قمح، ودفلى، وورود

ها هم أولادنا

يضعون الشمس في اكياسهم

يبدعون الزمن الآتي.. يصيدون الرعود..

ويثورون على ميراث عاد .. وثمود ..[16]

إنّ الذات العربيّة المتأصّلة في ضمير التاريخ والكون استمدّ منها اطفال الحجارة فاعليّة المعرفة الوطنيّة والقضيّة القوميّة، فكانت معرفتهم انتصار الجسد على القمع والارهاب من جهة، وكشفًا لجوهر الفرد العربيّ، وتقريرًا لعواطفه من جهة ثانية.

تقمّصت الذات الفلسطينيّة المتمرّدة مثلنا وقيمنا الأصيلة والعريقة، وجسّدت ذاتًا جديدة ثائرة لها خصوصيتها وقيمتها ووجودها، ومعرفتها، وقدرة السيطرة على الاذلال الجسديّ والغزو النفسيّ فتجلى طموح الشعب الفلسطينيّ في طرح قضيّته ومحافظته على ذاته االقوميّة، والهويّة العربيّة طاقة تحدّ وخلق تثبت حقّه وقدرته على تخطّي الصعاب وتجاوز المحن فأكّد للعالم أنّ الذات العربيّة تتمتّع بكمون حركيّ مقنّع بالايمان يقتحم ابواب الموت ليصنع قراره وقدره وتاريخه ومستقبله، فتتساقط أمام الفرد العربيّ كلّ

(١٦) خذني الى حدود الشمس: ١٥٢ ١٥٣

الشعارات والخطابات والتهديدات، ليكون فعل الحجارة إرادة، وثورة الجسد قصيدة خالدة أسمى وأعظم من كلام الشعراء.

فاستقيلوا يا كبار الشعراء

ليس للشعر لدينا سادة أو أمراء

إنّ للشعر أميرًا واحدًا يدعى الحجر [١٧]

لقد أثبتت في شعرها وتحليلها ما قاله الواقع أنّ الثورة ليست كلامًا بل عمل مجسّد، وبالتالي فإنّ تحرير فلسطين يجب ان يتحقّق بوضع استراتيجيّة عربيّة موحّدة والتركيز عليها وتوحيد جميع الطاقات العربيّة في شتّى الميادين، لأنّ القضيّة الفلسطينيّة – في رأيها ورأي الشيخ عبد الله مبارك – "تستحقّ تعبئة كلّ الامكانات العربيّة تعبئة كاملة من أجل إعادة الحقّ إلى أصحابه[١٨]"

إنّ شعور الصباح القوميّ المؤسّس على علاقة حقيقيّة بالعروبة كان انعكاسًا لطبيعة العلاقات القوميّة التي جسّدها الشيخ عبد الله مبارك في تواصله الدائم والفاعل مع الدول العربيّة[١٩] وكان يؤكّد دائمًا على حسن هذه العلاقات وعدم التمييز بين قطرٍ عربيّ وآخر قائلاً: " لا فرق عندي بين عراقيّ ومصريّ أو كويتيّ أو لبنانيّ، فكلّنا إخوان تربطنا رابطة العروبة [٢٠] " ؛ وكان يعبّر في مقابلات صحفيّة وتلفزيونيّة عن انتمائه الى القوميّة العربيّة ويظهر رغبته في تضافر الجهود العربيّة ولا يميّز بين قطر وآخر في شكل الانتماء أو أهمّيّته يقول مثلاً: "إنّ الكويت وسوريا بلد واحد في عروبتهما وايمانهما وتطلّعهما الى النهضة والحضارة، وما

---

(١٧) خذني الى حدود الشمس: ١٥٠
(١٨) صقر الخليج: صفحة ١٤٦
(١٩) لقد خصصت الصباح في كتابها "صقر الخليج" قسماً من الفصل الثالث للتحدث عن علاقة زوجها بالاقطار العربية.
(٢٠) صقر الخليج: صفحة ١٢٧

ابناء العروبة سوى أسرة واحدة، وما اقطارهم سوى قطر واحد[٢١]"

هذا هو الحلم الذي نشأ في قلب الصباح وعقلها، وظلّ هاجسًا يلاحقها وحقيقة تكتبها رؤى مستقبليّة تبشّر بوحدة عربيّة شاملة مبنيّة على تماسك أبناء الارض الواحدة من اجل نصرة كلّ قضايانا.

رأت في موقف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر طريقًا الى الوحدة العربيّة، وكان في ضميرها الرمز العربيّ الذي تتوّق الى تجسيد اقواله لنصرة الحقّ العربيّ، ليتمخّض المستقبل عن ولادة الانسان العربيّ المفعّل بالطموح والآمال والأحلام والتطلّعات فيؤسّس شكلاً فكريًّا ثوريًّا، تعتنقه الاجيال العربيّة.

ولذلك كان ارتحاله عن مسرح الساحة العربيّة صدمة آلمت الشاعرة وأيقظت فيها الرغبة في التذكير بقيمه واخلاقه واحلامه وطموحاته منارة لذاكرة الاجيال العربيّة هذه الذاكرة التي يجب تحفيزها بالحقيقيّ والجوهريّ لتثور على واقعها من اجل ولادة المستقبل الاكثر فاعليّة.

مصر يا امّي، ويا همّي، ويا خير المهاد
لمن الصرخة في الليل دوّت في كلّ واد؟
(..)
لا تقولي اسلم ناصر للموت القياد
بعد ان كان منى العرب، وآمال البلاد
(..)
كان اسطورة مجد ما روتها شهرزاد
سوف يبقى في حنايانا الى يوم المعاد
إرو يا تاريخ عنه، إنّه بالروح جاد

(٢١) صقر الخليج، صفحة ١٠٧

(..)

إرو عنه. انّه قرّب أيّام الحصاد

لقيام الوحدة الكبرى.. وتحقيق المراد

سائرًا في درب عمرو.. وطريق ابن زيّاد[٢٢]

تدعو سعاد الصباح الشعوب العربيّة الى صنع قرارها وحماية مصيرها وخلق مجتمع عربيّ متكامل حضاريًّا واقتصاديًّا وفكريًّا وثقافيًّا.

إنّ تحقيق الحلم العربيّ الذي ترسمه السعاد يحتاج الى جانب الممارسات العمليّة النضاليّة الى فاعليّة فكريّة تمارس وجودها في التخطيط الفكريّ والتنشيط العقليّ، من اجل بناء الشكل الثقافيّ الاقرب الى المثاليّة، والاقرب الى حقيقة الحلم.

انّ الثقافة التي تتحكّم بها هي ثقافة متحرّرة من تبعيّتها للنظام السائد، ومنعتقة من تقليدها للأشكال الغربيّة، ثقافة اصل واكتشاف واستباق وهي بالتالي تطالب المثقّف العربيّ بدور رياديّ يكمن في بحثه الدائم عن كشف الحقائق ونقلها. لأنّ الثقافة الحقيقيّة هي: «موقف من الانسان في صراعه من اجل الحقّ والعدل والحرّيّة[٢٣]»

لقد اشار الرئيس عبد الناصر الى اهمّيّة دور المثقّفين العرب في خطاب القاه في جامعة القاهرة مؤكّدًا على ضرورة درس احوال المجتمع لنقل الآلام والآمال فقال:

"لا بدّ للمثقّف ان يدرس احوال المجتمع، ولا بدّ للمثقّف ان يعاني ما يعانيه المجتمع، لا بدّ للمثقّف ان يستوعب مشاكل المجتمع واماني المجتمع[٢٤]"

---

(٢٢) امينة: صفحة ١٥ – ١٧

(٢٣) هل تسمحون، صفحة ٩٦

(٢٤) من خطاب القاه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في جامعة القاهرة بتاريخ ١٩٦٨/٤/٥

انّ الحركة الثقافيّة العربيّة يجب ان تكون جماعيّة توحّد بين اجزاء العروبة، وتعبّر عن احلام وتطلّعات شعوبنا العربيّة ذات الاهداف والآمال الواحدة والمصير المشترك. وتكتسب هرميّتها قوّة ورسوخًا وثباتًا.

لقد اظهرت الأديبة في كلامها على الحلم العربي اهمّيّة العودة الى الاصول العربيّة في كلّ قطر عربيّ، لأنّها في جوهرها واحدة وعندما يتوحّد الجوهر بعيدًا عن القشور والتراكمات الخارجيّة يصير التفاعل صحيحًا وسليمًا، وتكون النتائج حقيقيّة خالية من الغشّ والتزوير والكذب وبذلك تتمّ المحافظة على الذات العربيّة، والهويّة القوميّة المحصّنة بالجوانب المضيئة من التاريخ، شريطة أن تبنى الوحدة على احترام خصوصيّات كلّ بلد عربيّ، فتؤسّس العلاقات على ارض صلبة لها اساسها ومقوّماتها الممتدّة في الجذور بعيدًا عن الرمال المتحرّكة التي تهدّد البنيان العربيّ ولحمته بالسقوط والتداعي، فيكون البناء الداخلي متينًا قويًّا لأنّ الروابط صحيحة وسليمة وقويّة وبه تثبت الذات العربيّة قدرتها على المشاركة في صنع العالم الآتي.

كلّ ما يبنى على الرمل هباء في هباء
فابتنوا في العمق ما يرقى لأسباب السماء[٢٥]

انّ الذات العربيّة ذات حيّة عريقة ممتدّة في جذور التاريخ المضيء، فاعليّتها مرتبطة بقوّة ابناء العروبة على الأخذ منها واعطائها دفق الحياة والانبعاث فتشكّل المركز والمنهل للأشقّاء العرب لإعادة مجد كان من صنع العروبة او بالاحرى كان لها فضلها على المجد فضل الامّ والمرضع "من حنايا عروبتي رضع المجد[٢٦]"

---

(٢٥) اليك يا ولدي صفحة ٦٩
(٢٦) الى ولدي صفحة ٦٩

ترغب السعاد في خلق حالة عربيّة متميّزة تساعد على تخليص الذات العربيّة من يأسها وتستعيد قدراتها وطاقاتها، ودورها في صنع التاريخ.

ممّا لا شكّ فيه أنّ روح القوميّة العربيّة ظهرت بارزة في كتابات الأديبة وهذه الروح التي تجلّت في ايمانها المطلق بأرض الكويت كمنطلق نحو عالم عربيّ متحرّر من الانشقاقات والتصدّعات السياسيّة.

ولكنّ الصباح لم تتوقّف في شعورها عند حدود القوميّة العربيّة بل نلمس التشرنق الانسانيّ الذي يسعى الى سلام شامل ومحبّة وعدالة تؤمّن الحياة الكريمة للجميع، ورأت أنّ سعادتها الحقيقيّة ليست في العيش، وإنّما في سعادة الآخرين فانكشف وجدانها في قصيدة غاسل الثياب عن انسانيّة نقيّة، مطهّرة من الأنا:

ليس السعيد من اغتنى ليرى
من حوله يقضون انفاسًا
إنّ السعادة عند ذروتها
هي ان اعيش لأسعد الناسا[٢٧]

لقد اثبتت الصباح في كتاباتها قناعاتها وذاتيّتها، وواجهت الواقع بتحدّي المألوف الخانع والخروج عليه، ايمانًا منها بضرورة التغيير والتجاوز من اجل الأمثل، فكان الشعر عندها انبثاقًا وجدانيًّا وتحريضًا انسانيًّا أملاً بالوصول الى مجتمع عربيّ افضل وحياة اسمى، فتجسّد طموحها القوميّ حركة مستمرّة في افق عربيّ انسانيّ يطمح الى خلق مستقبل توليديّ فاعل، تهيّء له بحضور مميّز وبفاعليّة الحركة والصيرورة.

(٢٧) امينة: صفحة ٤٢

جاءت قصائدها حيّة، حرّة تعبّر عن الأنا الكلّيّة، وتفرّدها وحرّيّتها وانعتاقها من الراهن الى الكونيّ فاتّحدت ذاتها المبدعة بنصّها الشعريّ وموضوعاته وافكاره التي يحبل بها، رغبة في تأسيس الكلّ العربيّ الجديد بخصوصيّاته الجديدة ومنطقه الجديد المجاوز منطق الواقع المفروض.



الإسقاطات النفسيّة والثقافيّة
في
جسد النصّ
شكلاً ولغةً





الشعر رؤيا تستشرف المستقبل، وتكشف عن حركته بلغة حيّة تختصّ ببنية متماسكة في جسد النصّ الشعريّ، ومتباينة الدلالات والإيحاءات التي تتمحور حول روح القصيدة، وتدور في فلكها، لتثبت انجذاب والتصاق النسق النصّيّ الشعريّ بموادّ التعبير، وخصائص الوجود المنبثق عنه هذا التعبير.

توحي اللغة الشعريّة بالتخطّي والتّجاوز، وتنبئ بانفجار المكبوت الحيّ المتفاعل لاشعوريًّا مع العناصر الواقعيّة القابلة للتغيير والتحويل والاستمرار، وذلك ضمن علاقة حميميّة بين الذات والموضوع تعكس أشكال المستقبل المتطوّر والمتجدّد.

تجسّد البنية اللغويّة، المنبثقة من معرفة عميقة بالحياة، الرُّؤيا الوجوديّة وكيفيّة النظر إليها والتفاعل معها على مستويات البنى الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، والدينيّة والفكريّة. ويكون الشعر اختزالاً للتجربة الحياتيّة المتشكّل منها والصادر عنها في تعبير متميّز يرسم الإسقاطات النفسيّة والفكريّة والاجتماعيّة المرتبطة بالحياة وتجدّدها، ويعكس في الوقت عينه نتائج التفاعلات الإنسانيّة الحقيقيّة الصادرة عن اللاوعي القابض على أسرار ومعطيات المعادلة الإنسانيّة المجهولة الحدود. فالشعر علم[1] يبنى على معرفة عميقة بالحياة وأسرارها، وعلى معرفة

(١) قال الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اعلم منه"، العمدة، ابن رشيق ص ٢٧.

دقيقة باللغة واستعمالاتها ووظائفها الاجتماعيّة والإنسانيّة والجماليّة المختلفة. ولكي يثبت هذا العلم قدرته على كشف هويّة المجهول الذي تأسّست عليه ومنه المعادلات الاجتماعيّة والإنسانيّة، يحتاج إلى علم[٢] آخر يفكّكه ويخضعه للرفض والقبول، والشكّ واليقين، علمٌ يقوم على الوصف والتعليل، والتحليل والبرهان، ويربط بين الدالّ والمدلول في وحدة الدلالة من دون فصلٍ بين روح النصّ وجسده، أو إهمال للأدوات وفاعليّتها، ليتمّ البحث في التشكيل البنيويّ للغة أو كشف العلاقات اللامتناهية في جسد النص الشعريّ، هذه العلاقات المتشابهة في شبكيّتها وأدائها، أشبه ما تكون بشبكيّة الجسد الحيّ الذي يتمّ تمايزه عن جسد آخر بالشكل والروح، وبهما أيضًا يتميّز نصّ شعريّ عن آخر.

إنّ الكشف عن شبكيّة العلاقات وترابطها وكيفيّة تشكّلها في نصّ ما يظهر قدرة الشاعر الإبداعيّة المنبثقة عن ارتباطه بالحياة وأسرارها أوّلاً، ومن انغراسه في تراثه الفكريّ والثقافيّ واللغويّ، هذا التراث الذي منه وبه تتمّ الحركة الفاعلة والناشطة نحو عالم متجدّد يضجّ بآمال الإنسان وأحلامه وتطلّعاته وكيانه ووجوده كإنسان.

بهذا المفهوم العلميّ لا بدّ للشاعر المبدع من أن يرشح كمونه الفكريّ تركيبات لغويّة شعريّة متولّدة من تزاوج المعرفة الإنسانيّة والمعرفة اللغويّة لتأتي بنية القصيدة تجسيدًا للبنية الفكريّة والنفسيّة والاجتماعيّة، التي تفاعلت وانصهرت في لاوعي المبدع.

تقوم البنية اللغويّة في قصيدة شعريّة على مشروع فكريّ، علميّ يؤسَّس له في لاوعي المبدع من دون تخطيط مسبق واعٍ، وهو لا يختلف عن أيِّ مشروع آخر من حيث البنية الجوهريّة، بل في كيفيّة عمليّة الخلق.

يربط كمال أبو ديب بين الوحدة البنيويّة الجوهريّة في تشكّل قصيدة ما، وبين

(٢) قال ابن قتيبة: "الشعر علم محتاج الى السماع". الشعر والشعراء ج١ ص ٢٦ وبالسماع يتم التواصل المعرفي والرفض والقبول.

بنية أيّ مشروع اقتصاديّ أو سياسيّ"[٣]؛ لأنّ لكلّ مشروع هيكليّة وبنية تظهره وتعكس نتائجه، فالقصيدة مشروع فكريّ اجتماعيّ أو سياسيّ، لها بنية تظهر تماسك هذا المشروع أو ضعفه. ولكنّ الفرق بين بنية مشروع شعريّ وأيّ مشروع آخر يكمن في سرِّ الإبداعيّة، فالإبداع الشعريّ وحي وإلهام صادر عن ذات الشاعر المتفرّد والخلاّق المبتكر، فتكون البنية الشعريّة متحرّرة من قيود الرقابة والتوجيه وخاضعة لقوّة الابتكار والإبداع. أمّا بنية المشروع الاقتصاديّ أو السياسيّ، فهي نتاج جماعيّ خاضع لتخطيط مسبقٍ واعٍ، ونتيجة تضافر جهود مفكّرين ملمّين بقواعد ونظم العمل المنوي تنفيذه.

إنّ مشروع بناء قصيدة عمل ضخم، ينبثق من تفاعل فكريّ ثقافيّ ومعرفة لغويّة، فتأخذ القصيدة هيكليّة النمط الفكريّ الذي ابتدعها، وتعكس علاقاتها بالنسق الفكريّ للشاعر المبدع وارتباطه الحميميّ بموضوعاته ونظرته إلى الكون والحياة والأنا والآخر، وأشكال هذا الارتباط وحقيقته.

بهذه الرُّؤيا نقرأ ونشرح شعر سعاد الصباح الذي جاء تعبيرًا عفويًّا عن اندهاش الأنا الإنسانيّة الأُنثويّة في لاوعيها أمام أشكال الصراع المستمرّ على مسرح الواقع الحياتيّ. إنّه صراع الأنا مع الآخر، وبالتالي فهو صراع الأنا في مواجهة الأنا. «أنا القبول وأنا الرفض»، «أنا التبعيّة وأنا التحدِّي»، «أنا الهو وأنا الهي»، إنّها إشكاليّة ما فتئت تتقاطع محاورها في نقطة مركزيّة تضمر حقيقة الإنسان المجهولة.

والصباح المنغرسة وجدانيًّا في قضايا المرأة العربيّة، والرافضة أشكال القمع والتخويف استطاعت أن تبوح بما يرشّح عنه التفاعل الاجتماعيّ والثقافيّ المعرفيّ، قصائد ذات بنى لغويّة شعريّة تعكس الفكر العلميّ المنطقيّ الذي تميّزت به الشاعرة من خلال مشاريع دراساتها الاقتصاديّة.

---

(٣) كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، ص ٩ : "بنية القصيدة لا تختلف جوهرياً عن بنية مشروع اقتصادي ينتوي تنفيذه او مشروع وحدة سياسية بين قطرين عربيين، او مشروع تأليف قاموس لغوي او مشروع دراسة جامعية للفكر الديني والأسطورة".

يتميّز شعر الصباح ببنية لغويّة قوامها الأسلوب البرهانيّ القائم على وضع الفرضيّة، وإخضاع الظواهر للتجربة من أجل نقضها أو اعتمادها كحقائق.

قدّمت الشاعرة في قصيدة «فيتو على نون النّسوة» طرحًا علميًّا منطقيًّا من أجل التغيير وعدم قبول المتوارث كواقع مقدّس لا يُمَسّ. فهي تنقل الأفكار المطلوب تبنّيها كموروث مقدّس، ولكنّها لا تكتفي بالنقل كما أنّها لا تنكره، بل تقبله وتتعامل معه في مختبر حياتيّ تجريبيّ لتكون النتائج علميّة منطقيّة بعيدة عن التوجّه العاطفيّ.

لهذه القصيدة روح تحرّك الجسد البنيويّ، وتفعّل حركته وتشحنها بنظرة إنسانيّة ترغب في تحقّقها على مسرح الواقع العربيّ، وتظهر النسق الفكريّ وشبكيّة علاقاته من خلال تداخل العلاقات في بنية القصيدة.





١ ـ يقولون:

٢ ـ إنّ الكتابة إثمٌ عظيمٌ...

٣ ـ فلا تكتبي.

٤ ـ وإنّ الصلاة أمام الحروف... حرامٌ

٥ ـ فلا تقربي.

٦ ـ وإنّ مداد القصائد سمٌّ...

٧ ـ فإيّاك أن تشربي.

٨ ـ وها أنذا

٩ ـ قد شربتُ كثيرًا

١٠ ـ فلم أتسمّم بحبر الدواة على مكتبي

١١ ـ وها أنذا...

١٢ ـ قد كتبتُ كثيرًا.

١٣ ـ وأضرمتُ في كلِّ نجمٍ حريقًا كبيرًا

١٤ ـ فما غضب الله يومًا عليّ

١٥ ـ ولا استاء منّي النبيّ...

١٦ ـ يقولون:

١٧ ـ إنّ الكلام امتياز الرجال...

١٨ ـ فلا تنطُقي!!

١٩ ـ وإنّ التغزُّل فنُّ الرجال...

٢٠ ـ فلا تعشقي!!!

٢١ ـ وإنّ الكتابة بحرٌ عميق المياه

٢٢ ـ فلا تغرقي...

٢٣ ـ وها أنذا قد عشقتُ كثيرًا...

٢٤ ـ وها أنذا قد سبحتُ كثيرًا...

٢٥ ـ وقاومت كلّ البحار ولم أغرق...

٢٦ ـ يقولون:

٢٧ ـ إنّي كسرت بشعري جدار الفضيلة

٢٨ ـ وإنّ الرجال هم الشعراء

٢٩ ـ فكيف ستُولد شاعرة في القبيلة؟؟

٣٠ ـ وأضحك من كلّ هذا الهراء

٣١ ـ وأسخر ممّن يريدون في عصر حرب الكواكب...

٣٢ ـ وَأْدَ النساء...

٣٣ ـ وأسأل نفسي:

٣٤ ـ لماذا يكون غناء الذكور حلالاً

٣٥ ـ ويصبح صوت النساء رذيلة؟

٣٦ ـ لماذا؟

٣٧ ـ يُقيمون هذا الجدار الخرافيّ

٣٨ ـ بين الحقول وبين الشجر

٣٩ ـ وبين الغيوم وبين المطر

٤٠ ـ وما بين أنثى الغزال، وبين الذَّكَر؟

٤١ ـ ومن قال: للشعر جنسٌ؟

٤٢ ـ وللنثر جنسٌ؟

٤٣ ـ وللفكر جنسٌ؟

٤٤ ـ ومن قال إنّ الطبيعة

٤٥ ـ ترفض صوت الطيور الجميلة؟

٤٦ ـ يقولون:

٤٧ ـ إنّي كسرت رخامة قبري...

٤٨ ـ وهذا صحيح.

٤٩ ـ وإنّي ذبحت خفافيش عصري...

٥٠ ـ وهذا صحيح.

٥١ ـ وإنّي اقتلعت جذور النفاق بشعري

٥٢ ـ وحطّمت عصر الصفيح

٥٣ ـ فإن جرّحوني...

٥٤ ـ فأجمل ما في الوجود غزالٌ جريح

٥٥ ـ وإن صلبوني، فشكراً لهم

٥٦ ـ لقد جعلوني بصفّ المسيح...

٥٧ ـ يقولون:

٥٨ ـ إنّ الأنوثة ضعف

٥٩ ـ وخير النساء هي المرأة الراضية

٦٠ ـ وإنّ التحرّر رأس الخطايا

٦١ ـ وأحلى النساء هي المرأة الجارية

٦٢ ـ يقولون:

٦٣ ـ إنّ الأديبات نوعٌ غريبٌ

٦٤ ـ من العشب... ترفضه البادية

٦٥ ـ وإنّ التي تكتب الشعر...

٦٦ ـ ليست سوى غانية!!

٦٧ ـ وأضحك من كلّ ما قيل عنّي

٦٨ ـ وأرفض أفكار عصر التَنَكْ

٦٩ ـ ومنطق عصر التنك

٧٠ ـ وأبقى أُغنّي على قمّتي العالية

٧١ ـ وأعرفُ أنّ الرعود ستمضي...

٧٢ ـ وأنّ الزوابع تمضي...

٧٣ ـ وأنّ الخفافيش تمضي...

٧٤ ـ وأعرف أنّهم زائلون

٧٥ ـ وأنّي أنا الباقيه...



جاءت قصيدة «فيتو... على نون النسوة» معولاً يدقّ جدار صنميّة القبول المتواتر المنقول: فأحدثت من خلال العنوان مدخلاً إلى طرح المشكلة وتصوير حيثيّاتها.

أوّلاً: العنوان

من خصائص نون النسوة اللغويّة قدرتها على بناء المعرب وتغيير بناء المبنيه من الحركة إلى السكون.

والسكون فيزيائيًّا منطلق إلى حركة جديدة. ولا يكون تجديد في الحركة إن لم تنطلق من سكونيّتها، فالحركة تعقب السكون الفيزيائيّ.

والمرأة الفاعلة هي التي تكسر هيمنة العرف السائد وتسعى إلى خلق حركة اجتماعيّة هادفة.

وبين حركة سلبيّة ارتداديّة صنميّة وحركة فاعلة يجب الفصل بمرحلة سكون للتأمّل والإقلاع. ونون النسوة تختصّ معنويًّا ودلاليًّا بالأنثى، ولكنّها لا تدخل إلاّ على الأفعال؛ بإلقاء الفيتو عليها ترمز الصباح إلى إلقاء الفيتو على فاعليّة الأنثى، وإلغاء دورها شكلاً ومضمونًا.

لقد أشار العنوان في ظاهره إلى القبول والاستسلام، وإلى سيطرة القرار على الأسماء من دون المسمّى؛ لأنّ الهيمنة تعنى بالشكل، وطالبيها يهتمّون بالظاهر من الحضور الكونيّ.

أمّا في الحقيقة والجوهر، فالعنوان دعوة غير صريحة إلى الاستكشاف، والمعرفة، معرفة ماهيّة الفيتو، وأسباب صدوره، أشكال تطبيقه، والدوافع الكامنة وراء إصداره.

فالعنوان في ظاهره اعتراف وإقرار، وفي مضمونه رفض مُضْمَر باللامبالاة.

ثانياً: الكلمة المفتاح

بدأت الشاعرة قصيدتها بفعل مضارع «يقولون»، وجعلت منه لازمة في نقل الرواية، ومنحته دلالتين: دلالة النقل والإخبار، ودلالة مبطّنة تشير إلى أنّ القائلين الغائبين عن مسرح الحدث والقرار، وجودهم فاعل، وكلامهم قرار تتناقله الجماعة.

لم تُخْضِع الصباح الرواية إلى شروط الإسناد من أجل التأكّد من هويّة صاحب القول ومصداقيّة الرواة، بل خالفت المألوف واعتمدت منهجًا علميًّا يقبل المعطيات، ويتحقّق من صحتها.

أعرضت الصباح عن الاهتمام بالأشخاص، وركّزت على فعل «القول»، وما يحدثه في المجتمع البدائيّ الفطريّ من حركة خارجيّة مفرّغة من الهدف والغاية، فلا يعنيها تستّر صاحب القرار، أو الذين يبثّون الدعاية لمجرّد سماعها. إنّهم أشبه ببعض وسائل الإعلام التي تبثّ الخبر للنشر وتروّج للمرغوب فيه، من دون البحث في ما وراء الخبر أو كيفيّة وروده.

قسَّمت الكلمة المفتاح، النصَّ، من حيث المضمون الشكليّ، إلى ستّة أقسام، أسّست لها هرميًّا.

بُني القسم الأوّل والقسم الثاني على ثنائيّة النقل والاختبار، فهي تنقل الرواية كما جاءت، وتعالجها في مختبر التجربة.

جاء القسم الثالث مبنيّاً على ثنائيّة غير متكافئة من حيث المحتوى، ثنائيّة الاتّهام والتأكيد، والسخريّة والتساؤل.

والقسم الرابع اتّهام مقرون باعتراف يقابله اعتراف بارتكاب جرم الرفض وقبول الألم على خشبة الخلاص.

ويتضمّن القسم الخامس تركيزًا وترغيبًا فقط من دون جواب، والقسم السادس تذكيرًا بأعراف البادية والقِيَم النسائيّة المتعارف عليها. من دون أن تذكر جوابًا

عن الترغيب، بل توحّدت ذاتها مع أفكارها باللامبالاة والضحك والرفض والاستمرار حتّى النصر.

ثالثاً: المعاني الظاهرة

القسم الأول:

إنّ القرار الصادر بحقّ من تمثّل نون النسوة يختزل المتوارث الفكريّ المنقول مشافهةً، شأن تراثنا العربيّ الاجتماعيّ والثقافيّ والحضاريّ، الذي وصل إلينا عن طريق السّماع مع كلّ ما يصيب السماع من أخطاء، والرواية من تحوير وتحريف.

يثبت إصدار قرار الفيتو موروثًا فكريًّا متواترًا يقضي بجهل الأنثى، ويربط القرار بتوصيف مبرّر شكليّ لفعل الكتابة، فهو إثمٌ عظيم وحروفه محرّمة، ومداده سمّ، وعلى الأنثى أن تحتجب عن هذا المحرّم وتحذر من وصول مداده إليها، كي لا تصاب بالتسمّم الفكريّ وتخطئ.

لا ترفض الصباح هذا الواقع وتوصيفات مبرّرات التحريم والنهي والتحذير، بل إنّها تتحوّل عن المسموع إلى المرئيّ، وتخضع الرواية للاختبار العلميّ، فامتهنت فعل الكتابة، وانصهرت في تفاعلاتها، وخالفت الموروث المنقول، وتأكّدت من النتائج التي جاءت مغايرةً لما تنقله الرواية، ولم تنسَ الجانب الدينيّ من التجربة، فهي لم تعثر في القرآن الكريم، أو الأحاديث النبويّة الشريفة على ما يؤكّد مزاعم الوهم المتوارث، فأظهرت تمسكها بمبادئ الإسلام، ووصايا الرسول مع التزامها بفعل التغيير والعودة إلى الأصالة والتخلّي عن القشور.

زرعت الصباح في نفس الأنثى بذور فاعليّتين، أوّلاهما الشكّ، والثانية البحث عن الحقائق، رغبةً منها في خلق إشكاليّة القبول والرفض، قبول الواقع الذكوريّ الذي يبثّ الخبر ورفض تطبيقه إلاّ بعد التأكّد من الحقائق، فالواقع يثبت الحدث بالتجربة، والحياة تصنع الخبر الصادق.

القسم الثاني:

تقول الرواية العربيّة بتفضيل الرجال وإسناد الامتيازات إليهم، وحصرها بهم، فالكلام حقٌّ لهم، والتغزّل والعشق مقتصران عليهم، والأنثى عليها الصمت وعدم النطق، ومهمّتها محصورة في قدح كمون العشق في نفس الرجل.

والكتابة تفسد طهر الموروث وتشوّه بنود العقد المتعارف عليه، والذي تنصّ بنوده على تحريم الكتابة على الأنثى خوفًا عليها، فالأنثى تجسّد في الفكر الموروث الجهل، ولذلك حُرِّم عليها النطق، والعشق، والإبحار.

ظاهر الكلام يحمل النهي والخوف على المرأة، وباطنه يحمل القمع والإرهاب والخوف منها.

ولكنّ الصباح تنسب هذا الباطن إلى نتائج التجربة التي مارستها عملاً فاعلاً، وكانت مخالفةً لكلّ أفعال النهي والتخويف ونتائجها، فلقد عشقت، وكتبت، وقاومت الغامض المجهول، ولم تغرق في خطيئة.

القسم الثالث:

لم تبقَ الرواية مقتصرةً على التخويف والنهي والتحذير، فالتجربة وحقيقة النتائج أثبتت نقيض ما يزعمون، وبذلك تخطَّت الصباح مرحلة الخوف والتجربة، فتطوّرت الرواية إلى الاتّهام المباشر وإدانة الأنثى الصباحية، واعتبار ما قامت به من اختبارات خرقًا للأعراف وانتهاكًا لحرمة الفضيلة؛ لأنّ الشعر حكر على الرجال.

ينتقل الراوي من الإقرار والتأكيد إلى السؤال الاستفساريّ الذي يضمر جوابًا يرفض وجود أنثى تكتب الشعر في مجتمع قبليّ.

تقابل الصباح الاتّهام باللامبالاة، وتكتفي بالحقائق التي حصلت عليها من التجارب السابقة، وتعتبر ادّعاءاتهم هراءً، لا سند، علميًّا، له، فتسخر ممّن يعايشون

الحضارة العلميّة شكلاً، ويبقون في أفكارهم منتمين إلى جاهليّة تؤمن بوأد النساء، إنّه مجتمع قد ألغى من ذاكرته تعاليم الإسلام كلّها، وعاد إلى جاهليّته.

أمام هذا الواقع المتناقض بين شكله وجوهره ـ ظاهره حضاريّ، وحقيقته جاهليّة ـ تفرّغ الصباح استياءها بالتساؤل الذاتيّ الإنكاريّ الذي يضمر جوابًا يرفض التمييز بين الرجل والمرأة في مجتمع يعتبر غناء الذكور حلالاً، و«صوت النساء رذيلة»، وهذا الاعتبار جديد حتّى على الجاهليّة، فلقد قالت «يصبح»؛ لأنّ المرأة في الجاهليّة والإسلام كانت تغنّي للمقاتلين لبثّ الحماسة في نفوسهم.

هذا الواقع الجديد المصطنع أفكاره جداريّة خرافيّة مخلوقة، مستحدثة ومناقضة للتعاليم الدينيّة؛ لأنّ العلاقة بين الأنثى والذكر علاقة تكامل وستر، فلقد جاء في القرآن الكريم:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾

فالأنثى في الصورة الصّباحيّة هي حقل الرجل وغيمه، والذكر هو الشجر الذي لا وجود له من دون الحقل. وهو المطر الذي لا أثر له من دون الغيم. فمن الحقل ينبت الشجر، ومن الغيم يكون المطر، ومن الأنثى يكون الذكر. إنّهما متكاملان، فلا قيمة لأحدهما من دون الآخر، والتمايز بينهما يكون بالتقوى والعمل الصالح، ولقد جاء في القرآن الكريم:

﴿خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

فالحرّيّة والجمال لا هويّة جنسيّة لهما، كذلك الفكر. وبالعودة إلى ناموس الطبيعة التي بها ومنها قوانين الوجود والحياة، تؤكّد الصباح على عدم رفض

الأنثى واعتبار صوتها خطيئة. والأنثى الصّباحيّة رمز الحرّيّة والجمال، والطبيعة ترفض التمييز بين الطيور الجميلة.

إنّ الصباح تعرض إشكاليّة جديدة: مجتمعًا دوليًّا يسعى إلى التطوّر والافادة من قدرات الإنسان، ومجتمعًا عربيًّا ما زال متمسّكًا بالقشور، ويكرّس صنميّة الفكر، فيجعل من صوت المرأة رذيلة، وكلّ ما يؤدّيه الرجال حلالاً مقبولاً.

إنّه مجتمع يختلق القيود التي تشدّه إلى وهم لا أصل له، ينشغل بتهديدات فارغة، وأمور تافهة، وتفاصيل لا جدوى منها، وتقسيمات لا تقوم على أساس منطقيّ أو طبيعيّ، فالطبيعة لا تميّز بين الذكر والأنثى، ويجب أن يتّخذ الإنسان قوانينه من الطبيعة التي تدعو إلى حضنها عناصر الوجود كلّها لتتفاعل وتؤدّي متحدّية سمفونيّة التواجد الطبيعيّ.

والنساء - في رأي الصباح - رمز الطيور الجميلة التي تزيّن الوجود بدورها الطبيعيّ، ولذلك يجب اعتماد قانون الطبيعة لتحيا المجتمعات بناموس طبيعتها.

القسم الرابع:

تتطوّر الرواية، وتتنامى متّخذةً شكل الاتّهام المباشر، فالأنثى الصّباحيّة كسرت صنميّة المألوف الذي اتّخذ شكل جدار مصنوع من نظرة خاطئة وفضائل وهميّة. وضمّنت الصباح الاتّهام اعترافًا غير مباشر من المجتمع الذكوريّ بطبيعة القيّمين على مصير المرأة بأنّهم خفافيش الليل، لا حياة لهم إلاّ في الظلمة، فيطلقون ادّعاءاتهم ورواياتهم ليلاً ليبقوا في مأمن من المسؤوليّة، بالإضافة إلى اعترافٍ آخر أكّد فيه المجتمع الذكوريّ على وأْد المرأة حيَّة، فكلمة رخامة القبر في أثناء الادّعاء والاتّهام تشير إلى وأد المرأة معنويًّا تحت رخامة تخنق طاقاتها.

وفي لحظة القلق والخوف من نتائج التجارب، والغوص في حكمة الطبيعة يفقد الرجل اتّزانه ويعترف بهاتين الحقيقتين. وتبرز الأنثى في هذه المرحلة أكثر

قوّة وصدقًا، فلا تنكر ما قامت به من كسر لصنميّة الاستسلام، وذبح لأفكار الخفافيش، واقتلاعٍ لجذور النفاق بما تحمله من صدق مشاعر، لتحطّم عصر الصفيح هذا بغية تغييره وتحويله.

تواجه الصباح الاتهام بجرأة وصدق، وتعترف بارتكاب فعل الرفض والتغيير متجوهرةً بالألم من أجل خلاص البشريّة. والصباح تتّخذ من المسيح مثالاً فتتقبّل الفداء والألم من أجل خلاص الأنثى العربيّة وتحرّرها من خطيئة الانقياد والعبوديّة.

القسم الخامس:

اخترقت الرواية الزمن الحاضر وتخلّت عن موروث التخويف، لتتحوّل إلى أسلوب التذكير بالأُسس المتعارف عليها التي اعتبرت أنّ الأنوثة رمز الضعف، والمحافظة عليها ناتجة عن هذا الواقع الذي يعتبر المرأة الراضية خير النساء، والمرأة التابعة المستعبدة أحلى النساء، لذلك يجب التخلّي عن فكرة التحرّر؛ لأنّه في رأي القيّمين على الواقع رأس الخطيئة. فوجود المرأة الحقيقيّ مرتبط بقدرتها على التلذّذ بعبوديّتها.

التذكير بالأعراف المتوارثة لا يعني الصباح ولا تعيره اهتمامًا، ولا تشغل بالها في الردّ عليه؛ لأنّه مرفوض وغير موجود أصلاً في المعادلة الأنثويّة الذكوريّة الصباحيّة.

القسم السادس:

تتطوّر الرواية إلى اعتراف بوجود الأديبات، ولكنّ هذا الوجود غير طبيعيّ، إنّه مخالف للطبيعة البدويّة التي ترفض الأدب الأنثويّ وتعتبره غريبًا عنها.

التذكير بالطبيعة البدويّة يتضمّن دعوة إلى الإقلاع عن الكتابة وعن قول الشعر،

بالإضافة إلى التذكير بالنظرة السلبيّة إلى الأنثى الشاعرة باعتبارها غانية.

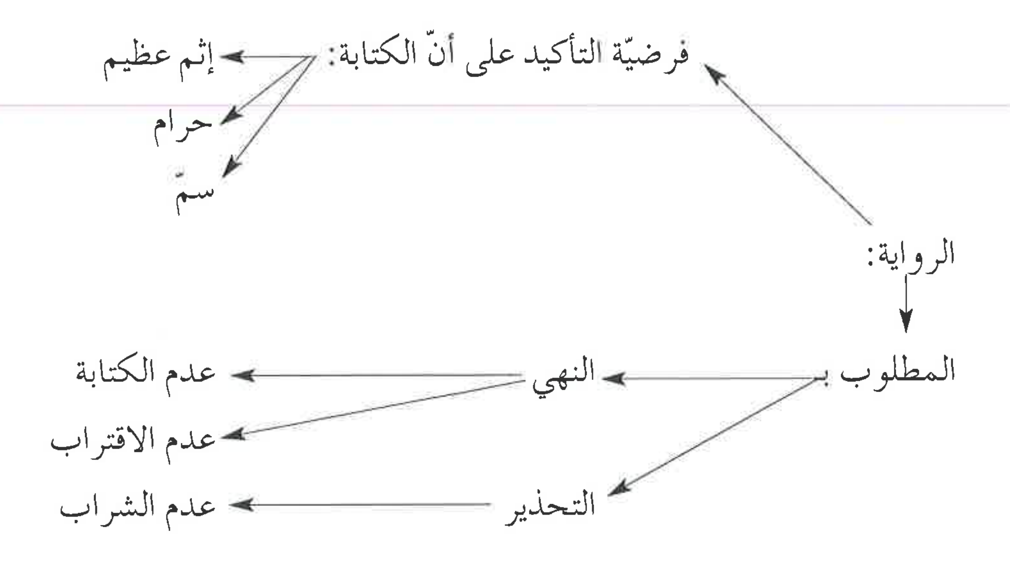
ولمّا كان العلم التجريبيّ يهمل الشوائب التي لا تؤثّر في جوهر النظريّات العلميّة، أهملت الصباح الاهتمام بالتواتر، ولم يتصدّ قلمها للدفاع عن الأديبات، أو إثبات بطلان هذه النظريّة التي لا صحّة لها. الكلام الفارغ لا يستحقّ الإجابة.

تختزل الشاعرة نتائج الرواية نفسيًّا وعمليًّا، فالقول دحضته بالعمل، والنتيجة انتصار نفسيّ وعمليّ توَّجته بالسخريّة من أحاديث الرواية كلّها، وترفض أفكار عصر مُفرَّغ من الجوهر أو المنطق في التعاطي مع القضايا الإنسانيّة، لتستمدّ من الرفض المبنيّ على منهج علميّ وأسس منطقيّة ، القدرة على الاستمرار في ممارسة وجودها الفكريّ، هذا الوجود الفاعل المبنيّ على معرفة عميقة بأسرار الحياة والطبيعة. فبعد كلِّ عاصفة ورعد، هدوء؛ والخفافيش لا تترك أثرًا طيّبًا في نفس الطبيعة، إنّها من عناصرها الدالّة على القبح والبشاعة.

والنتيجة تكون زوال آثار الرواية وبقاء نتائج العمل، فالقول يفنى ويبقى العمل.

رابعاً: الإسقاطات النفسيّة والفكريّة في القصيدة:

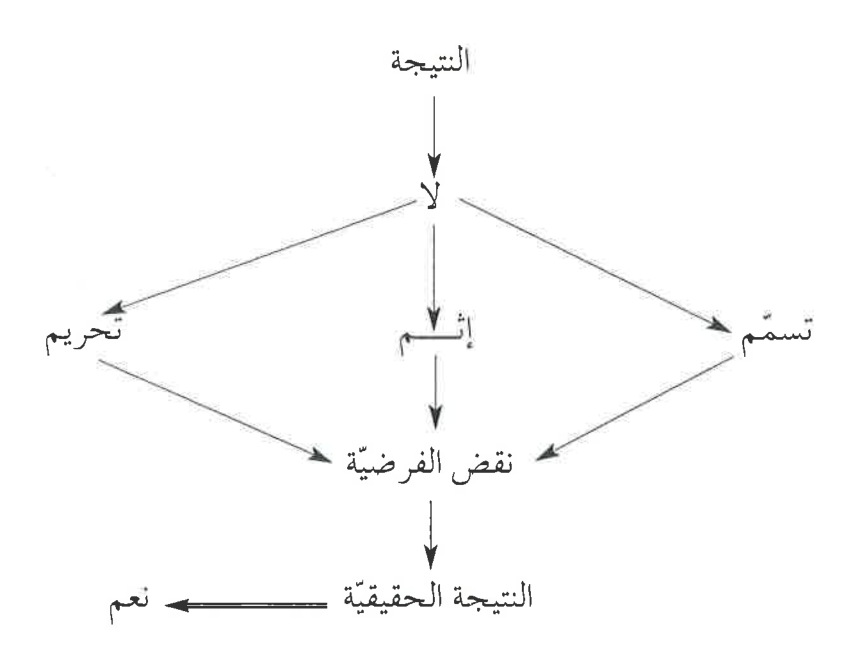
القسم الأوّل:



تأسّست الفرضيّات الاجتماعيّة على ثنائيّة من الأعراف تهدف إلى تخويف الأنثى من ارتكاب الإثم أو خرق حصانة المحرّمات، كي لا تقع البدهيّة الناتجة عن حدوثهما، فتصاب المرأة بالتسمّم، وبالتالي موت المرأة اجتماعياً.

وهكذا نجد الصباح قد حدّدت ثلاث نقاط بُني عليها المجتمع العربيّ وتشكّل منها المستوى الاجتماعيّ القائم على التخويف أصلاً. وفي العلم الرياضيّ الهندسيّ تقود الفرضيّات والمعطيات إلى تحديد المطلوب، والمطلوب من الأنثى العربيّة ثلاثة أمور أيضًا. الأمران الأوّلان ساقتهما الصباح بأسلوب النهي عن ممارسة الكتابة أو محاولة الاقتراب منها، والأمر الثالث ساقته بأسلوب تحذيريّ نقلاً عن الرواية العربيّة التي أسّس لها هذا المجتمع العربيّ، فكان المطلوب تشكيل مجتمع عربيه تخضع فيه الأنثى لخاصّتَيْ النهي والتحذير وتؤسّس ثلاث نقاط تحدّد المستوى السلبيّ المتميّز بمنع «الكتابة ـ الاقتراب ـ الشرب» عن المرأة العربيّة.

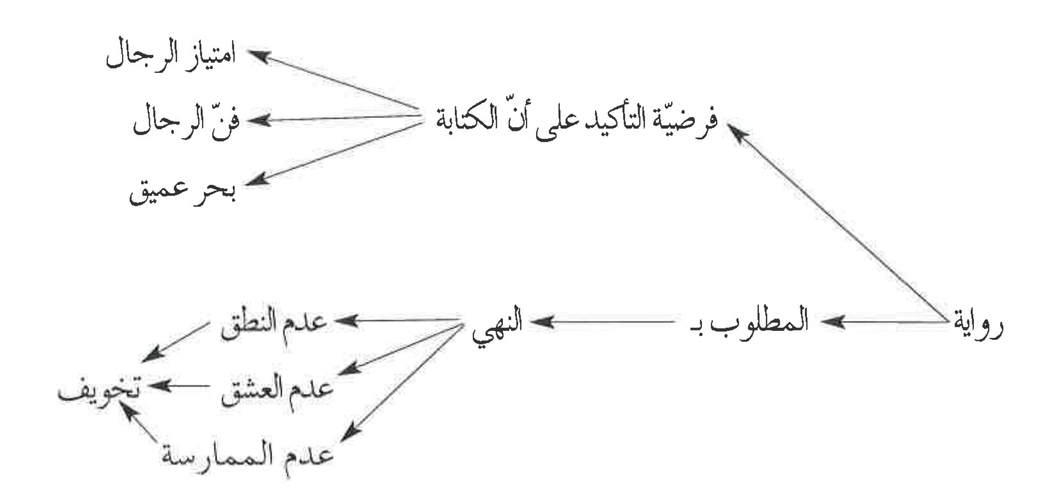
الاختبار = الارتواء + الممارسة + فاعليّة ثوريّة



تسلك الصباح في شعرها منهجاً علميًّا رياضيًّا منطقيًّا، تنطلق فيه من الفرضيّات ومعرفة المطلوب إلى البرهان على صحّة الفرضيّات وارتباطها في تحقيق المستوى المطلوب، مستخدمةً التجربة. فكانت النتائج متناقضةً مع الفرضيّات الموضوعة، وبالتالي ثبت بطلان المطلوب.

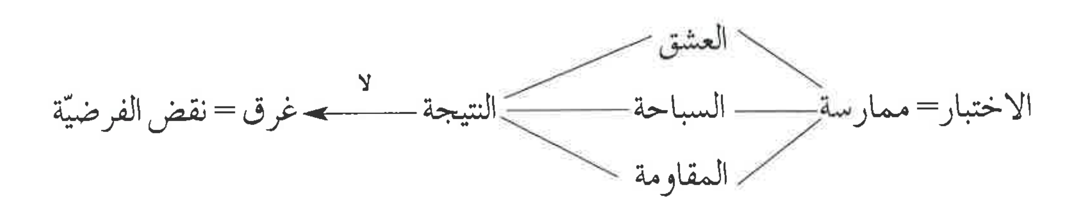
استطاعت الصباح أن تخلق الهوّة في جدار القبول المتوارث، وتهدم صنميّة الأعراف المنقولة بالسّماع والمشافهة.

القسم الثاني:



جاءت الفرضيّات في القسم الثاني من الرواية مبنيّةً على ثلاث نقاط تشكّل المستوى الذكوريّ المتعارف عليه. النقطتان الأولى والثانية تؤكّدان على حصر التمايز كلامًا وعشقًا بالرجال، والنقطة الثالثة تؤكّد على أهميّة الكتابة وخطورتها وتخويف المرأة من ممارستها. والتخويف هنا يحمل مظهرين متناقضين أوّلهما اعتراف ضمنيّ بأهمّيّة الكتابة، وثانيهما خوف من تعلّم المرأة والذي نتج عنه التخويف ووضع فرضيّة التأكيد على حصر الكتابة بالرجال.

ووضع الفرضيّة الاجتماعيّة كان الهدف منه تحديد المطلوب من المرأة العربيّة وإقناعها بالتخلّي عن النطق، والعشق، والسباحة.



لم تكتفِ الصباح عبر الاختبار والبرهان، بنقض الفرضيّة، وإنّما ولّدت حافزًا على ممارسة التجربة والاختبار الذاتيّ للوصول إلى هدم سلطة القمع والإرهاب والتخويف، وتقويض مملكة الموروث الذكوريّ.

القسم الثالث:

الرواية = خطاب مباشر ← اتّهام + تأكيد + استنكار

المطلوب مجهول يمكن تقديره بـ ←
- المحافظة على جدار الفضيلة
- قصر الشّعر على الرجال
- وأْد المرأة الشاعرة

بالتأكّد من الاختبار تحوّلت الصباح عن سماع الرواية والردّ عليها إلى التعبير عن موقفها

بـــــ: ←
- اللامبالاة
- السخريّة التي تتضمّن الرفض
- التساؤل
- التنبيه إلى بشاعة التمييز بين صوت الرجال وصوت النساء
- اعتماد قانون الطبيعة

تخطّط الصباح في اللاوعي لتغيير الأشكال المغلوطة في العالم العربيّ والعودة بها إلى جوهر الطبيعة، أو التعلّم من أسرارها، فيتوحّد الفعل الإنسانيّ في عمليّة تكافؤ ذكوريّة ـ أنثويّة اقتداءً بالطبيعة التي توحّد في حركتها الكونيّة الأزليّة الأبديّة بين كلّ العناصر من دون تمييز، فلكلّ عنصر من عناصر الوجود دورٌ يؤدّيه، فاعل في الحركة الوجوديّة الشاملة وغير المتناهية.

ولقد جعلت من السؤال خرقًا للواقع بغية كشف الحقيقة للوصول إلى جوهر العلاقة بين الإنسان والطبيعة:

لماذا يكون(أ) غناء الذكور(أ') حلالاً

ويصبح(ب) صوت النساء(ب') رذيلة؟

من قال(ج) إنّ الطبيعة(د')

ترفض(د) صوت الطيور(ج') الجميلة؟

يكون ←——— يصبح ←——— قال ←——— ترفض

تُظهر الأفعال حركة تبدأ من الكينونة، ثم تصاب بالتحويل، ووهم الرواية المرفوض، وبالتالي: رواية مرفوضة

اتّصاف غناء الذكور بالحلال
+
تحويل صوت النساء مع الدخول في الصباح إلى رذيلة ←——— رواية مرفوضة.

أ + ب = رواية (فعل القول) ⟵ ج (الرفض)

والسبب في رفض الصّباح للرواية ومن ثمّ سعيها الى مثل إنسانيّة عليا يكمن في إيمانها بقانون الطبيعة الذي تتداخل في تطبيقه عناصر الطبيعة كلّها.

إذا:

أ- غناء الذكور
+
ب'- صوت النساء
+
ج'- صوت الطيور

} عناصر طبيعيّة تؤدّي دورها في تشكيل سمفونيّة الوجود بكلّ أسراره. (د')

إذاً: غناء الذكور + صوت النساء + صوت الطيور= حرّيّة ترسمها الطبيعة

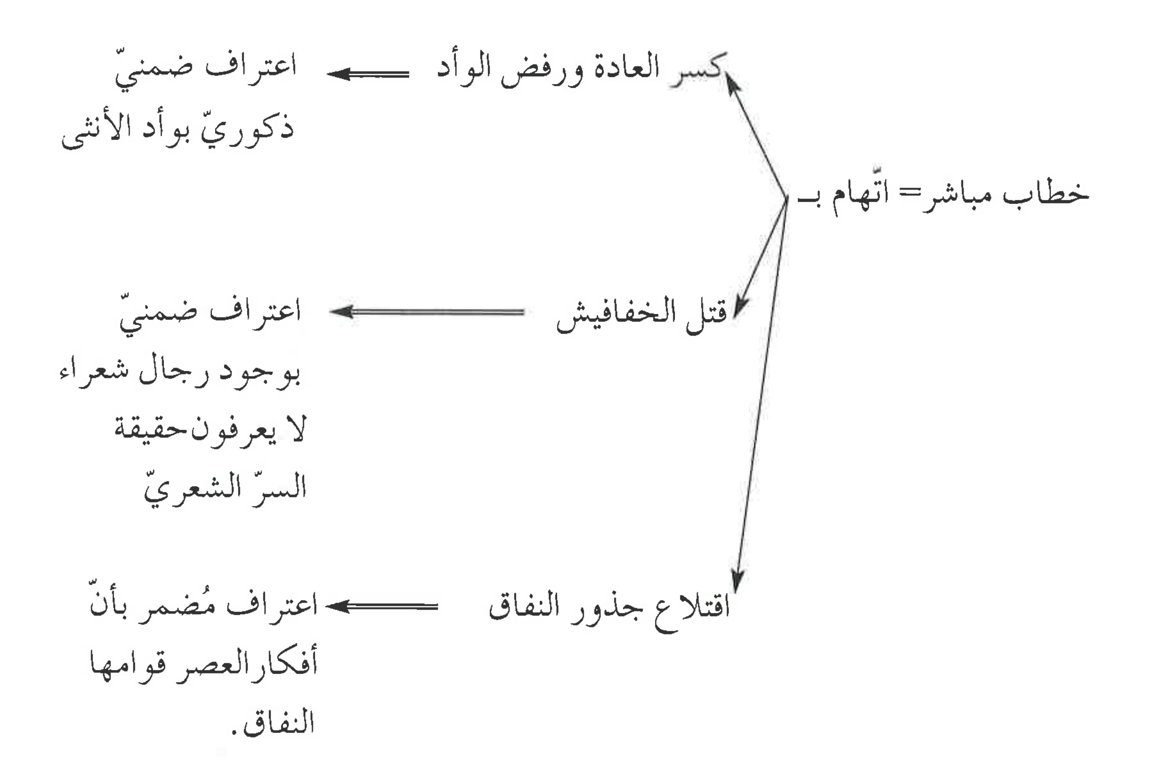
أ' + ب' + ج' = د' = لا نهاية

والطبيعة تؤسّس شبكيّة الأدوار التي تؤدّيها العناصر الطبيعيّة مجتمعةً، لتكتمل خطوط الدائرة الوجوديّة.

والنتيجة رفض التميز والتأكيد على حتميّة العلاقة الإنسانيّة بين الرجل والمرأة وتكامل هذه العلاقة. فالأنثى هي حقل الرجل وغيمه، والرجل هو الشجر الذي لا وجود له من دون ارتباطه بالأرض وانتائمه إلى الحقل. وهو المطر الذي لا وجود له من دون غيم، فالمرأة هي رحم الرجل، وهما متكاملان ولا تمايز فكريًّا بينهما.

إنّ الحرّيّة والجمال والفكر لا هويّة جنسيّة لأيٍّ منها، والبرهان على ذلك اتّحاد هذه العناصر كلّها في أداء سمفونيّة الطبيعة التي لا ترفض شيئًا جميلاً.

القسم الرابع:



والنتيجة اعتراف صريح ورغبة في تذوّق الألم.

هنا تتحوّل الصباح من موقع الاختبار والرفض إلى مرحلة من التوق والتعالي على صغائر المجتمع، ثمّ تطرح نفسها كنبيّ مُصلح للواقع الأنثويّ، هذا الطَّرح الصباحيّ يحمل في جوهره بذور التغيير الجذريّ للفكر العربيّ الدينيّ الموروث. فالإرث الدينيّ لا يعترف بنبوّة أنثويّة، ولكنّ تاريخ الجاهليّين عرف تأنيثًا في آلهتهم. فالصباح لا تنكر الموروث الدينيّ، ولكنّها تنقض الفرضيّة بفرضيّة، وتقابل الجاهليّة بجاهليّة.

إنَّ وأْد النساء عادة جاهليّة حرَّمها الإسلام، وتأليه اللات والعزّى طقوس جاهليّة

حرَّمها الإسلام أيضًا، فجعلت من تمسّك الرجل بالطقس الجاهليّ سببًا لتمسّكها بطقس جاهليّ (الموقف السلبيّ تقابله موقف سلبيّ).

إنّ الصبّاح - في رأيي - لم يكن هدفها من هذا الطرح رفضًا للموروث الدينيّ الأصيل، بل تثبيت الفكر الدينيّ،فترضى أن تكون رسول كلمة يتعذّب كما تعذّب من قبل الأنبياء والرُّسل. فالمسيح صُلِب فداءً لبني البشر،وكذلك المرأة المثال الصباحيّة في أن يكون صلبها فداءً للمرأة العربيّة.

لكلمة الشاعر تأثير في النفوس ككلمة النبيّ، والنتيجة بينهما واحدة، وهي تجرّع الألم.

وعلى الشاعر الحقيقيّ أن يتّحد بذاته المبدعة الموحية متعاليًا على المادّيّات والألم ليتطهّر من أدوات الرواية وتتمّ نبوّة الكلمة.

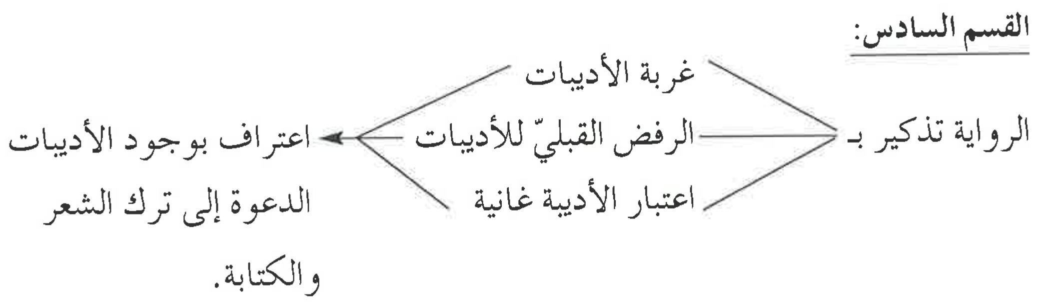
إنّ هذا الصراع ناتج عن وعي مشقّة الطريق وخطرها، ولكنّه مدعّم بإيمان يوحي بسلامة النتائج.

القسم الخامس:

الرواية = تذكير بـ: الأنوثة ضعف + الأنوثة رضى + الأنوثة عبودية ⟵ التحرر = خطيئة

لا اختبار ⟵ لا جواب

القسم السادس:



والنتيجة: الرواية = الدعوة إلى ترك الشِّعر والكتابة.

تستنطق الصباح المجتمع الذكوريّ من خلال الرواية، ويعترف ويقرّ بوجود أديبات لتؤكّد الصباح على رفض التخويف من الإثم والعار والسُمّ ورفض النظريّة القائلة بتفوّق الرجل وتمايزه، ورفض الفكر الدينيّ الذي يحتقر المرأة.
وبوصولها إلى هذا الاعتراف من المجتمع الذكوريّ أكّدت بطلان فرضيّات الرواية وإلغاء المطلوب، فتحوّلت بذات الأنثى من الشكّ، والاستجواب إلى تأكيد سلامة الفكر الأنثويّ وضرورة ممارسة فعل الكتابة، والتسلّح المبنيّ على اللامبالاة والرفض والاستمرار في القول والتعبير عن الذات والمشاعر المقدّسة؛ فبالمعرفة العميقة، وبالاقتداء بالطبيعة تنتصر قضيّة المرأة.

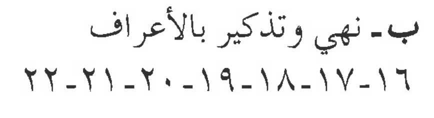
والنتيجة النهائيّة = لا مبالاة + رفض + استمرار + معرفة ← زوال نتائج الرواية
← ثبات نتائج العمل

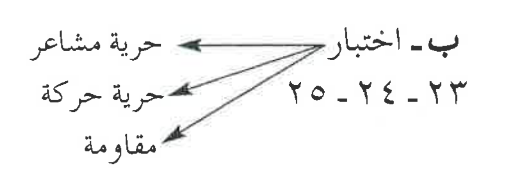
وهكذا نجد أنّ الصبّاح تعكس في البنية التركيبيّة للقصيدة أسلوبها المنهجيّ، وتسقط تفكيرها العلميّ القائم على الترابط والبرهان.

خامساً: العمارة الفنّيّة للقصيدة

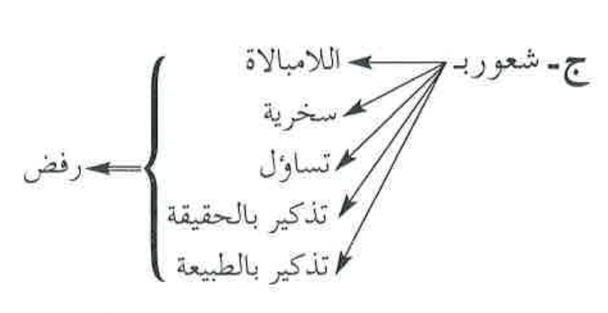
(إنّ الأرقام الواردة في التحليل هي الأرقام الترتيبيّة لأبيات القصيدة).
يقسّم النصّ من حيث البنية إلى ثنائيّة القول الآخر وعمل الأنثى.

قول الآخر	عمل الأنثى
أـتخويف/ ١ـ٢ـ٣ـ٤ـ٥ـ٦ـ٧	أـاختبار/ ١ـ٢ـ٣ـ٤ـ٥ـ٦ـ٧ـ٨ / ← رفض ← استمرار


ب- نهي وتذكير بالأعراف
١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢



ج- استنكار واتّهام
٢٦-٢٧-٢٨-٢٩



د- اتّهام الأنثى والاعتراف بوأدها
٤٦-٤٨-٥١-٥٢

د- اعتراف بارتكاب فعل التغيير

هـ- اتهام واسترضاء
٥٨-٥٩-٦٠-٦١

هـ- رغبة في التفرّد

و- دعوة إلى العودة
إلى الأعراف الموروثة
والتقيّد بها
٦٣-٦٤-٦٥-٦٦

و- تقابل الدعوة بـ
لامبالاة
رفض
استمرار
إيمان بالمستقبل

دعوة إلى الصمود والاستمرار

النتيجة

رفض الرواية

الإيمان بالعمل

اذاً: تقوم العلاقة بين قول الآخر و عمل الأنثى على ثنائيّة:
(رفض الرواية، الإيمان بالعمل القائم على الصمود و الاستمرار)

تتمحور القصيدة حول فكرة رئيسة تحمل دعوة الأنثى العربيّة إلى التحرّر من الفكر السلفيّ المتوارث والصمود من أجل إثبات شرعيّة حقّها واستمرارها في تأدية الدور الإنسانيّ الوجوديّ الذي خُلقت من أجله لتتكامل بوجودها حلقات الطبيعة الوجوديّة.

تظهر البنية الهندسيّة في شكلها الأوّليّ أنّها مؤسّسة على أقسام وأفكار تبدأ بلازمة فعل الرواية «يقولون» ولكنّها في جوهرها تقوم على شبكيّة من العلاقات المنطقيّة المتوالية بشكل منهجيّ علميّ. تأخذ الرواية في صورتي الفرضيّة والطلب شكل الممنوعات، وتربط الأسباب بالمسبّبات في تنظيم من العلاقات المسقطة عن اللاوعي المُخْتَزِل المشكلة الأنثويّة مذ كانت الأنثى.

الرواية ← باطنها = إلغاء دور المرأة
الرواية ← ظاهرها = الأسباب والمسبّبات

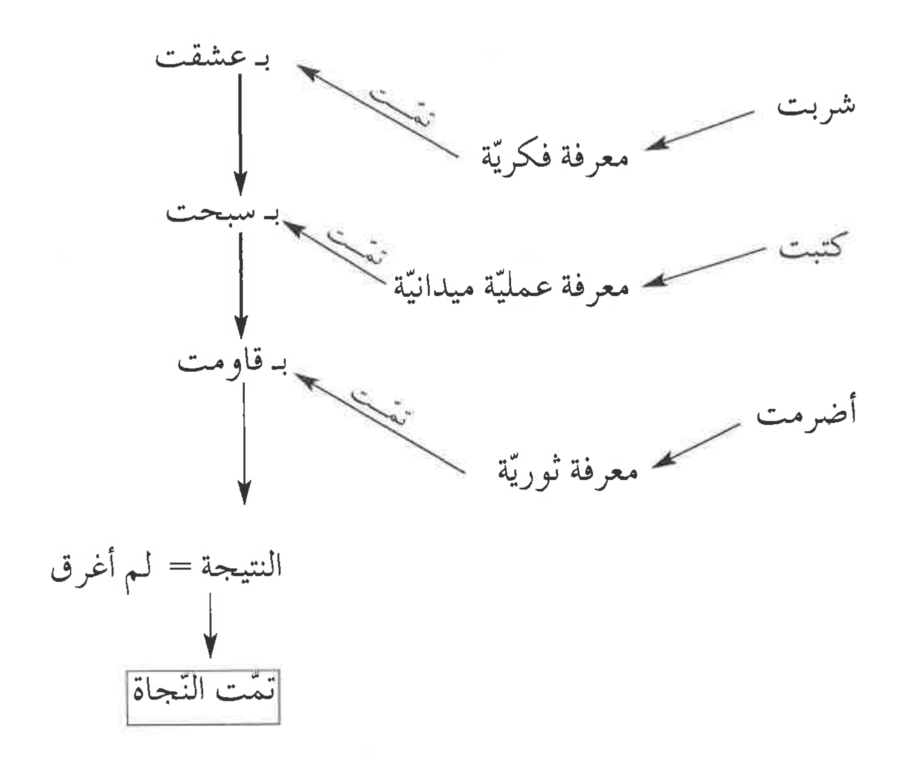
نهي ← لا تكتبي ←(السبب) مع الكتابة يكون النطق ←(نهي) لا تنطقي

نهي ← لا تقربي ←(السبب) مع المقاربة يتمّ كشف العاشق للمعشوق ←(نهي) لا تعشقي

تحذير ← إيّاك أن تشربي ←(السبب) بالماء والارتواء يغرق الإنسان ←(نهي) لا تغرقي بالمعرفة وبالمعرفة يكون الوعي

المطلوب = إبعاد المرأة عن الوعي وإلغاء دورها
= باطن الرواية

الاختبار ← باطنه = إيقاظ الأنثى وتوعيتها
← ظاهره = كشف الحقيقة



إذاً، بالمعرفة الفكريّة العمليّة الميدانيّة والمطبّقة على أرض الواقع تتمّ نجاة الأنثى. والمطلوب إلغاء باطن الرواية وتثبيت باطن الإختبار.

هذه العلاقات المتشابكة في البنية اللغويّة جاءت في قصيدة الصباح، مبنيّة على نظام البدائل الواصلة مباشرةً بين مستوى الرواية ومستوى الاختبار، ومستوى القبول ومستوى الرفض مولّدةً حركة إسقاط تتداخل فيها المعاني وتتوازى وتتسامى في حدث إنسانيٍّ أنثويّ يطمح إلى التغيير في باطن الرمز والدلالة.

لا تكتبي ⟵السبب⟵ إنّ الكتابة (أ) إثم (ب) عظيم
إنّ الكلام (أ') امتياز الرجال (ب') = لا تنطقي
لا تكتبي = لا تنطقي

لا تقربي ⟵السبب⟵ إنّ الصلاة (أ') أمام الحروف حرام (ب')
إنّ التغزّل (أ') فنّ الرجال (ب') = لا تعشقي
لا تقربي = لا تعشقي

إيّاك أن تشربي ⟵السبب⟵ إنّ مداد القصائد (أ') سمّ (ب')
إنّ الكتابة (أ') بحر عميق المياه (ب') = لا تغرقي
إيّاك أن تشربي = لا تغرقي

موت وخلود ≠ سم ⟵ بحر عميق المياه = المعرفة اللامحدودة

الموت = الموت

بالعلاقة الترابطية:

الكتابة (أ) ⟵ كلام (أ')
الصلاة (أ') ⟵ تغزل (أ')
مداد القصائد (أ') ⟵ الكتابة (أ)

أ = أ

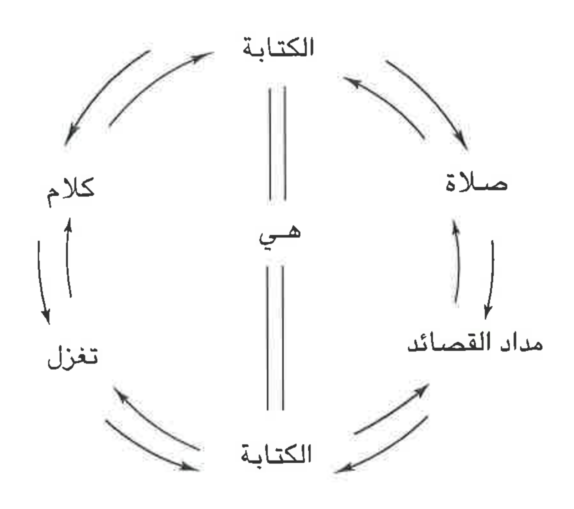
البداية = النهاية

وهي الهدف، وبين البداية
والنهاية تختزل حركة المشاعر
والإيمان والمعرفة والبوح.
والمطلوب الذكوري /لا/

بالإسقاط العكسي:

إثم عظيم (ب) ⟵ امتياز الرجال (ب')
حرام (ب') فنّ الرجال (ب')
} الحصر موت

والموت الحقيقيّ يكون استشهادًا
عن قضيّة معرفيّة.
موت المنغلقين نهاية، وموت أصحاب
الفكر حياة والشاهد = تجرّع السم سقراط
نتيجة إغراقه في المعرفة.
المطلوب الأنثوي المسقط من اللاوعي:
الموت = حياة



عمليّة كونيّة دائريّة البداية والنهاية تتوحّدان في المعرفة، وبين النقطتين تكون حركة معرفيّة حقيقيّة، والنتيجة لصالح المرأة دينًا وواقعًا وعملاً. شريطة أن تعتنق الفكر الدينيّ الصحيح، والممارسة الحياتيّة السليمة، وتعمل دائمًا على تثقيف ذاتها.

لم تكن تجربة الصباح مبنيّةً على التخفّي والتستّر، بل قابلت الرواية بإخضاعها إلى التجربة، وأسبقت التجربة بـ«ها» التنبيه و«قد» التحقيق والنتيجة نفي.

تنبيه = وها أنذا — تنبيه = وها أنذا قد عشقت كثيرًا = تحقيق

تحقيق = وقد شربت كثيرًا — تنبيه = وها أنذا قد سبحت كثيرًا = تحقيق

نفي = فلم أتسمّم بحبر الدواة على مكتبي/تحقيق = وقاومت كل البحار ولم أغرق =نفي

تنبيه = وها أنذا

تحقيق = قد كتبت كثيرًا

تحقيق = وأضرمت في كلِّ نجم حريقًا كبيرًا

نفي = فما غضب الله يومًا عليّ

نفي = ولا استاء منّي النبيّ

التأكيد على الاختبار تكرّر ستَّ مرّات بـ [شربت ـ كتبت ـ أضرمت ـ عشقت ـ سبحت ـ قاومت.] والإعلان عن نفي الحدث ونقض الفرضيّة تكرّر أربع مرات [لم أتسمّم ـ ما غضب الله ـ لا استاء النبيّ ـ لم أغرق]. وهذا تأكيد على الإسقاط الفكريّ العلميّ، لأنّ عدد مرّات التجربة يجب أن يكون مكرّرًا أكثر من النتائج.

ج+ج١+ج٢+ج٣ = ب+ب١+ب٢+ب٣

أربع مرّات تنبيه للاختبار = أربع مرّات نفي للرواية

وبالتالي:

أ + أ١ + أ٢ + أ٣ + أ٤ + أ٥ ⟷ ب + ب١ + ب٢ + ب٣ ⟵ النجاة

الاختبار

قلب الزمن الحاضر بالقطع والنفي إلى الماضي

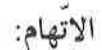
شربت كثيرًا ⟵ عشقت
+
كتبت كثيرًا ⟵ سبحت
+
أضرمت ⟵ قاومت

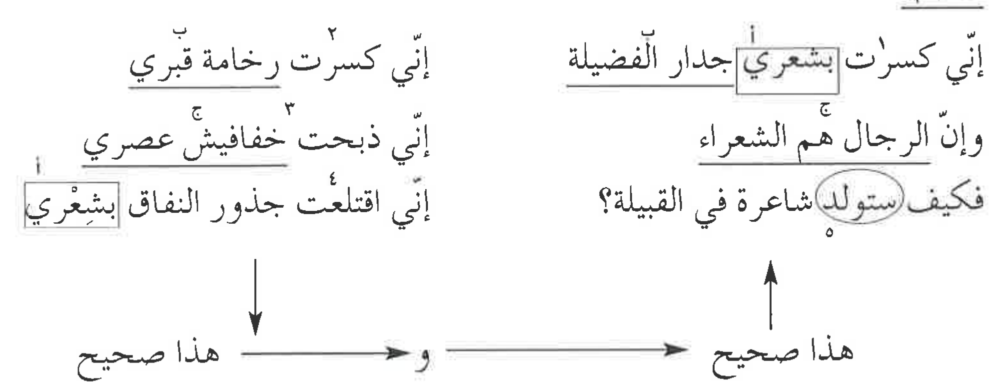
⟸

لم أتسمّم
فما غضب الله ⟵ ماضٍ
ولا استاء النبي ⟵ ماضٍ
لم أغرق ⟵ قلب الزمن الحاضر بالقطع والنفي إلى الماضي

الاختبار ونتائج التجربة = ١ ـ نفي الإخبار اليوميّ
٢ ـ نفي الإسناد الديني
٣ ـ ونفي الفكر السلفيّ السائد

⟸ النتيجة = إيجابيّة على الواقع الأنثويّ لأنّ كلّ ما تحمله الرواية من أخبار مرفوض.





بشعري= بشعري وبينهما تكون الحركة الفاعلة / كسرت ـ ذبحت ـ اقتلعت/

بكسر عرف الوأد الذي كان جدار فضيلة ذبحت فكرة تمايز الخفافيش الذكوريّة، وولدت شاعرة اقتلعت جذور النفاق.

كسرت بشعري المألوف = اقتلعت بشعري بقايا الموروث الكاذبة

وبين كسر الطوق واقتلاع شوائب الفكر يكون حدث الذبح

استنكار وادّعاء ⟸ جواب وإقرار

كسرت + تولد — كسرت + ذبحت

$(-) \times (+) = -$ — $(-) \times (-) = +$

مرحلة الاستجواب والاستنكار

سلبيّة — مرحلة إقرار إيجابية

جذور النفاق ⟸ خفافيش ⟸ رخامة القبر

الخفافيش "أوجدوا" جذور النفاق و"ابتكروا" لعبة رخامة القبر /الوأد/.

وبالقراءة الثانية:

جذور النفاق ←أوجدت الخفافيش ←أوجدوا رخامة القبر (الوأد)

وكلا القراءتين تشيران إلى موافقة الخفافيش الذكوريّة على الوأد.

التذكير:

إنّ الأنوثة ضعف

وخير النساء هي المرأة الراضية[1]

وإنّ التحرّر رأس الخطايا

وأحلى النساء هي المرأة الجارية[1]

وإنّ الأديبات نوعٌ غريب

من العشب... ترفضه البادية

وإنّ التي تكتب الشعر

ليست سوى غانية[1]

المرأة الراضية	=	المرأة الجارية	=	غانية ← سوى (حصر)
عملية انعكاس			—	رأس الخطايا (حجب التحرر)
خير	=	أحلى	=	الكتابة ← بالتحرر

ونتيجة فرضيّة الرواية، على المجتمع الذكوريّ تكريس الخطيئة ولصقها بالمرأة. إنّه مجتمع مفرّغ من المنهج، ويقوم على الغوغائيّة والتخبّط. يهتمّ بالقشور من دون الجوهر.

الكتابة = تحرّر = خطيئة
إذاً

الأديبات ← خطيئة / غواية / رفض } = منع الكتابة والمعرفة عن الانثي ورفض الأديبات والغاء نون النسوة

الكتابة = معرفة ⟸ غربة عن المجتمع البدائي.
الكتابة = أدب + شعر ⟸ الرفض

إنّ «نون» النسوة تمتلك فاعليّة تغيير الثبوت وإخضاع الحدث إلى بناءٍ سكونيّ طارئ، والسكون فيزيائيًّا منطلق لحركة جديدة. ولذلك تُرفض ممارستها، وتُلغى فاعليّتها.

ويرفض وجود المرأة القادرة على كسر العرف السائد الذي بُني عليه المجتمع، رغبةً منها في حركة جديدة، ولكن بين الحركة والحركة يحدث سكون فاعل للتأمّل والإقلاع. والصباح تدعو إلى حركة إقلاع واعية.

سادساً: وظيفة اللغة في مستوى الدلالة

تبدأ حركة الرواية بجملة فعليّة مضارعة «يقولون»، وتنتقل هذه الحركة إلى أسلوب الطلب المتضمّن النهي. وبين الرواية والنهي تأكيد على بثّ الفرضيّة.

التركيب اللغويّ:

١ ـ الرواية الأولى:

جملة فعليّة ⊂ جملة إسميّة (حرف تأكيد مشبّه بالفعل + جملة إسميّة)
+ جملة فعليّة (حرف نهي + فعل مضارع مجزوم)
+ جملة إسميّة (حرف عطف + حرف تأكيد مشبّه بالفعل+ جملة إسميّة + ظرف مضاف)
+ جملة فعليّة (حرف نهي + فعل مضارع مجزوم)
+ جملة إسميّة (حرف عطف + حرف مشبّه بالفعل + جملة إسميّة)
+ جملة فعليّة (تحذير (إسم) + حرف مصدريّ ناصب + فعل مضارع منصوب)

الرواية الفعليّة // ٣ جمل إسميّة + ٣ جمل فعليّة
فعل مضارع // ثلاثة أفعال + ١١ اسم + ٦ أحرف

ساوت الرواية بين الإخبار والنهي عند وقوع الحدث

الجمل الفعلية	الجمل الإسميّة
لا تكتبي	١ ـ تامّة الأركان + **نعت**
	٢ ـ **تامّة الأركان** + ظرف + مضاف إليه ٣ ـ **تامّة الأركان**

يشير فعل الرواية إلى التوازن ما بين الجمل الفعليّة والإسميّة وهذاالتوازن يساوي ما بين الرواية وفاعليّة التلقّي، وتكون النتيجة على المتلقّي سكونيّة الحدث؛ فالإخبار والحدث متساويان، وبالتالي تكون الرواية نقلاً شفويّاً لاتأثير، جوهريًّا، لها.

والعلاقة بين المسند والمسند إليه في مجموعتي الجمل الإسميّة والفعليّة تتشكّل على النحو التالي:

	الجمل الفعلية	الجمل الإسمية
المسند إليه	(ي) أنت	الكتابة الصلاة مداد القصائد
المسند	فعل مسبوق بنهي فعل مسبوق بنهي فعل مسبوق بنهي وحرف مصدري تأويلي تفسيري ناصب يتجه بالحدث نحو المستقبل.	اسم ظاهر منعوت اسم ظاهر مفرد اسم ظاهر مفرد

والنتيجة:

٣ مسند إليه في الجملة الإسميّة مقابل ٣ مسند
١ مسند إليه في الجملة الفعليّة مقابل ٣ مسند
← قدرة الأنت على إسناد الحدث وقبول الحركة

في الرواية الأولى تثبت الصباح من خلال الصياغة اللغويّة فاعليّة الأنثى. فالألفاظ الأنثويّة أكثر حضورًا في عمليّة الإسناد.
المسند إليه = كتابة + صلاة + الأنت ٣ مرات
فتكون عمليّة الإسناد مقتصرة على الفاعليّة الأنثويّة.

الرواية الثانية

الجمل الإسمية	الجمل الفعلية
١ ـ إن الكلام امتياز الرجال	١ ـ لا تنطقي
٢ ـ إن التغزل فن الرجال	٢ ـ لا تعشقي
٣ ـ إن الكتابة بحر عميق	٣ ـ لا تغرقي

علاقة المسند بالمسند إليه:

المسند (الظاهر)	المسند إليه (الظاهر)
الكلام	أنت
التغزل	أنت
الكتابة	أنت

الكتابة والقراءة المكتوبة في الرحم الفكري الصباحي اللاوعي يمكن أن تكون على الشكل التالي:

الكلام	أنت
التغزل	أنت
الكتابة	أنت

	الجمل الإسميّة	الجمل الافعليّة
المسند	امتياز الرجال فن الرجال بحر عميق	نهي + { تنطق / تعشق / تغرق } ⟸ الرغبة في القمع وعدم إسناد الحدث إلى الأنثى

والقراءة المثال التي تتمركز في اللاوعي وتعطي إسقاطات شبيهة بها، لكنّها لا تكون الصورة المثال:

الامتياز	=	لا هويّة محدودة
فنّ	=	لا هويّة محدودة
بحر	=	لا هويّة محدودة

ولكن:

تعريف الامتياز بالرجال، والفنّ بالرجال أضعف شموليّة الامتياز والفنّ،وحصر تحديد فاعليّتهما. وبالحصر نهي عن النطق والعشق.

والبحر لم يُعَرَّف بالإضافة إلى محدود، بل نعت بالعمق، فازدادت شموليّته وسعة دلالته، وكلّما ازداد الإنسان ارتواءً من المعرفة ازدادت نسبة نجاته من الغرق.

وبالقراءة المعمّقة نلمس غلبة العنصر الأنثويّ المسند إليه «كلام جمع كلمة مؤنّثة ـ الكتابة ـ أنت ـ أنت ـ أنت».

خمس كلمات مقابل كلمة واحدة.

وهذا دليل على الحاجة إلى الأنثى في عمليّة الإسناد، ولا يمكن أن يكون المسند المذكّر الذي غلب ظهوره /٦ مرّات/ إلاّ بوجود العنصر الأنثويّ الذي يقبل إسناد العمل إليه.

الرواية الثانية:

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
إنّي كسرت	كسرت بشِعْري جدار القضيّة
إنّ الرجال هم الشعراء	ستولد شاعرة في القبيلة

تكتسب الجمل في الرواية الثالثة خاصّة التداخل والترابط بين الجمل الفعليّة والإسميّة، ويصير الإسناد في الجملتين الفعليّة والإسميّة مقصورًا على «الأنت»، ويتحوّل التأكيد عن التعميم والإسناد إلى غير العاقل، إلى العاقل الأنثويّ. لقد كسرت الصباح قاعدة الشموليّة والتعميم، وأدخلت مستوى الرواية في حيّز التخصيص والتحديد. وهذا إشارة نفسيّة إلى التراجع في سيطرة الرواية على التلقّي؛ لأنّ المنطق العلميّ يصوغ نظريّاته عن طريق الاستقراء، ثم يولّد من كلّ نظريّة عامّة حالات خاصّة، وربما، مسلمات لا برهان عليها.

وفي المجتمع قوانين شاملة عامّة لا تنطبق برهنتها على الأنثى المتميّزة، التي لا يحتاج وجودها إلى برهان، وبذلك طلبت الصباح الدليل ممّن ادّعى. وهذا قانون حقوقيّ/ البيّنة على من ادّعى/. وعلى أصحاب الرواية تقديم الدليل، وتحديد المُدّعى عليه. وبذلك صارت الأنثى الصباحيّة الأكثر بروزًا وانغراسًا بين قطبي حدث الاتّهام والاستنكار.

	الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
المسند إليه	(ي) أنا الأنثى /تخصيص/ الرجال /تعميم ذكوريّ/	(تُ) أنا الأنثى /تخصيص/ شاعر /تعميم أنثويّ/

مقابل التعميم الذكوريّ الجماعيّ المُعرّف تعميم أنثويّ مفرد نكرة، وما بين التعريف والتنكير تتحدّد أهميّة الأنثى ودورها الفاعل في بروز العنصر الأنثويّ الذاتيّ، ودورها في الكشف عن العناصر الأكثر فاعليّة في معادلة المعرفة الشعريّة.

	الجمل الإسميّة	الجملة الفعليّة
المسند	كسر هم الشعراء	كسر تولد

الولادة للشعر، والأنثى بقدراتها تكسر صنميّة العرف وتتمّ اليقظة المعرفيّة.

اعتمدت الصباح التجربة الشموليّة العامّة في الإخبار عن الرواية، ثم خصّصت العناصر الخاضعة لهذه التجربة التي تحتاج إلى إسناد العمل وتحديد إبطال الرواية، فتحوّلت عن الشموليّة إلى تخصيص العنصر الرئيس؛ لأنّ التجربة كلّما قلّت عناصرها سَهُل اكتشاف نتائجها، وكذلك الجريمة. والهدف إثبات بطلان نظريّة الرواية المتوارثة.

الرواية الرابعة:

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
إنّي كسرت إنّي ذبحت إنّي اقتلعت	كسرت... ذبحت... اقتلعت... حطّمت

تتداخل ثلاث الجمل الإسميّة في إسناد خبرها مع أربع جمل فعليّة، وترتبط الجملة الإسميّة في تأكيد الحدث، والجملة الفعليّة بـ«الأنا» الأنثويّة التي أسند إليها عنف الحدث /كسرت ـ ذبحت ـ اقتلعت ـ حطّمت/ فيظهر تحوّل الأنثى من المشاهدة والاختبار والدفاع عن النفس إلى الهجوم، لتستردّ قدراتها وتكتب انتصارها؛ لأنّ المدافع خاسر غالبًا، واحتمال النصر للمهاجم أقوى.

	الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
المسند إليه	ثلاث مرّات «الياء» الدالّة على الأنا الأنثويّة المتسلّحة بفعل التحدّيّ المعروف بالتأكيد	«التاء» أربع مرّات وهي تدل على الأنا الأنثوية التي قبلت إحداث التغيير القائم على العنف

ولقد كان المسند واحدًا في الجمل الفعليّة والإسميّة دليلاً على قبول الأنثى أن يسند إليها فعل التغيير، مع التأكيد على ذلك .

بدت «الأنا» الأنثويّة الشاعرة في مستوى الرواية الرابعة أكثر حضورًا وفاعليّة. وبرزت

كنقطة مركز أساس تتمحور حولها القصيدة التي بنيت على ثنائيّات محوريّة متضادّة منها (المذكّر - والمؤنّث) - (الماضي والحاضر) - (القبول والرفض) - (التهديد والاسترضاء) - (الإخبار والحدث).

وكانت هذه الرواية نقطة الحسم بين شكل الشكّ وفاعليّة الحدث.

الرواية الخامسة:

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
إنّ الأنثويّة... خير النساء... إنّ التحرّر... أحلى النساء أربع جمل إسميّة	غياب تامّ

في مستوى التذكير يسيطر الإخبار والتأكيد على مصداقيّة الخبر، وترفض الشّاعرة أن يكون للتذكير فاعليّة في مستوى الحدث، فتغيب الأنا الأنثويّة عن ساحة الاستجابة والسّماع والدعوة إلى العرف المتوارث. وبذلك أثبتت الصباح تجاوزها مرحلة التخويف والتهديد ولفت الانتباه، فأعلنت من خلال الرواية تحرّرها من خلفيّة الموروث وعدم انشغالها بالمشافهة والسماع، واهتمّت بالاعتراف المباشر القائم على الإيمان وقبول الألم الذي لا يأبه للاسترضاء المبنيّ على التركيز ترغيبًا في نجاة اجتماعيّة مزيّفة، مع التشديد على بروز الألفاظ الأنثويّة في عمليّة تأثير عاطفيّ على الأنثى (أنوثة - نساء - نساء - امرأة - راضية - خطيئة - جارية) بالإضافة إلى غياب الفعل. وربّما رسمت الصباحُ في لاوعيها صورة المرأة العربيّة التي تضعف أمام الكلام، والأخبار؛ أو صورة المجتمع

الذكوريّ الذي يرفض تذكير المرأة بالفعل الحركيّ الذي يمكن أن يوقظها.

أمّا المسند، فلقد بدأ بكلمة (ضعف) ثم تدرّج من البساطة في التركيب إلى التعريف والنعت والإضافة، ليسند إلى مسند إليه متقدم ظاهر معرفة، تأكيدًا على أنّ الرواية التي تُظْهر الاسترضاء، تعرف حيثيّات الخبر وأسبابه ونتائجه.

الرواية السادسة:

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
إنّ الأدبيات... إنّ التي...	تكتب... ترفضه البادية ليست سوى غانية

تتداخل في الرواية الأخيرة القائلة بالعودة إلى الأعراف، الجمل الإسميّة والفعليّة، والجمل الفعليّة مع الجمل الفعليّة في عمليّة تكثيف ضاغطة تهدف إلى التأثير في الأنثى في حركة تغليب سلبيّة الحدث /ترفض البادية ـ ليست سوى غانية / وإبراز سلبيّة المجتمع البدويّ /الأديبات نوع غريب من العشب/ ولكنّ نتيجة الرواية على الأنثى سلبيّة في أدائها المباشر لأنّها لم تصغ إلى النتائج.

(سالب) (سالب) (سالب) = سالب

والسلبيّة الاجتماعيّة المتوارثة، تقابلها سلبيّة أنثويّة ترفض الإصغاء والاستماع وقبول المتوارث الشفويّ، فتكون النتيجة على الأنثى إيجابيّة الفاعليّة.

(سالب) (سالب) = موجب

	الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
المسند إليه	الأديبات التي	البادية ضمير مستتر ضمير مستتر

إنّ التأثير الأنثويّ في الرواية يتجسّد في حصر عمليّة الإسناد بالعنصر الأنثويّ، والمتشكّل في الجمل الإسميّة من جمع مؤنّث سالم يشير إلى التعميم والتعريف، واسم موصول أيضًا يشير إلى التعميم والتعريف، وهو في الحالتين يشير إلى الأنثى العاقلة. أمّا في الجمل الفعليّة، فلقد كان المسند إليه مؤنّثًا معرفة، وغير عامل لكنّه يحمل معنى السِّعة في الجملة الفعليّة الأولى، والإضمار في الجملتين التاليتين. فانتقل الاتّهام من الشكل المباشر إلى الغائب الذي أفاد في هاتين الجملتين تعميمًا لتحقيق المطلوب المضمر، وهو دعوة الأنثى إلى اعتناق شرائع البادية، والنزوع عن المعرفة لتبقى في جاهليّة قاتلة وبذلك يكون السمّ الذي ذكرته الرواية الأولى، مطلبًا لتبقى الأنثى مسمّمة بالأفكار السلفيّة.

II ـ ننتقل من دراسة الصيغ اللغويّة ودلالاتها في نقل الرواية إلى حقول الاختبار العمليّة والميدانيّة.

الحقل الأوّل:

ويتضمّن الأفكار الواردة في الأسطر:

٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥

الحقل الأوّل = حقل اختبار

عدد الجمل الإسميّة = (ها أنذا...) + (ها أنذا...) = ٢

وكل جملة إسميّة = حرف تنبيه + ضمير + اسم إشارة + حرف تحقيق + فعل ماضٍ.

أمّا الجمل الفعليّة، فهي متنوّعة الصّياغة والزّمن وتقسم إلى إثبات مسبوق بتأكيد على خوض التجربة، ونفي يثبت بطلان فاعليّة التجربة التي نهت عن خوضها الرواية.

الاختبار		النتائج	
قد شربت	←	لم أتسمّم	قلبت الزمن إلى الماضي وأسندت صحّة الاختبار إلى الماضي
قد كتبت + قد أضرمت	⟸	فما غضب الله / ولا استاء منّي النبيّ	⟸ نفي حدوث خطأ دينيّ

تُدخل الصباح الاختبارات في الزمن الماضي وتسندها إلى الأنا الأنثويّة الفاعلة في حركة الفعل والحدث، وتكون النتيجة أيضًا ملموسة في الزمن الماضي.

أثبتت الصباح باختبارها هذا بطلان زعم الرواية المنبثقة عن الموروث، لأنّ الماضي شهد بروزًا أنثويًا.

نلاحظ في حقل الاختبار الأوّل أنّ الإعلان عن خوض التجربة ونتائجها قد سبق بحرف تنبيه، والتنبيه علامة إيقاظ من أجل خلق الوعي وكشف الحقيقة. ثم أثبتت الفعل الماضي بحرف تحقيق لتعلن بطلان الزعم على الصعيد الاجتماعيّ الداخليّ العمليّ، وعلى الصعيد الدينيّ، فكان الاختبارالأوّل إلغاءً لأفعال النهي،

مع حضور بارز للأنا الأنثويّة التي قامت بالحدث /أنا ـ شربت ـ أتسمّم ـ أنا ـ كتبت ـ أضرمت/ (ستّ مرّات)، وكان دور المذكّر المسند إليه محصورًا بالدلالة الدينيّة «الله» «النبي».

الحقل الثاني = حقل اختبار

كرّرت الصباح في الاختبار الثاني أدوات الاختبار الأوّل (تنبيه + تحقيق + نفي). ولكنّها قلّصت من عدد الجمل الفعلية، وأبقت فعل التجربة محصوراً بالزمن الماضي، تأكيداً على سلامته من الشوائب.

عشقت + سبحت + قاومت ⟸ لم أغرق.

وحصرت فاعليّة التجربة والحدث واكتشاف النتائج بإسنادها إلى الأنثى (أنا + تُ + أنا + تُ + أنا + تُ + تُ + أنا + أنا ضمير مستتر).

تساوى في الاختبار الأوّل والاختبار الثاني عدد المسند إليه الأنثويّ، فأبقت بذلك على عناصر العاملين في التجربة ثابتًا، وهذا تأكيد نفسيّ في لاوعي الصباح ومعرفة أكيدة بالتاريخ الأنثويّ الثابت والعمليّ.

أبطلت الصباح السماع والمشافهة بالواقع العمليّ التجريبيّ المنطقيّ، وأظهرت «الأنا» الأنثويّة قادرة على مسرح الحدث، وغيّبت أيّ دور للعنصر الذكوريّ.

الحقل الثالث = معرفة الذات والتساؤل

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
من قال؟	وأضحك...
للشعر جنس...	وأسخر ممّن...

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
للفكر جنس	يريدون... وأْد النساء
من قال...	وأسأل...
إنّ الطبيعة...	لماذا يكون
	ويصبح صوت النساء...
	لماذا يقيمون...
	قال
	قال
	ترفض

إنّ نسبة الجمل الفعليّة ١٠/٥ تعادل ضعف الجمل الفعليّة، وهذه النسبة تشير إلى أنّ الشاعرة تجاوزت مرحلة الشكّ وتخلّت عن الأسلوب الإخباريّ التأكيديّ الذي يهدف إلى إبلاغ الرسالة للناكر، والصباح لا يعنيها اتّهامها بالجحود والإنكار.

اخترقت الزمن نحو المستقبل، وصار الفعل الماضي مدخلاً إلى السؤال ورفض الفرضيّات باستنكار فعل الرواية (قال)؛ فالفعل «يقولون» القادم من غياهب الماضي مجهول المسند إليه.

وتتحوّل أفعال الحدث باستثناء نقض فعل الرواية إلى أزمنة حاضرة، لتتجاوز مرحلة الماضي وتتحرّك في الحاضر والمستقبل.

إنّ الأسلوب الإخباريّ لا يعني الأنثى الصباحيّة إلاّ بقدر ما يكون بوّابة إلى الاختراق والكشف ومن ثمّ الرفض.

	الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
		ضمير مستتر (أنا)
		ضمير مستتر (أنا)
	اسم ظاهر (من) اسم استفهام	ضمير متصل (الواو)
	اسم ظاهر نكرة (جنس)	ضمير مستتر (أنا)
المسند إليه	اسم ظاهر نكرة (جنس)	اسم ظاهر معرفة /غناء
	اسم ظاهر نكرة (جنس)	اسم ظاهر معرفة /صوت
	اسم ظاهر (من) (اسم استفهام)	ضمير متّصل (الواو)
		ضمير مستتر غائب /هو
		ضمير مستتر غائب /هو
		ضمير مستتر غائب /هي

إنّ المسند إليه في الجمل الإسميّة اسم ظاهر لا يحمل إخبارًا أو تأكيدًا، وإنّما استفهامًا ونكرة عامّة. وفي الجمل الفعليّة تعدّدت أنواع المسند إليه بين الإظهار والإضمار، الإضمار المتّصل، والإضمار الغائب؛ لأنّ مرحلة اليقين التي وصلت إليها الشاعرة تميّزت بالنّضوج، وبالنضوج الحقيقيّ يتساوى الجنس البشريّ، ويأخذ كلٌّ دوره بحسب ناموس الطبيعة.

	الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
	قال	أضحك
المسند	مقدّر	أسخر
	مقدّر	يريد

المسند	مقدّر قال	أسأل يكون... حلالاً يصبح رذيلة يهيم قال قال ترفض

تحوّل المسند في مرحلة اليقين إلى رواية مستنكرة، وإلى حدث مقدّر، ولم تبقَ أهمّيّة لإظهار شكل الحدث في حالة الإخبار والنقل، بل اهتمّت الشاعرة بتوزيع المسند في حالة الحدث والحركة الفعليّة وتطوّر بشكل منطقيّ علميّ.

(أضحك = التحرّر من الخوف ← أسخر = الخروج على الخنوع والقبول ←
يريد = مشيئة ورغبة وإرادة ← أسأل = البحث عن الحقيقة ←
يكون = الكينونة الوجوديّة ← يصبح = التغيير بالرغم من وجود صباح ←
يقيم = حواجز مصنوعة ← قال+ من قال = استنكار ← ترفض=
رفض الواقع).

الحقل الرابع= الاعتراف وقبول الألم

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
هذا صحيح	جرّحوني
هذا صحيح	صلبوني

الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
أجمل... غزال فشكرًا لهم	جعلوني

في مرحلة الاعتراف وقبول الألم، عادت الجملة الإسميّة الإخباريّة البسيطة إلى البروز، لتعكس الصراحة والوضوح والمعرفة. واتّسمت الجمل الإسميّة بانفصال تامّ عن الجمل الفعليّة، لأنّ مرحلة الاستجواب التي بنتها الشاعرة على الاعتراف لا تحتاج إلى حدث يحرّك ويفعل. ولذلك جاءت الجمل الفعليّة بأسلوب الشرط، واختزلت الأفعال في لفظ واحد المسند، والمسند إليه، والمتعدّى عليه، ولم يكن لهذه الأفعال صفة تشير إلى الصيرورة والحركة، بل كانت أفعالاً تحمل في دلالاتها الصرفيّة واللغويّة والموسيقيّة، خاصّيّة الألم.

	الجملة الإسميّة	الجمل الفعليّة
المسند إليه	هذا هذا أجمل شكرا } اسم ظاهر	الواو الواو الواو } ضمير متصل

يغيب تخصيص المسند إليه في مرحلة الاعتراف الإخباريّة، وينحصر في ضمير متّصل يشير إلى جمع الغائبين في الجمل الفعليّة، وهذا الحصر يعكس منهجيّة التفكير السليم الذي بُنيت عليه القصيدة، وفيه عودة إلى بداية الرواية «يقولون» وأصحابها المغيّبين عن مسرح الواقع، والمتّصلين به بشكل خفيّ، والذين يصنعون الخبر ويعملون على تحريكه. هم عينهم جرّحوا، وصلبوا، وجعلوا حركة الرواية البدائيّة = حركة النتيجة.

	الجمل الإسميّة	الجمل الفعليّة
المُسند	صحيح	جرح
	صحيح	صلب
	غزال	جعل
	لهم (مقدّر)	

تجعل الصباح من الجملة الخبريّة إقرارًا يحمل في طيّاته الجرأة والتعميم على متابعة الطريق، دافعةً بنفسها فدائيّة في عصر عربيّ صفيح، لتفجّر ذاتها علانيّةً من أجل أن ينتصر الحقّ الأنثويّ.

وتغيب في هذا الحقل «الأنا» الأنثويّة لتستعيض الشّاعرة عنها بأداة تنبيه وإسم إشارة، جاعلةً من الإشارة إعلانًا مباشرًا عن قبولها الألم، مؤكّدةً معرفتها المسبقة بالواقع وردّات الفعل السلبيّة، مستخدمةً أسلوب الشرط بفعل وجواب ماضيين، مخترقةً الذاكرة العربيّة التي جرحت وصلبت الأنثى العربيّة، وما تزال تمارس الفعل على مسرح الواقع. والجزاء الذي تقدمه الصباح إلى قبيلة الذكور هو الشكر، لأنّهم بدفعها إلى اعتناق الألم رفعوا من شأنها وطهّروا الذات بنار الألم.

الحقل الخامس= مرحلة القرار والتبليغ

الجمل الإسميّة	المسند إليه	المسند
إنّ الرعود	الرعود	ستمضي
إنّ الزوابع...	الزوابع	تمضي
إنّ الخفافيش	الخفافيش	تمضي
إنّهم زائلون...	هم	زائلون
أنّي أنا...	أنا	الباقية

في مرحلة التبليغ أمسكت الشاعرة بزمام الموقف، وأعلنت أفكارها بثقة مستخدمةً أسلوب التأكيد بحرف مصدريّ تأويليّ. وبقراءة معمّقة يظهر الإسقاط اللاوعي.

يمكننا القول إنّ المسند إليه في حالة الإخبار التبليغيّ جاء جمعًا معرفة، ومع تجمع هؤلاء «الهم» الغائبين عن مسرح الحقيقة والواقع يبقى الحدث المتّجه نحو المستقبل متجوهرًا في خطاب «الأنا» الأنثويّة المنتصرة.

الجمل الفعليّة	المسند إليه	المسند
أضحك...	مستتر «أنا»	أضحك
أرفض...	مستتر «أنا»	أرفض
أبقى...	مستتر «أنا»	أبقى
أغنّي...	مستتر «أنا»	أغنّي
أغرق...	مستتر «أنا»	أغرق
أعرف...	مستتر «أنا»	أعرف

جاءت أفعال التبليغ مساوية عدد أفعال الرواية «يقولون»، ومشاركةً لها في الزمن الحاضر. ولكنّ دلالة الرواية تشير إلى التّواتر والنقل الآنيّ. أمّا أفعال التبليغ، فهي تحمل دلالة الحركة واختراق المستقبل (أضحك ـ أرفض ـ أبقى ـ أغنّي ـ أغرق ـ أعرف).

وهذه الأفعال تشكّل إسقاطات الرؤيا الصباحيّة التي ترتاد المستقبل، فلقد تتابعت بدلالاتها المتكاملة، والتي بدأت بالضحك المبنيّ على تخطّي الواقع المريض. وهذا التخطّي أكسب الشاعرة صفة الضحك ذات الدلالتين. أوّلاهما: الاستهزاء بالواقع الذكوريّ المحنّط في كلام متوارث، وثانيهما: الانتصار على هذا الواقع بنعمة اللامبالاة.

ومع الضحك إلتزمت الصباح مبدأ الرفض، فجمعت بين متناقضين في تكوين تضاريس التعابير الشعوريّة، صورة السعادة المقرونة بالتحدّي والتمرّد، وأضافت إلى هذين التكونين علامات الاستمراريّة، والسعادة والمعرفيّة؛ مع التأكيد على أنّ ما تعلنه نابع من معرفة، وليس دفقة شعوريّة آنيّة، بل دفقة شعوريّة إنسانيّة تمخّضت عن معاناة /القبول والرفض/ و/الشكّ واليقين/ و/الاحتواء والتمرّد/... الخ. معاناة الكشف عن الحقيقة في معركة الصراع مع الباطل. ثم تختزل الصباح هذا التناقض بإعلان الرؤيا المستقبليّة التي ترغب في تحقيقها، فتؤكّد على /الزوال والبقاء/ زوال الباطل المجسَّد في أحاديث «هم»، وبقاء الحقّ المجسّد في عمل «الأنا» الأنثويّة.

تؤكّد الصباح بانتصار «الأنا» الأنثويّة على فاعليّة المرأة الخالقة ـ المرأة الاستثناء وتغيير شكل القرار عندما تقابل الكلام المنقول المسموع بفعل ديناميكيّ «مرئيّ»، وتكون «الأنا» الأنثويّة المتفرّدة في مواجهة الجمع الغائب هم «الواو»، وتلغي نظريّة التفضيل.

إنّ الفعل الذكوريّ يُسند في الرواية بالاتّصال «يقولون»، وبالاتصال يحقّق ذاته، ويشبع رغباته. أمّا الفعل الأنثويّ في مرحلة التبليغ، فإنّه يسند إلى فاعل متكلّم مستتر، ثم يبرز الفاعل المتكلّم في مرحلة الإخبار المؤكّد في جملة إسميّة إخباريّة مزاوجًا بين الوصل والفصل «ي» و«أنا». وبذلك أثبتت الشاعرة برسالتها نبوءة الكلمة الشاعرة، وأعطتها التراتبيّة عينها في التبليغ، فبدأت سرّيّة مضمرة، ثم ازدادت فاعليّة عن طريق التواصل والاحتكاك مؤكّدةً على الوجود، ثمّ الاتحاد بذاتها الجوهريّة والانفصال عن كلّ سابق.

تجسّد الصباح في هذه القصيدة المرأة العربيّة التي تتطلّع إلى فعل التغيير، ونزع القشرة، بغية الكشف عن جوهر الحقيقة، والعمل بموجبها، فكان الشعر معها رؤيا بفعل يطمح إلى ثورة اجتماعيّة تجسّد فعل الرؤيا الإبداعيّة، المتشكّل من

تفاعل رغباتها العميقة الأصيلة، والمعرفة الجوهريّة، ومن الرفض للظلم والتسلّط والإذعان. أملاً في تصحيح الواقع العربيّ وإعادة صياغة نظريّات اجتماعيّة مبنيّة على العدل والحقّ والمساواة، ليكون للأنثى العربيّة دورها الحضاريّ في خلق عالم جديد أكثر إنسانيّة.

أخلصت الصباح في هذه القصيدة لطبيعتها الشعوريّة، وكانت الكلمات في تناسقها انعكاسًا صادقًا للشعور الذي تتحرّك به النفس، فجاءت الصور التعبيريّة طليقةً متناغمةً مع شعورها في مرونة وطواعيّة. وكانت الموسيقى متوافقةً مع الدفقة الشعوريّة التي أعطت للجمل إيقاعًا موسيقيًّا منسّق الذبذبات مع المواقف الذاتيّة الإنسانيّة في نفس الشاعرة، وذلك في مقطوعات موسيقيّة توحي بالصورة المعبّرة عن التدفّق الشعوريّ المختزل ذات الشاعرة الإنسانيّة في مواجهة الواقع.





كلمة أخيرة

اخترقت الصباح بشعرها وأفكارها حصون الماضي، وزعزعت عصمة التقاليد البالية، والمفاهيم المهترئة، فاقتحمت موروثًا فكريًا، ومفهومًا مقدّسًا، داعية إلى التمّرد على صنميّة الفكر، وفتح الطريق أمام ولادات فكريّة تنبئ بطاقات هدم وبناء دائمين، فيثبت الإنسان العربيّ، الرجل والمرأة، قدرته على مواكبة الحضارة، ويأخذ دوره في كتاباتها، ليكسبها لونًا من وجوده الفكريّ.

آمنت سعاد الصباح بالإنسان، وحضّته على صنع تاريخه، وكتابة أمجاده، وخلق مستقبله، لأنّ ارتباط الحاضر بالماضي ليس إلاّ ارتباطًا «جينيًّا» يتوالد من تفاعل عناصر الحياة المتجدّدة، ولذلك يجب أن يكون للحاضر أوّلاً وللمستقبل ثانيًا ميزات وخصائص، أشكال متجدّدة ومتطوّرة بتطوّر الحياة واستمراريّتها.

لقد كان شعرها كشفًا مستمرًّا للواقع المتحرّك الذي ينمو في صميم الحركة المستقبليّة، فالشعر عندها متنفّس خلاص يحرّرها من الاختناق والصمت واليأس، فتميّزت قصائدها بخاصّتين : الاهتمام بالشيء، والتحريض عليه من الداخل.

نفخت الصباح في شعرها أفكارها وآراءها في الحياة، وتناولت موضوعات كثيرة، فكانت قضيّة المرأة الأكثر بروزًا إلى جانب تألّق انتمائها القوميّ العربيّ.

عرّضت الصباح مأساة المرأة العربيّة كمشكلة قائمة ومستمرّة في آن معاً بل

ومبتورة من الحلول أيضًا، إذا بقي الواقع العربيّ يصون سكونيّته وأفكاره الموروثة، فرسمت هذا الواقع صورًا معبّرة، وألقت في سكونيّته حصى التمرّد والثورة، لتستفيق الشعوب العربيّة من سباتها وتأخذ الأنثى دورها وحقّها الإنسانيّ.

وأعلنت قلقها على المصير من التشرذم والتمزّق في جسد الواقع العربيّ، مصوّرة مساوئ هذا الواقع، داعية إلى تخطّي المصاعب من أجل بناء مجتمع عربيّ أفضل، ومجتمع إنسانيّ أسمى يقوم على الحبّ المنعتق من المادّة والمصالح الذاتيّة، لتحرّر النفس من نزعتها، وتحقّق حرّيّتها وطهرها، فالمحبّة قوّة شاملة غير محدودة أو موجّهة، إنّها إنسانيّة شاملة لا هويّة تقيّدها.

إنّ سعاد الصباح سيّدة عربيّة رائدة أثبتت فاعليّتها في الحياة وتجسّد إبداعها الشعريّ في طرح الموضوعات الجريئة واستخدام اللغة الشعريّة الحيّة التي توحي بالتحدّي والاستفزاز، وتهزّ الأعراف، وتزلزل السكون، وتنبئ بانفجار الطاقات، وتفاعلها، ليأتي المستقبل من رحم الحاضر وبذور الماضي الصالحة للحياة.

تحوّل الشعر بتجربتها الإنسانيّة الرائدة عن مهمّة التصوير والتزيين والنسخ إلى فاعليّة خلق تسعى إلى تغيير الأشكال من أجل الواقع الجديد وهندسته، مستخدمةً صورًا مشحونة بخاصّتي التجسيد والتحويل، وغنيّة بالإيحاءات والدلالات ممّا أكسب شعرها نفحةً إنسانيّة سمّت بها فوق الزمان والمكان.



بيبليوغرافيا

القرآن الكريم

. ابن حجر: فتح الباري علي صحيح البخاري، دار أحياء التراث بيروت

. ابن رشيق: العمدة، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، دار المكتبة التجاريّة الكبرى في مصر ـ الطبعة الثانية ١٩٥٥ .

. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار الثقافة بيروت عام ١٩٨٠

. ابن منظور: لسان العرب المحيط، تصنيف خيّاط ومرعشلي، دار لسان العرب بيروت عام ١٩٧٠

. ابو ديب، كمال: جدلية الخفاء والتجلّي، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩

. ادونيس (علي أحمد سعيد): الثابت والمتحوّل، دار العودة بيروت ١٩٨٢
فاتحة لنهايات القرن، دار النهار للنشر بيروت ١٩٩٨

. أمين، قاسم: تحرير المرأة، دار المعارف في مصر ١٩٧٠

. حسين، طه: خصام ونقد، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧

. الحصري، ساطع: الأعمال القوميّة، مركز دراسات الوحدة العربيّة بيروت ١٩٨٤–١٩٨٥

. زين، زين نور الدين: نشور القوميّة العربيّة، دار النهار بيروت ١٩٦٨

. الصباح سعاد: أوّلاً، الدواوبن

– أمنية، الطبعة الثامنة، دار سعاد الصباح الكويت ١٩٩٤
– إليك يا ولدي، الطبعة العاشرة، دار سعاد الصباح الكويت ١٩٩٧
– فتافيت امرأة، الطبعة التاسعة، دار سعاد الصباح الكويت ١٩٩٧
– في البدء كانت الأنثى، الطبعة السابعة، دار سعاد الصباح للنشر الكويت ٢٠٠٠
– برقيّات عاجلة إلى وطني، الطبعة الخامسة، دار سعاد الصباح للنشر الكويت ١٩٩٧

- قصائد حبّ، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع الكويت ١٩٩٢
- امرأة بلا سواحل، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع الكويت ١٩٩٤
- خذني إلى حدود الشمس، دار سعاد الصباح للنشروالتوزيع الكويت ١٩٩٧
- القصيدة أنثى والأنثى قصيدة، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع الكويت ١٩٩٩

ثانياً: الدراسات

- التخطيط والتنمية في الإقتصاد الكويتيّ ودور المرأة، موسّسة سعاد الصباح للثقافة والنشر الكويت ١٩٨٩
- أزمة الموارد في الوطن العربيّ مؤسّسة سعاد الصباح للثقافة والنشر الكويت ١٩٨٩
- صقر الخليج عبدالله مبارك الصباح، مؤسّسة سعاد الصباح للثقافة والنشر الكويت ١٩٦٧

قبّاني، نزار: المجموعة الكاملة، منشورات نزار قبّاني بيروت ١٩٧٣

كيروز، وهيب: عالم جبران الفكريّ، بشاريا للنشر، بيروت ١٩٨٤

المرصفي، حسين: رسالة الكلم الثمان، دار الطباعة بيروت ١٩٨٢

ناصر، ناصيف:

- نحو مجتمع جديد، دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٠
- تصوّرات الأمّة المعاصرة، دار أمواج للطباعة والنشر بيروت

فهرست